

تَلِيَقَاتُ عَلٰى كِتَابِ
قُرْآنِ عَمُونَ الْمَوْحِدِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

جَاشِيَّةٌ عَلٰى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

تَالِيفُ

السَّيِّدِ الْإِسْلَامِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

أَمْرًا لِلدَّهْلِ السَّيِّدِ وَالْفَقِيرِ

التَّلَاقَاتُ

لِفَضِيلَةِ السَّيِّدِ الْعَلَامَةِ

الدَّكْتُورِ مُحَمَّدِ بْنِ فَرْزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

بِقَرَارِهِ لَهُ وَلِوَلَدِهِ طَبْعُ السَّيِّدِ

الْمَقْرُونِ بِوَلَدِهِ عَلَى شَيْءٍ

و. سَامَانِ بْنِ حَمَّادٍ عُمَانِيٍّ الْفَخْرِيِّ الشَّرْقِيِّ

بِقَرَارِهِ لَهُ وَلِوَلَدِهِ طَبْعُ السَّيِّدِ

الْمَقْرُونِ الْبَاقِي

بِكِتَابَةِ الْأَمْرِ الْإِسْلَامِيِّ

الْمَقْرُونِ

الْبَرَاءَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الْمَقْرُونِ

تَعْلِيقاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُوَّةِ عَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حِكْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ
جَاشِعٌ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ
الْحِزْبِ الثَّانِي

مَجْمُوعَةُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



شركة مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

❖ الرئيسي - حولي - شارع المثني - مجمع البدري

ص.ب: ١٠٧٥ . الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

❖ فرع حولي - شارع المثني - تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

❖ فرع المباركية - مقابل مسجد ابن بحر - ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

❖ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس - ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

❖ فرع المصاحف - حولي - مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

❖ فرع الرياض - المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ت: ٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E – mail: z.zahby74@yahoo.com

تَقْلِيقاتٌ عَلَى كِتَابِ
قُرَّةِ عَيْونِ الْمُؤَحِّدِينَ
فِي تَحْقِيقِ
حُجَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

حَاشِيَةٌ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِلْإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ

تَأَلَّفَ

السَّيِّدُ أَبُو الْإِيْمَنِ بْنُ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

أَقْرَأَ اللَّهُ لَهُمُ الْمُسْرَةَ وَالْمَغْفِرَةَ

التَّعْلِيقاتُ

لِفَضِيلَةِ السَّيِّدِ الْعَلَّامَةِ

الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَطَبِيعِ السَّامِعِينَ

اِعْتَمَدَ بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

د. سَامِعَانِ بْنِ حَبَابٍ عُمَانَ الْخَلَّالِ (الشُّوْبَلَم)

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلَا هَلْ يَنْبَغِي وَلَا شَأْنُهُ

الْجُزْءُ الثَّانِي

مَكْتَبَةُ الْأَمَلِ الدَّهْمِي
الْكُوتِيت

الْبَيْتُ الدَّهْمِي
الزِّيَاض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴿[الأعراف: ١٩١-١٩٢].

قوله: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿ وهذا مما احتج به عَزَّجَلَّ على المشركين، لَمَّا وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة؛ لأنهم مخلوقون، فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده، وأخبر أنهم مع ذلك ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي: لمن سألهم النصرة ﴿ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾.

فإذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى، فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين، وهو: كونهم عبيدًا لمن خلقهم لعبادته، والعبد لا يكون معبودًا. الدليل الثاني: أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم، فكيف يُرجى منهم أن ينفعوا غيرهم؟!

فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم.

... ————— الشَّجْخُ ————— ...

في الأبواب السابقة بيّن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعض أنواع الشرك، وفي هذا الباب أورد أدلة يريد بسياقها بيان بطلان الشرك.

فقوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، يعني: الذين يدعون اللات، والعزى، ومناة، والأصنام، والأولياء، والصالحين، وكل من أشرك بالله عَزَّجَلَّ أيًا كان معبوده، صنمًا، أو شجرًا، أو

حجرًا، أو وليًّا من الأولياء، أو ملكًا من الملائكة، أو نبيًّا من الأنبياء، أو صالحًا من الصالحين، كلهم يتصفون بهذه الصفة: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فإذا كانوا لا يخلقون شيئًا، فكيف يُدعون من دون الله عزَّ وجلَّ؟!

لأن العبادة إنما تكون للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تكون للمخلوق الذي لا يستطيع أن يخلق شيئًا وهذا باعترافهم، هم يعترفون أنها لا تخلق شيئًا، ولا يستطيعون أن يقولوا: إنها تخلق. لأن الواقع يكذبهم، وقد تحداهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣]، لأن الله سبحانه يعلم الغيب، يعلم ما كان وما يكون، فمهما بلغوا من الاختراع والتقدم العلمي - كما يقولون - لن يستطيعوا أبدًا في المستقبل أن يخلقوا أقل شيء وهو الذباب، الذين يصنعون الطائرات والنفاثات، ويغزون الفضاء - كما يقولون - لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، لو جمعت جميع المهرة والصناع والمهندسين والخبراء في العالم، كلهم من أولهم إلى آخرهم، لو اجتمعوا لن يخلقوا ذبابًا؛ لأن الخلق من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا أحد يستطيع أن يخلق أبدًا.

أما أنه ينتفع بما خلق الله، ويطلع على أسرار المخلوقات ومنافعها، فالله سبحانه هو الذي أطلعه عليها، وهو الذي سخرها، خلق هذا الخلق من أجل هذا، من أجل المنافع ومصالح العباد، فهم لم يخلقوها وإنما انتفعوا بها واطلعوا على شيء من أسرارها ومنافعها، لمصالحهم ومنافعهم،

أما الخلق فإنه من اختصاص الله عَزَّجَلَّ، والذي لا يقدر على أن يخلق شيئاً لا يجوز أن يُعبد من دون الله. هذا برهان من براهين التوحيد وبطلان الشرك، وهم يعترفون بهذا، ولم يقل: «ما لم يخلق شيئاً»، إنما قال: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: لا في الحاضر ولا في المستقبل، لكن لو قال: «ما لم يخلق» يمكن يقولوا: أجدادنا الذين في الماضي لم يستطيعوا، لكن لعلنا نستطيع ذلك بعدما تطور العلم، فالله عَزَّجَلَّ قطع الطريق عليهم بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾.

وهذا تحد منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُوَلَاءَ المشركين، فإذا كانوا صادقين في أن ألهمتهم التي عبدوها من دون الله تستحق العبادة، فليبرهنوا على أنها تقدر على أن تخلق شيئاً، ولن يستطيعوا ذلك.

❦ قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾ أي: هذه المعبودات مخلوقة، فإذا كانت لا تخلق فهي مخلوقة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦]، والمخلوق لا يصلح أن يعبد مخلوقاً مثله، إذ كيف تعبد وهو مخلوق مثلك؟! فإذا تقرر أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا غيرهم، بطلت عبادتهم.

وهذا برهان قاطع من براهين التوحيد وبطلان الشرك.

والبرهان الثاني: قد يقولون: نعم إنها ما تخلق شيئاً، لكنها تستطيع أن تنصرنا وتعيننا. فأبطل الله عَزَّجَلَّ ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، فهذه المعبودات لا تستطيع أن تنصر من دعاها أو طلبها؛ لأنها جمادات وأشجار وأحجار، أو أموات في القبور

لا يستطيعون أن ينصروا من دعاهم أو استغاث بهم، بل ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فلو أن بعض هؤلاء المعبودين أصابهم شيء ما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم، وإذا كانوا كذلك فكيف يدفعون عن غيرهم؟! فبإمكان أصغر طفل أن يكسر صنمًا من هذه المعبودات، ولا يستطيع الصنم أن يمنع نفسه من هذا الطفل، كذلك لو أن ذبابًا أخذ ما على الصنم، ما استطاع الصنم أن يسترده، ﴿وَأِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

وقد كان رجل في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعبد صنمًا، ويطيبه، وينظفه، وكان له ولد صالح مؤمن - كان ولده صحابيًّا -، فكان يأتي على هذا الصنم في غياب أبيه، ويلطخه بالقذارة، ثم يأتي أبوه، فينظفه ويطيبه، ويضع عنده سلاحًا، ويقول له: انتصر لنفسك، لا تترك أحدًا يعتدي عليك، فإذا جاء ثانية، وجده ملطخًا ومنجسًا، وجاء إلى الصنم ذات مرة، فوجد ثعلبًا يبول على رأسه، عند ذلك انتبه إلى عجزه عن دفع الأذى عن نفسه، ورجع إلى صوابه، وأنشد قائلاً:

أَرَبُّ يَبُولُ الثُّغْلَبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّغَابُ

ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ فَكَسَرَهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَ: غَاوِي بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى قَالَ: «أَنْتَ رَاشِدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ»، فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَشَهِدَ الْفَتْحَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).



(١) ذكر هذه القصة ابن سعد في الطبقات (٣٠٨/١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٥/٩)، وابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٤٣٤/٢).

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الآية

[فاطر: ١٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ إِلَى
قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَنْتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

ابتدأ عَزَّجَلَّ هذه الآيات بقوله: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾
يخبر الخبر أن الملك له، وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتديره،
ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ فإن من
كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع، أو دفع ضرر إلى أحد سوى
الله عَزَّجَلَّ وتقدس، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع
العبادة.

وأخبر عَزَّجَلَّ أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً، وأنهم لا يسمعون
دعاء من دعاهم، ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم
يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي: ينكرونه ويتبرءون ممن فعله معهم، فهذا
الذي أخبر به الخبر الذي ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾
[آل عمران: ٥].

وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به، وأنه لا يغفره لمن لقيه به، فأهل الشرك
ما صدقوا الخبر، ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع، بل قالوا: إن الميت يسمع،
ومع سماعه ينفع!! فتركوا الإسلام والإيمان رأساً، كما ترى عليه الأكثرين من
جهلة هذه الأمة.

... — الشَّيْخُ — ...

في هاتين الآيتين من سورة فاطر برهان على بطلان الشرك وصحة التوحيد، فقوله: ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: غير الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يشمل كل ما عُبد من دون الله؛ لأن الاسم الموصول من صيغ العموم، فيشمل كل ما عُبد من دون الله من آدميين، أو أحجار، أو أشجار، أو ملائكة، أو غير ذلك. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والقطمير: الغشاء الرقيق الذي يكون على النواة، وهو شيء حقير: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾؛ لأنهم عالم غائب لا يسمع من دعاه، إما جمادات، وإما أموات، وإما غائبون، هذه معبودات المشركين يعبدون الملائكة وهم عالم من عالم الغيب لا يشفونهم، ولا هم حاضرون عندهم، أو حجارة وهي أصنام وبنيات وأضرحة لا تسمع، أو أموات رميم في قبورهم لا يسمعون من دعاهم

فِيُشْتَرَطُ فِي الْمَدْعُو ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ:

الأول: أن يكون مالكا لما يطلب منه.

الثاني: أن يسمع الداعي.

الثالث: أن يقدر على الإجابة.

وهذه الأمور لا تتفق إلا في الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه المالك، السميع، القادر

على الإجابة.

ففي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ انتفى الشرط الأول.
وفي قوله: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ انتفى الشرط الثاني.
وفي قوله: ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ انتفى الشرط الثالث.

فإذا كان المدعو لا يستجيب فدعاؤه عبث، لا فائدة منه

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ ﴾ إذا جاء يوم
القيامة يتبرؤون منكم، وكل المعبودات من دون الله تبرأ من عبدها يوم
القيامة، حتى الشيطان يتبرأ منهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ
الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ
مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، يعني: ما أنا بمغيثكم. والصريخ: المغيث.
يعني: لا أقدر على إغاثتكم ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ أنتم لا تقدر على
إغاثتي، كقوله سبحانه: ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وكذلك الملائكة يتبرؤون من عبدهم يوم القيامة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ
أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبا: ٤٠-٤١]،
يعني: يعبدون الشياطين التي دعتهم إلى هذا، أما نحن براء منهم. وحاشا
وكلا أن ترضى ملائكة الرحمن بأن تُعبد من دون الله، فضلاً عن أن تدعو إلى
ذلك، وإنما هذا من عمل الشياطين.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الله له يوم القيامة: ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٣﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وكذلك سائر المعبودات تتبرأ ممن عبدها: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَتَفَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١١٥﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من هذه الأصنام والمعبودات، لكن أين؟!

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧] نعوذ بالله من الخزي والعار.

فذكر الله أربعة أشياء تدل على بطلان الشرك:

الأول: أن هذه المعبودات لا تملك شيئاً.

الثاني: أنها لا تستجيب لمن ناداها ودعاها.

الثالث: أنها لو سمعت ما قدرت على إجابة الداعي.

الرابع: أنهم يوم القيامة يجحدون عبادة من عبدهم عند الحاجة إليهم

فبطلت عبادتهم من هذه الوجوه الأربعة.

هذا مصير هؤلاء المشركين يوم القيامة، يُخبر الله عَزَّجَلَّ بما يكون إليه الأمر يوم القيامة؛ من أجل أن يتوبوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا رحمة منه بعباده؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ لا ينبئك ويُخبرك عن الأشياء مثل خبير بها وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يعلم الأشياء وعواقبها، ويعلم المال والمصير، وهو يُخبركم أيها الناس بأن من عبد غير الله فإنه سيتبرأ منه يوم القيامة، فخذوا حذرکم.

أما الجاهل فإنه لا يستطيع أن يُخبرك عن شيء، ولو أخبرك فإن خبره يكون غير صحيح، أما الله عَزَّجَلَّ فإذا أخبر بخبر فإنه يكون واقعاً لا بد منه، وكذلك رُسُلُهُ؛ لأنهم يخبرون عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما هؤلاء المشعوذون والصوفيّة والمخرّفون الذين يدعون الناس إلى عبادة الأضرحة والمقامات، ويقولون: هذه فيها بركة، وفيها.. وفيها. هؤلاء كذبة، فلا تصدقوهم.

فهم يعارضون قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ والله أخبرنا أنها لا تملك، وأنها لا تسمع، وأنها لو سمعت ما استجابت، وأنها يوم القيامة تبرأ ممن عبدها، والمشركون عارضوا هذا كله، ووصفوا معبوداتهم بأنها تملك ما يُطلب منها، وأنها تسمع من دعاها، وأنها تحببه، وأنها يوم القيامة تنقذه من العذاب، وهذه مخالفة لكلام الله، وتكذيب لخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يا سبحان الله!! إذا قال الشيطان أو المضلل أو دعاة السوء من بني آدم: إن هذه الأضرحة تنفع وتضر، والله عَزَّجَلَّ يخبرهم أنها لا تنفع ولا تضر، فيصدقون هؤلاء الدجالين، ويكذبون الله رب العالمين.

هذا هو واقع عباد الأضرحة، يكذبون الله عَزَّجَلَّ وإن لم يصرحوا بذلك، لكن فعلهم يدل على هذا، فلو سُئِلَ أحدهم عن معبوداتهم لقال: هي تنفع وتضر، وفلان استغاث بها فأغاثته، وفلان دعاها فأجابته!! وهو بكلامه هذا يكذب قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

أو يقول: إن العالم الفلاني يقول: إنها طيبة وتنفع!! فيصدق علماء الضلالة، ويكذب خبر الله أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تسمع، وأنها لا تجيب، وأنها تتبرأ من عبدها يوم القيامة، وما أضل الناس إلا دعاة الضلال، حيث زينوا لهم الشرك بمؤلفاتهم، وكتبهم، ومحاضراتهم، ودروسهم.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ. فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»^(١).

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ائْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِنِ حَمْدِهِ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»^(٣).

قوله: [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ. فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الْآيَةِ.

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ائْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِنِ حَمْدِهِ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الْآيَةِ.

(١) أخرجه البخاري معلقاً (ص ٧٣٧) كتاب المغازي، باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ومسلم موصولاً (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٠، ٤٠٦٩، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٠)، والترمذي (٣٠٠٤)، وأحمد (٩٣/٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسَهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ ابْنِ هِشَامٍ، فَتَزَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»، وَأَسْلَمَ هَؤُلَاءِ، وَحَسَنَ إِسْلَامَهُمْ].

قوله: [فِي الصَّحِيحِ] أي: الصحيحين، عَلَّقَهُ البخاري عن حميد عن ثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي والشافعي عن حميد عن أنس^(١)، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وقال عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة. والمقصود: أن الذي له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة، ولهذا المعنى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. فالذي قال الله عَزَّجَلَّ في حقه -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وهو خيرة الله من خلقه، ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله، وهو الله عَزَّجَلَّ، فهذا دينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بُعث به، وأمر أن يُبلّغه أُمته ويدعوهم إليه، كما تقدم في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله. فإياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين، الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (وَفِي الصَّحِيحِ) أي: في الصحيحين البخاري ومسلم رَحِمَهُمَا اللَّهُ،

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، وابن ماجه (٤٠٢٧)، وأحمد في المسند (٩٣/٢).

(عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» الشجعة: الجراح في الرأس والوجه خاصة، أما الجرح في بقية البدن فيقال: جرح، ولا يقال: له شجعة.

❁ (يوم أُحُدٍ) جبل أحد يقع شمالي المدينة، وقعت عنده الوقعة المشهورة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بين المشركين، وقد نظم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين قبل بدء المعركة، وهزموا المشركين في أول المعركة، إلا أن بعضهم خالف تنظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحلت بالمسلمين الهزيمة من أجل هذه المخالفة، ولو أنهم استمروا على تنظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاستمر النصر لهم، ولكن لما خالف بعضهم أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصيب المسلمون.

وهذه موعظة للمسلمين إلى يوم القيامة، أنهم إذا خالفوا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم عرضة لأن تنالهم بالعقوبة، فإذا كان أفضل الأمة وهم الصحابة حصلت عليهم العقوبة بسبب مخالفة بعضهم، فكيف بالذين يخالفون في أكثر من هذا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ (وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ) الرباعية: السن التي بعد الثانية من الجانبين، فأسنان الإنسان تنقسم إلى ثانيا أربع من أسفل ومن أعلى، وإلى رباعيات من أسفل ومن أعلى، وإلى أنياب من أسفل ومن أعلى، ثم بعد ذلك الأضراس.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أفضل الخلق- كُسِرَتْ سنه الرباعية في هذه الواقعة، ولم يسلم من العقوبة التي حَلَّتْ بالمسلمين لمخالفتهم أمر نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدل ذلك على بطلان عبادته، وأنه رسول مبلغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يملك نفعا ولا ضرا، بل لا يستطيع أن يدفع عن نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ما كتبه الله عليه، فُشِّجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكُسِرَت رُبَاعِيَّتُهُ، وَهُسِّمَ الْمَغْفَرُ عَلَى رَأْسِهِ، وَغَاصَتْ حَلَقَتَانِ فِي وَجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَقَطَ فِي حَفْرَةٍ، حَتَّى أَشَاعَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَحَصَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَصِيبَةٌ أَكْبَرُ مِنْ مَصِيبَةِ الْقَتْلِ، كُلِّ هَذَا بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ. وَمَا أَصَابَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ رَفْعَةٌ لِدَرَجَاتِهِ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ بَشَرٌ، إِذَا قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَيْئًا فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ، فَلَا تَجُوزُ عِبَادَتُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ الضَّرَرَ عَنْ نَفْسِهِ، فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، هَذَا بَرَهَانٌ وَاضِحٌ.

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» اسْتَبَعَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَاحَهُمْ وَهَدَايَتَهُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا ضَلَالٌ مَبِينٌ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَشْجُوا نَبِيَّهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَيُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ: لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ فَقَطْ، وَأَمَّا الْفَلَاحُ وَالْهَدَايَةُ فَهِيَ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ، فَكَيْفَ بَغْيُهُ؟! فَدَلَّ عَلَى بَطْلَانِ دَعْوَاهُمْ بِأَنَّ صَاحِبَ الْقَبْرِ الْفُلَانِي، أَوِ الشَّيْخَ الْفُلَانِي، يَجِبُ الْمَضْطَرُ، وَيُدْفَعُ الْبَلَاءُ، وَيَغِيثُ الْمَلْهُوفُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ شُرَكَائِهِ التَّعَلُّقِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، فَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ.

❁ قال: (عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ائْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا») قَتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَا عَلَيْهِم بِاللَّعْنَةِ، وَاللَّعْنَةُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. قَالَ: «اللَّهُمَّ ائْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَيِّنَتُهُمُ الرِّوَايَةُ الَّتِي بَعْدَهَا أَنَّ «فُلَانًا وَفُلَانًا» هُم: سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ آذَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآذَوْا الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ كَانُوا مِنْ صُنَادِيدِ الْكُفْرَةِ، وَكَانُوا مَعَ أَبِي سَفْيَانَ فِي وَقْعَةٍ أَحَدُ يَقُودُونَ جِيُوشَ الْكُفْرِ، فَلَعَنَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَشِدَّةِ كُفْرِهِمْ، وَاسْتَبْعَدَ وَأَيْسَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، وَدَعَا عَلَيْهِم بِاللَّعْنَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَسْلَمَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُمْ، وَلَمَّا ارْتَدَّ النَّاسُ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو خَطِيْبًا فِي أَهْلِ مَكَّةَ يُثَبِّتُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ لَهُمْ: لَا تَكُونُوا آخِرَ مَنْ أَسْلَمَ، وَأَوَّلَ مَنْ ارْتَدَّ، وَاللَّهُ إِنَّ هَذَا الدِّينَ لَيَمْتَدُّنَّ امْتِدَادَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، مِنْ طُلُوعِهِمَا إِلَى غُرُوبِهِمَا^(١). فَثَبَّتَ أَهْلَ مَكَّةَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا بِسَبَبِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَيْرَ.

فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الضَّلَالِ، وَمَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْكُفْرِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ هِدَايَتِهِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) ذَكَرَ ذَلِكَ الْأَثَرُ: ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْإِسْتِيعَابِ (٢/ ٦٧٠)، وَابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ (٢/ ٥٢٧)، وَابْنُ الْأَثِيرِ فِي أَسَدِ الْغَابَةِ (٢/ ٥٥٧)، وَالنَّوَوِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ (٢٢/ ١).

وفيه أيضًا أنه لا يعلم الغيب إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يُحكم على المعينين بالنار، إلا من حكم عليه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن، أو حكم عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولهذا فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنهم لا يشهدون لأحد بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنهم يرجون للمحسنين، ويخافون على المسيئين، ولا يجزمون لأحد؛ لأن العواقب بيد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والإنسان مهما بلغ من الكفر والشرك والعناد، فإنه قد يهديه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُصبح من أولياء الله الصالحين.

فهؤلاء أسلموا، وحسُن إسلامهم رضي الله عَنْهُمْ عَنْهُمْ، مع أنهم آذوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقتلوه، وآذوا المسلمين، ولكن مَنََّ الله عليهم بالهداية.

ولهذا المعنى قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، يعني: إنك لا تدخل الإيمان في قلب من تريد، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي بمعنى يدل وترشد، فهذا مما يملكه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يملك هداية الدعوة والإرشاد والبيان، لكنه لا يملك هداية التوفيق والإيمان، إنها هذه الله عزَّ وجلَّ وحده، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له هي هداية الدلالة والإرشاد فقط؛ كما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالحاصل: أن هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وما جاء في سبب نزولها فيها دليل على بطلان الشرك؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه

سادة المهاجرين والأنصار حصل عليهم من الضرر والهزيمة في وقعة أحد ما حصل، وهم سادات الأولياء، فدلّ على أنه لا يجوز التعلق بغير الله سُبحانه وتعالى؛ لأن هؤلاء لم يستطيعوا الدفع عن أنفسهم، فكيف يدفعون عن غيرهم، ولأن المخلوق مهما كان فإنه مخلوق، وهو فقير إلى الله سُبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

وهذه القصة فيها دليل على جواز القنوت في النوازل، فإذا نزل بالمسلمين نازلة يقنت الإمام في صلاة الفجر، في الركعة الأخيرة بعد الركوع، يدعو على الأعداء الذين داهموا المسلمين وحاصروهم، وهذه سنة ثابتة ومستمرة، أنه كلما نزل بالمسلمين نازلة فإنه يستحب للإمام الأعظم ولكل إمام في الصلاة أن يقنت في صلاة الفجر ويدعو على الكفار، حتى يخلص الله المسلمين منهم.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قنت يدعو على قوم مثل ما في هذا الحديث، وقنت يدعو لقوم من المسلمين المستضعفين أن ينقذهم الله من براثن المشركين الذين منعوهم من الهجرة وضايقوهم في مكة، فالقنوت في النوازل ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(١).

قوله: [وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ] أي: في «صحيح البخاري»، واختلف في اسم أبي هريرة، وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن بن صخر^(٢)، وهو دوسي من حفاظ الصحابة، حفظ من الحديث ما لم يحفظه غيره، كما في «صحيح البخاري» عن وهب بن منبه عن أخيه: سمعت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما من أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب^(٣). مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحيحين والمسند والسنن وغيرها^(٤).

قوله: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا -، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ» أي: بالإيمان بالله ورسوله، واتباعه فيما جاءكم به مما أنزل عليه؛ من توحيد الله عزَّ جَلَّ في

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٨٥)، والنسائي (١٠٨/ ٤)، وأحمد (٣٣٣/ ٢، ٣٥٠، ٣٦٠).

العبادة، وترك ما كنتم تعبدونه من دونه من الأوثان والأصنام، فإنهم بعد ذلك الشرك صاروا عبيداً لمن لا يضر ولا ينفع، ولا يستجيب ولا يسمع. وهم قد عرفوا أن ما كانوا يفعلونه من عبادة غير الله شرك بالله، فإنهم كانوا يقولون في تلبيتهم: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ) ^(١).

فسبحان الله! كيف جاز في عقولهم أن المملوك يكون شريكاً لمالكة، وقد قال عَزَّجَلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّلَكَةٍ أَيْمَنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨-٢٩].

قوله: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»: هذا هو معنى ما تقدم؛ من أنه عَزَّجَلَّ هو المتصرف في خلقه بما شاء، مما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده، والبراءة من عبادة ما سواه، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وبلغهم وأعذر إليهم، فأنذر قريشاً ببطونها،

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقبائل العرب في مواسمها، وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، إذا لم يؤمنوا به، ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به.

قوله: «سَلِّينِي مِنْ مَّالِي مَا شِئْتَ»: لأن هذا هو الذي يقدر عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان أمره إلى الله عَزَّجَلَّ فلا قدرة لأحد عليه، كما في هذا الحديث.

ولما مات أبو طالب - وكان يحوط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحميه - ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»^(١)، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار، لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله، فلم ينفعه حمايته النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يكون من المشركين، ولا الاعتراف بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحق بدون البراءة من الشرك؛ لأنه لم يبرأ من ملة أبيه.

فكل تعلق على غير الله؛ من طلب لشفاعة أو غيرها: شرك بالله، يكون عليه وبالأل في الدنيا والآخرة، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴿[الأنعام: ٥١]﴾. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكذلك الأحاديث، والله أعلم، وسيأتي في باب الشفاعة إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هذه كنيته، أما اسمه فاختلف فيه العلماء على أقوال كثيرة، أصحابها - كما قال النووي - أنه: عبد الرحمن بن صخر، من قبيلة دوس المشهورة، قَدِمَ على النبي وأعلن إسلامه، ولازم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملازمة تامة، يروي عنه الأحاديث، واهتمَّ بذلك اهتمامًا عظيمًا، حتى أصبح من أكثر الصحابة رواية للحديث، فإنه يوجد له في كتب السنة ما يزيد على خمسة آلاف حديث، فهو أكثر الصحابة رواية للحديث، لأنه تفرغ لذلك، تفرغًا تامًا، واهتم به، اهتمامًا تامًا، فأعانه الله على ذلك، وحفظ لهذه الأمة قسمًا كبيرًا من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو راوية الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يماثله أحد من الصحابة في رواية الحديث إلا عبد الله بن عمرو بن العاص؛ لأن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يكتب الحديث، وأما أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان يحفظ ولا يكتب.

وقد تعجَّب بعض الجهَّال في هذا العصر، ممن تأثروا بدعايات المستشرقين، أو بدعايات المبتدعة، فاستغربوا كثرة الأحاديث التي رواها هذا الصحابي الجليل، فصاروا يتكلمون كلامًا سيئًا في حقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن الله قَيِّضَ من علماء الإسلام من دحض هذه الشبهات، وردّها في نحورهم، ويبيّن

منزلة هذا الصحابي الجليل من بين الصحابة، واهتمامه بأحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهناك كتابات كثيرة تدافع عن مرويات هذا الصحابي الجليل، وتدحض شبهات المستشرقين والمبتدعة من الشيعة وغيرهم.

❦ قال: (قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾) هذا في مكة قبل الهجرة، أمره الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، كما أمره الله أَنْ يُنْذِرَ النَّاسَ عَامَةً؛ لَأَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فرسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامة للثقلين الجن والإنس، وقد بلغ البلاغ المبين، ولكنه اختص عشيرته، لأمر الله له بذلك.

وفي هذا دليل على وجوب المبادرة إلى فعل الأوامر، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل عليه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ بادر بتنفيذ ذلك وإبلاغه، ففيه دليل على وجوب المبادرة بامتنال أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الإنسان لا يتوانى إذا بلغه أمر من أوامر الله، أو أمر من أوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يبادر إلى تنفيذه، ولا يتوانى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والإنذار معناه: الإخبار والتحذير من وقوع أمر مكروه، وأما البشارة فهي: الإخبار عن أمر سار، فالله عَزَّوَجَلَّ بعث هذا النبي بشيرًا ونذيرًا، بشيرًا للمؤمنين بالخير والجنة، ونذيرًا للكافرين بالنار والعذاب، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والعشيرة: جماعة الرجل الذين ينتسب إليهم.

والأقربون: هم أقرب الناس إلى الإنسان؛ لأن القرابة تتفاوت، منهم: القرابة القريبة كالآباء، والأمهات، والإخوان، والأخوات، والأعمام، والعَمَّات، ومنهم: أقارب أباعد مثل أبناء الأعمام، وأبناء أبناء الأعمام إلى آخره، فهم أقارب، ولكنهم أقارب بعيدون.

وفي هذا دليل على أن الداعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يبدأ بأهل بيته وخاصته أولاً، ثم بجيرانه وأهل بلده، ثم يتمدد بالخير إلى من حوله من البلاد، أما العكس وهو: أن يذهب إلى الأبعد، أو إلى البلاد البعيدة، ويترك أهله، ويترك بلده، ويترك أقاربه، فهذا خلاف منهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به في هذه الآية، فمن منهج الدعوة البداية بالأقارب، وبأهل البيت؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، أمر بوقاية النفس أولاً، ثم بوقاية الأهلين، وذلك لأن الأقارب لهم حق، ومن أعظم حقوقهم: إرشادهم إلى ما فيه خيرهم، وصلاحهم، وفلاحهم، فهذا أنفع من أن تعطيههم الذهب والفضة والأموال، بل تبدأ بإرشادهم، وتوجيههم، ودعوتهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن لهم حقاً عليك، وليس حقهم مقصوراً على الإنفاق وإعطائهم المال.

ثم إنك لو دعوت الناس وتركت أهل بيتك، فإن الناس سينقمون عليك، ولا يقبلون دعوتك، ولا توجيهاتك، وسيقولون: لو كان صادقاً لبدأ بأهل بيته. فمن ذهب يدعو الناس إلى الخير، ويترك أهل بيته على المنكر

والجهل، وبيته فيه الأخطاء الكثيرة والمخالفات، أو في بلده وجماعته الأخطاء الكثيرة والمخالفات، فإن هذا ليس من منهج الدعوة، بل ينبغي عليه أن يبدأ بالأقربين، ثم ينتشر الخير شيئاً فشيئاً على من حولهم، هذا المنهج السليم.

وبعض الناس الآن يتركون بلادهم وفيها ما فيها من الشرك والكفر والإلحاد، ويأتون إلى بلاد التوحيد، ويقولون: إنهم دعاة إلى الله، وهذا خلاف منهج الدعوة، إذا كانوا صادقين في دعوتهم، لكن نخشى أن يكونوا مغرضين غير صادقين، يريدون أن يفسدوا على أهل التوحيد توحيدهم وعقيدتهم، فإن كانوا صادقين في دعوتهم فعليهم أن يبدؤوا بمن حولهم أولاً، أما إن كانوا مغرضين أو يريدون التلبيس على أهل التوحيد فأمرهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سيفضحهم ويكشف خططهم.

وهذا أمر يجب أن نتفطن له، فمنهج الدعوة يؤخذ من الكتاب والسنة، لا يؤخذ من الاصطلاحات والآراء، كما عليه كثير من الدعاة اليوم، يأخذون مناهجهم من العادات والآراء والمفترحات، لا من الكتاب والسنة، انظروا إلى هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وانظروا إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وانظروا إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فهذا من أعظم مناهج الدعوة.

لما نزلت عليه هذه الآية الكريمة بادر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بامثال أمر الله، وصعد على الصفا، الجبل المعروف، وكونه صعد الصفا فيه مشروعية أن

يكون الخطيب والمبلغ على مُرتَفَع من أجل أن يراه الناس، ومن أجل أن يُبلِّغ صوته إلى الحاضرين والمستمعين.

❁ فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» المعشر: الجماعة، أي: يا جماعة قريش، يقال: إنهم من العشرة فأكثر. وقريش: القبيلة المشهورة التي بُعث منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني هاشم، وبني هاشم من قريش، صميم العرب، وجيران بيت الله العتيق.

❁ قال: «اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ» أي: افتدوها وأنقذوها من عذاب الله. بم يشترون أنفسهم؟ يشترون أنفسهم بالدخول في الإسلام، وتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وترك عبادة ما سواه، هذا هو الذي يشترون به أنفسهم، فافتداء الإنسان نفسه من النار إنما يكون بطاعة الله، وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدون ذلك لا يمكن أن ينجو من عذاب الله، ولو قَدَّمَ الأموال الطائلة، فمن مات على الكفر، فإنه لو قَدَّمَ ملء الأرض من الذهب ليشترى نفسه من النار فلن يُقبل منه، لكن لو مات على التوحيد، وعلى العقيدة الصحيحة، فقد اشترى نفسه من النار، فلا نجاة من النار إِلَّا بطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والموت على عقيدة التوحيد الخالص، والسلامة من الشرك.

❁ قال: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» إذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغني عن قريش شيئاً - وهم قبيلته - فكيف يغني عن غيرهم؟!!

ثم خص عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من هو أخص من قريش، خص أقرب الناس إليه، فقال: «يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» هذا عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا أُغْنِي

عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قال لعمه وعمته - صنوي أبيه^(١) - : لا أغني عنكما من الله شيئا.

ثم خص أخص من عمه وعمته، وهي بنته، فقال لها: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لقبيلته ولقرايته ولأقرب الناس إليه: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فإن هذا دليل على بطلان عبادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبادة غيره من باب أولى، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا؛ كما في قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنفسه، ولا لأقرب الناس إليه، فكيف يملكه لغيره؟!!

فهؤلاء الذين يتعلقون على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدعونه من دون الله، ويستغيثون به، ويقولون: مدد يا رسول الله!! هؤلاء هم على دين المشركين الأوليين، عبدة اللات والعزى ومناة، لم يتغير من الأمر شيء؛ لأن العبادة حق لله عَزَّجَلَّ لا تجوز لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي من الأولياء، ولا لأي مخلوق، إنما هي محض حق الله عَزَّجَلَّ.

(١) يُقال لعم الرجل: صنو أبيه. قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٥٧): «الصنو: المثل، وأصله: أن تطلع نخلتان من عرق واحد». وانظر: مادة (صنو) في لسان العرب (١٤/ ٤٧٠)، ومختار الصحاح (ص ١٥٦).

وفي هذا ردُّ على الذين يتعلقون بقرابتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمون أنفسهم أهل البيت، ويظنون أن قرابتهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إن صح زعمهم- تكفيهم وتنجيهم من عذاب الله، دون أن يشترؤا أنفسهم بالإيمان والتوحيد والعمل الصالح، فيعتمدون على قرابتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي لا تنفعهم شيئاً، فهذا أبو لهب عم الرسول ما نفعته قرابته من رسول الله، وأنزل الله فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ [المسد: ١-٥]، وهذا أبو طالب عم الرسول، والذي كان يحمي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدافع عنه، لكنه أبى أن يدخل في الإسلام حمية لدين الجاهلية، وبقي على دين عبدالمطلب حتى مات، لما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر له مكافأة لصنيعه معه، أنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾ [التوبة: ١١٣]، فسمى أبا طالب مشركاً، لا يجوز الاستغفار له؛ لأنه مات على الشرك، وخرجت نفسه وهو يقول: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. نسأل الله العافية. فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ۝﴾، سماه مشركاً، ونهى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستغفار له؛ لأنه مات على الشرك. ومع ذلك تجد الرافضة وبعض كتاب المسلمين المنخدعين بكلام الرافضة يصفون أبا طالب بأنه مؤمن، ويطرضون عنه، وهم بذلك يكذبون القرآن.

فإذا كان أعمام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاروا مشركين ومن أهل النار؛ لأنهم لم يتركوا الشرك ويدخلوا في الإسلام، فغيرهم من باب أولى، ومجرد القرابة لا تكفي، حتى ابنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي أقرب الناس إليه - قال لها: «سَلِّيني مِنْ مَالِي» ذلك أنه لا يملك إلا ماله فقط، وأما غير ذلك فلا يملكه «سَلِّيني مِنْ مَالِي مَا شِئْتُ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

فما بال صاحب البردة يقول (١):

فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمَمِ
يزعم أن له عهدًا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدخله الجنة؛ لأن اسمه محمدٌ على اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أين له هذا العهد؟! فكم من فاسق بل وكافر يسمى بهذا الاسم، وهل التسمية بمحمد مُبرر لدخول الجنة؟! هذا هو الضلال والعياذ بالله.

فيا له من حديث عظيم، يقطع علائق الشرك والتعلق على غير الله عَزَّ وَجَلَّ، من الأنبياء والصالحين وغيرهم، ولكن أين التفكير وأين العقول؟! التقليد الأعمى أخذ الناس، والهوى أخذ الناس، ولم يفكروا في كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما يمشون على العادات والتقاليد، وعلى قول فلان وعلان، ويصدقون دعاة الضلال، ولا يلتفتون إلى ما في القرآن، وما في سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأدلة.



(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل والفتاوى (ص ١٩٠)، والمطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد (٤٦/١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثَّانِيَّةُ: قِصَّةُ أَحَدٍ.

الثَّالِثَةُ: قُتُوْتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفُهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمَدْعُوَ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْهَا التَّمَثِيلُ بِالْقَتْلِ، مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ.

السَّادِسَةُ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَأَمَّنُوا.

الثَّامِنَةُ: الْقُتُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

التَّاسِعَةُ: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

الْعَاشِرَةُ: لَعْنَةُ الْمُعَيَّنِ فِي الْقُتُوتِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قِصَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جِدَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»،

حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، فَإِذَا صَرَّحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّنَ

الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْآنَ،
تَبَيَّنَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

... الشَّبَحُ ...

❖ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ) مِنْ سُورَةِ فَاطِر
﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ
مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُكُمْ وَلَا يُنِيتُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ ❖ [فاطر: ١٣-١٤].

❖ (الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ أَحَدٍ): وَفِيهَا مَا حَصَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
الْجِرَاحِ، وَكَسْرِ رِبَاعِيَّتِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بَشَرٌ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ
عَلَيْهِ، وَأَيْضًا مَا حَصَلَ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا
نَبِيَّهُمْ ٩»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ قَوْلَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ❖ [آل عمران: ١٢٨].

❖ (الثَّالِثَةُ: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي
الصَّلَاةِ) قَنْتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَا عَلَى صَنَادِيدِ قَرِيشٍ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ انْعَنْ
فُلَانًا وَفُلَانًا»، وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ عَلَى دَعَائِهِ، وَمَعَ هَذَا قَالَ اللَّهُ
عَزَّجَلَّ لَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ❖.

❖ (الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمُدْعُو عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ)، وَمَعَ هَذَا عَاتَبَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ.
❖ (الخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ
نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْهَا التَّمْثِيلُ بِالْقَتْلِ، مَعَ أَنَّهُمْ بَنَوْا عَلَيْهِمْ) وَلَمْ
يَسُوغْ هَذَا أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمُ الرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللْعَنَةِ، أَوْ يَسْتَبْعِدَ هَدَايَتَهُمْ؛

لأن الله عَزَّ وَجَلَّ بيده الأمر كله، فهداهم، ودخلوا في الإسلام، وقبل الله توبتهم.

❖ (السَّادِسَةُ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) فدل على أن الأمر لله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء فإنه لا يُدعى من دون الله.

❖ (السَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨])، فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَأَمَّنُوا) يعني: الأمر كله لله، إن شاء تاب عليهم، وإن شاء عذبهم، وليس لك من الأمر شيء، الأمر لله فيهم، وقد تاب الله عليهم، ودخلوا في الإسلام، وحسن إسلامهم.

❖ (الثَّامِنَةُ: الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ) هذا سنة نبوية مؤكدة.

❖ (التَّاسِعَةُ: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُو عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ) فإذا دعوت على أحد في القنوت، فإن هذا لا يُبطل الصلاة، أو دعوت له وقلت: اللهم اغفر لفلان، اللهم ارحم فلانة، فهذا مشروع لا يؤثر على الصلاة، كما يظن بعض العوام.

❖ (الْعَاشِرَةُ: لَعْنَةُ الْمُعَيَّنِ فِي الْقُنُوتِ) هذه مسألة اختلف فيها العلماء، وظاهر القصة والحديث أنه لا يجوز لعن المعين؛ لأن الله عاتب رسوله على ذلك، وقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ لأنك لا تدري ما يؤول إليه حال هذا المعين، وإن كان في الوقت الحاضر كافراً وظالماً، فلا تدع عليه باللعنة؛ لأنك لا تدري لعله يموت على الإسلام.

﴿الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قِصَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾﴾ حيث بادر بامثال أمر الله، ودعا عشيرته، وخاطبهم عموماً، وخاطبهم خصوصاً، وقال للجميع: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً».

وهؤلاء القبوريون يأبون هذا الدليل، ويدعونه ويستغيثون به، ويقولون: الأمور كلها بيد الرسول!

فهذا صاحب البردة يقول:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ^(١)

فهذا يكذب قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقرباته: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً».

فهؤلاء الضلال يدعون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستغيثون به ولا يدعون الله عَزَّجَلَّ، مع أنهم يدعون الإسلام، وما هذا إلا من انتكاس العقول والفطر.

وليس كل من يدعي الإسلام يُسَلِّم له، فإذا لم يخضع لأدلة الكتاب والسنة، ويترك الهوى والعصية، ويترك التقليد الأعمى، فإنه لا ينفعه التسمي بالإسلام.

(١) انظر: الروض الأنف (١/ ١٢)، ومجموعة الرسائل والمسائل والفتاوى (١/ ١٨٩).

❁ (الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جَدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ) حَيْثُ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَلَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَصَفَوْهُ بِالْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ الْآنَ وَيَحْذَرُ النَّاسُ مِنَ الشِّرْكِ، يَقُولُونَ: هَذَا مَجْنُونٌ، أَوْ هَذَا قَاصِرُ النَّظَرِ، أَوْ هَذَا يَبْغِضُ الْأَوْلِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ يَتَهَمُونَهُ بِأَنَّهُ يَبْغِضُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُوهُ وَلَا يَسْتَغِيثُ بِهِ. هَكَذَا يَقُولُونَ.

فملة الكفر واحدة لا تتغير في كل وقت.

❁ (الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»)، هَذَا تَصْرِيحٌ وَإِعْلَانٌ عَلَى جَبَلِ الصِّفَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَعْلَنَ ذَلِكَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، لِعَامَّةِ النَّاسِ، وَلِقَرَابَتِهِ. ثُمَّ يَأْتِي هَؤُلَاءِ الضَّلَالِ وَيَقُولُونَ: بَلْ هُوَ يَمْلِكُ، وَيَغْنِي مِنْ دَعَاهِ وَاسْتِغَاثِهِ بِهِ وَلِجَأِ إِلَيْهِ!! يَقُولُونَ هَذَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَفِي كُتُبِهِمْ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَصُورَةَ لِكِتَابٍ مِنْ كُتُبِ هَؤُلَاءِ عُنَوَانُهَا: «رَفَعَ الصَّوْتُ بِالِاسْتِغَاثَةِ بِالنَّبِيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ»، هَذَا عُنَوَانُ الْكِتَابِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَا فِي دَاخِلِ الْكِتَابِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؟!

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ -وَهِيَ أَقْرَبُ أَقْرَبَائِهِ-: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، وَهِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا شَيْئًا فَإِنَّ

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع أن يدفع عنها ما أَرَادَهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،
فكيف بغيرها من الناس؟!!

ورغم ذلك فإن الخواص من علماء الضلال لا يؤمنون بهذا كله،
ويضربون بهذه الأدلة عرض الحائط، ويقولون: هذا الذي عليه الناس، وقال
به فلان، وقال به علان!!

فإذا كان هذا شأن الخواص الذين يدعون العلم، فكيف بالعوام؟!
وهذا يدل على غربة الدين، فالمسلمون في العالم الآن يعدون بالملايين
أو بالمليارات، لكن الدين أضحى غريباً؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ
غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا»^(١)، أي: أن الإسلام الصحيح غريب وقليل،
أما الادعاء فهو كثير.



(١) أخرجه مسلم (١٤٥، ١٤٦) من حديث أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٥ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

قوله: ﴿إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال عنها الفزع. قاله ابن عباس وغيره^(١). ذكر عز وجل هذه الآية في سياق قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِي زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُكُمْ مِّثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، قَالُوا: وَإِنَّمَا يَفْزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ مِنْ غَشِيَةٍ تُصِيبُهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ اللَّهُ بِالْوَحْيِ^(٢). قال ابن كثير: وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِبَةَ فِيهِ، لِصَحَّةِ الْأَحَادِيثِ فِيهِ وَالْآثَارِ^(٣).

وقال أبو حيان^(٤): تَظَاهَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ قَوْلَهُ: حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَلَائِكَةِ إِذَا سَمِعَتِ الْوَحْيَ إِلَى

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٩٠ / ٢٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: جلي». وعن مجاهد قال: كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وعن قتادة قال: إِذَا جلي عن قلوبهم. وانظر: تفسير ابن كثير (٥٣٧ / ٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩٠ / ٢٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٣٨ / ٣).

(٤) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي، الإمام الكبير في العربية والتفسير، وُلِدَ سنة أربع وخمسين وستمائة، وتلا القراءات أفراداً وجمعاً على مشائخ الأندلس، وسمع الكثير بها وبأفريقيا، ثم تقدم الإسكندرية ومصر، ولازم ابن النحاس، ومن مشايخه: الوجيه بن الدهان، والقبط القسطلاني، وابن الأنماطي، وغيرهم، صنف التصانيف المشهورة الكثيرة، ذكر بعض الحفاظ أنها تزيد على خمسين =

جَبْرِيلَ، وَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِهِ، سَمِعَتْ كَجَرِّ سِلْسِلَةِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ، فَتَفَزَّعَ عِنْدَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً.

قال: وَبِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ فِي صَدْرِ الْآيَاتِ تَتَسَقُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْأُولَى، وَمَنْ لَمْ يَشْعُرْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُشَارٌّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لَمْ تَتَّصِلْ لَهُ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَا قَبْلَهَا^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣])؛ أي: ما جاء في تفسير هذه الآية، وأن المراد بالذين فُزع عن قلوبهم هم الملائكة، وغرض المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من عرض هذا الباب: بيان بطلان عبادة غير الله؛ لأنه إذا كانت الملائكة تخاف من الله، وتفزع عند كلام الله عَزَّجَلَّ، مع عظم خلقتهم وقوتهم وقربهم من الله، فإن عبادتهم لا تجوز، كما كان يعبدهم المشركون، وإذا بطلت عبادة الملائكة من دون الله فإن غيرهم من باب أولى.

وقد سبق أن عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أبوابًا في بيان بطلان عبادة الأولياء والصالحين، وأورد الأدلة على ذلك، ثم أكمل السياق في هذا الباب ببطلان

= مصنفًا، منها: «البحر المحيط» في التفسير، و«النهر من البحر»، و«شرح التسهيل»،

وغيرها، توفي بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. انظر: معرفة القراء الكبار للذهبي

(٢/٧٢٣)، وطبقات الشافعية (٣/٦٩)، والبدر الطالع (٢/٢٨٨).

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٧/٢٦٥).

عبادة الملائكة، فدل على بطلان عبادة غير الله، سواء أكانوا من الملائكة، أم من الأنبياء، أم من الأولياء والصالحين، فضلاً عن غيرهم.

ثم ساق المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ أَقْوَالَ الْمَفْسَرِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ فَرَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ - كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - لِأَنَّ أَحَادِيثَ الرِّسُولِ الْآتِيَةَ تَبَيَّنَ هَذَا، وَالسَّنَةُ تَفْسِرُ الْقُرْآنَ.

❁ فقولُه: ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ تدخل فيه الملائكة؛ لأن (الذين) اسم موصول، والأسماء الموصولة تفيد العموم، فيدخل فيها الملائكة.



وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمر أربعة:

الأول: أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله، والذي لا يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض لا ينفع ولا يضر، فهو عَزَّجَلَّ هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده.

الثاني: قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾ أي: في السماوات والأرض، أي: وما لهم شرك مثقال ذرة من السماوات والأرض.

الثالث: قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ والظهير: المعين، فليس لله معين من خلقه، بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم؛ لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وآخرهم.

الرابع: قوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وأخبر عَزَّجَلَّ أن من اتخذ شفيعاً من دونه حُرِمَ شفاعته الشفعاء.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]؛ لأن اتخاذ الشفعاء شرك، لقوله عَزَّجَلَّ في حقهم: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. والمشرك منفية عنه الشفاعاة في حقه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شَفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

[الأنعام: ٩٤].

وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه، ويدعوه، ويرجوه، ويخافه،
ويحبه؛ لما يؤمله منه، وهذه من أنواع العبادة التي لا يُصرف منها شيء لغير
الله، وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص.

... ————— الشَّبَحُ ————— ...

هذه الآية من سورة سبأ تدل على بطلان عبادة غير الله، من وجوه
أربعة:

الأول: أن هذه المعبودات من دون الله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ، ومثقال الذرة كالهباءة التي تطير في الهواء، لا يملكها أحد دون الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني: لا يملكها استقلالاً. والملك الذي بأيدي الخلق هذا بأمر
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي ملكهم إياه، فهو ملكه سبحانه، وهم عبيده.

الثاني: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي: لا يشاركون المالك، وهو
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالسماوات والأرض كلها لله عَزَّجَلَّ، ليس لأحد فيها شيء،
ولم يتجرأ أحد ويدعي امتلاكه السماء الدنيا، أو نصفها، أو جزء منها، حتى
الفراعنة والجبابرة والطواغيت، ما ادعى أحد منهم أن شيئاً من السماوات
له، أو أنه خلق شيئاً من السماوات والأرض.

الثالث: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ الظهير: المعين، فإذا كان ليس وارثاً،
ولا مشاركاً، فعلى الأقل يكون معيناً للمالك، والله عَزَّجَلَّ لا معين له، هو

غني عن الإعانة، بل هو الذي يعين خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القادر على كل شيء،
الغني عن كل شيء، ليس في حاجة إلى من يعينه على تدبير الملك وخلق
المخلوقات.

الرابع: إذا كان لا ملك له، وليس شريكاً للملك، ولا معاوناً له،
فلا أقل من أن يكون واسطة، والله عَزَّجَلَّ لا يتوسط أحد عنده إلا بإذنه له، هو
الذي يملك الشفاعة: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]، فهو سبحانه ليس مثل المخلوقين، يشفع
الشفعاء عندهم ويتوسطون بدون إذنهم ولو ما رضوا، يأتون عندهم
 ويفرضون عليهم قبول الشفاعة، ويضطر الملك أو الرئيس إلى قبول الشفاعة
من أجل تأليف الناس؛ لئلا يختلفوا عليه، أما الله عَزَّجَلَّ لا تنفع الشفاعة عنده
إلا بإذنه، فلا تُطلب من الملائكة، ولا من الرسل إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالذين يطلبون الشفاعة من الأموات، والأصنام، والأشجار،
والأحجار، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون:
هؤلاء شفعاؤنا عند الله!! هذا كلام باطل، فالله سبحانه لم يأذن لهذه الأصنام
ولا هذه المعبودات في الشفاعة.



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَذْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُذْرِكَ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»^(١).

قوله: [فِي الصَّحِيحِ] أي: صحيح البخاري.

ففي هذا الحديث أن من عرف الله عَزَّجَلَّ ذل له تعظيماً ومهابة وخوفاً، لاسيما عند سماع كلامه عَزَّجَلَّ؛ لأن قوله: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ» أي: بكلامه ووحيه إلى جبريل، وقوله: «فِي السَّمَاءِ» يدل على العلو، ففيه إثبات كلام الله، وعلوه على خلقه، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

وهذا الحديث ونحوه مما احتج به أهل السنة على الجهمية، والأشاعرة، والكلابية، وغيرهم من أهل البدع، ممن ألحد بالتعطيل في أسماء الله وصفاته.

... — الشَّبْحُ — ...

هذا الحديث الصحيح في تفسير قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قوله: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ» معناه:

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ، حَدِيثُ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ»^(١)، فِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْكَلَامِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ كَلَامٌ يُسْمَعُ، حَيْثُ تَسْمَعُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَإِذَا سَمِعُوهُ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، تَعْظِيمًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ قَوْلُهُ: «فِي السَّمَاءِ» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ فِي السَّمَاءِ أَيُّ: فِي الْعُلُوِّ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ يَرَادُ بِهَا مَا عَلَا وَارْتَفَعَ. فَهُوَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾^(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ❁ [الملك: ١٦-١٧]، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَيُّ: الْعُلُوِّ، هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ❁ [الأنعام: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ❁ [الحديد: ٤]، وَالْعَرْشُ هُوَ أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَسَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْظَمُهَا^(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ لِسَيِّدِهَا: «أَعْتَقْتُهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(٣)، وَالْأَدَلَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

(١) سَيِّئَاتِي تَخْرِيجِهِ (ص ٦١).

(٢) كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٣٧) مِنْ حَدِيثِ مَعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السَّلْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد صنّف الحافظ الذهبي^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ كِتَابًا سَمَّاهُ: «العلو للعلي الغفار» ساق فيه الأدلة على علو الله على عرشه، وهي كثيرة.

قال العلماء: إن أدلة علو الله على عرشه تبلغ ألف دليل أو أكثر من الوحي، ومن الفطرة، ومن الأدلة العقلية، وهذا ثابت لا شك فيه، ولا ينكره إلا الملاحدة من الجهمية وغيرهم.

❦ فقوله: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ» أي: تكلم بالوحي، وذلك عندما يوحى إلى جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الموكل بالوحي، وحينما يتكلم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوحيه يكون لذلك رهبة عند الملائكة؛ لأنهم لا يدرون ما الذي حدث، وترتجف السماوات، ويفزع الملائكة خوفاً وهيبة لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يدرون ما الذي حدث، ثم يخرون سجداً لله عَزَّوَجَلَّ، وفي رواية: «يُضْعَقُونَ»^(٢) أي: يصيبهم الصعق، وهو الغشي. وأول من يرفع رأسه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكلمه الله بالوحي ما يشاء؛ لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الملك الموكل بالوحي، وهو الروح الأمين الذي ائتمنه الله على وحيه، فيكلمه من وحيه بما أراد، ثم يمر على الملائكة، «كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَا لَكُنَّهَا: مَاذَا

(١) هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، حافظ لا تجاري، ولا فظ لا يُباري، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الأبهام في تواريخهم والألباس، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف، له من المصنفات: تاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وطبقات القراء، وميزان الاعتدال، وطبقات الحفاظ، وغير ذلك كثير، ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ١٠٠)، والوافي بالوفيات (٢/ ١١٤، ١١٥)، والدرر الكامنة (٥/ ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٩٨).

قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].
قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، أي: يقولون: «قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»، أي: تكلم ربنا بالحق، لأنه سبحانه لا يتكلم إلا بالحق.

❖ قوله: «وَهُوَ الْعَلِيُّ» هذا فيه إثبات العلو، فهو سبحانه علي بقدره وبذاته فوق مخلوقاته، وهو العلي بقهره، فجميع أنواع العلو له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الكبير الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه عَزَّجَلَّ، والخلق كلهم بالنسبة إليه لا شيء؛ لعظمته وكبريائه وصغر المخلوقات بالنسبة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الحديث فيه مسائل عظيمة:

أولاً: فيه المسألة التي أورد المصنف الحديث من أجلها، وهي: بطلان عبادة الملائكة، لأنهم يخافون من الله ويفزعون، فليس لهم من العبادة شيء، وإذا بطلت عبادة الملائكة بطلت عبادة غيرهم من باب أولى.

ثانياً: فيه إثبات علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق مخلوقاته.

ثالثاً: فيه إثبات الكلام لله عَزَّجَلَّ، وأن الله يتكلم بكلام يُسمع، تسمعه السماوات والأرض والملائكة، ويُسمعه الله عَزَّجَلَّ من يشاء من خلقه.

رابعاً: فيه أن المخلوقات كلها تدرك عظمة الله عَزَّجَلَّ، فالسماوات الجوامد تدرك عظمة الله، وتخاف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وترتجف وترتعد عند كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ويأتي في الحديث الثاني ما يحصل من الشياطين الذين يسترقون السمع.



قوله: «خَضَعَانَا»: مصدر خضع.

قوله: «لِقَوْلِهِ»: صريح في أنهم سمعوا قوله عَزَّجَلَّ، وأنه بصوت، وأن ذلك ينفذ جميع الملائكة، أي: يسمعونهم كلهم.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال عنها الفزع.

قوله: «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُّ السَّمْعِ» أي: الكلمة التي سمعتها الملائكة وتحدثوا بها.

قوله: («وَمُسْتَرِقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ» هكذا وَصَفَهُ سُفْيَانُ) راوي الحديث، وهو ابن عيينة (بِكْفِهِ).

قوله: «فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ» يعني: مسترق السمع، «فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ» من الشياطين، «ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ فَيَتَكَلَّمُ بِهَا...» الحديث.

قوله: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا» أي: الساحر أو الكاهن «مِائَةَ كَذِبَةٍ»، «فَيُصَدِّقُ» في المائة كلها «بِنَلِكِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»؛ لقبول النفوس للباطل.

... — الشَّيْخُ — ...

﴿قوله: «صَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ» الملائكة من أعظم المخلوقات، لا يعلم عِظَمَ خَلْقَةِ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كانوا على هذه الحالة من العِظَمِ، ومع هذا لا تصلح عبادتهم من دون الله، فهم مع قُوَّتِهِمْ وَعِظَمِ خَلْقَتِهِمْ يخافون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا سمعوا كلامه ضربوا بأجْنِحَتِهِمْ. وهذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة، وهي ثابتة بالقرآن كما في

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَّثَ وَرُبِعَ﴾ [فاطر: ١]، لهم أجنحة يطرون بها بين السماء والأرض، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة، ومنهم من له أكثر من ذلك، ولا يعلم عظم خلقه الملائكة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك فإن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة، ولورأوهم لما توا من الروح والفرع، ولذلك فهي تأتي في صور بشر، وإنما تأتي الملائكة على خلقها عند العذاب وعند الموت والعياذ بالله، أما قبل ذلك فإنها تأتي بصور بشر رفقا ببني آدم؛ لأنهم لا يطيقون رؤية الملك، حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأتيه جبريل في صورة دحية الكلبي^(١)، فيكلمه بما أرسله الله به، فقد ثبت في الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين، قد سد الأفق^(٢)، وجاء في وصف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه: «لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٍ»^(٣)، فلم يره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صورته الملكية إلا مرتين: مرة في بطحاء مكة، والمرة الثانية ليلة المعراج حينما عرج بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماء: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤]، وما عدا ذلك كان يأتي إلى النبي

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن جبريل أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأم سلمة: «من هذا؟» -أو كما قال- قالت: هذا دحية، فلما قام قالت: أيم الله! ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر جبريل.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ يَرُونَ هَذَا الرَّجُلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: «خَضَعَانَا» هذا مفعول لأجله، يعني: لماذا ضربوا بأجنحتهم؟
لأجل الخضوع لله، وتعظيماً له، وخوفاً منه عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَتُهُمْ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْبَدُوا مَعَ اللَّهِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ:
❁ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ❁
[النساء: ١٧٢]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي حَقِّهِمْ: ❁ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ
عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ❁
[الأنبياء: ٢٦-٢٧] يعني: الملائكة.

❁ قوله: «خَضَعَانَا لِقَوْلِهِ» أي: لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ
الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَلَامًا
يُسْمَعُ، تَسْمَعُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيُسْمَعُهُ جِبْرِيلُ، وَإِذَا سَمِعَهُ الْمَلَائِكَةُ أَصَابَهُمْ هَذَا
الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ.

❁ قوله: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» يَسْمَعُونَ هَذَا الصَّوْتَ الْعَظِيمَ
كَأَنَّهُ سِلْسِلَةُ حَدِيدٍ تَجْرُ عَلَى صَفْوَانٍ، يَعْنِي: عَلَى صَخْرَةٍ مَلْسَاءٍ، وَلَا شَكَّ
أَنَّ السِّلْسِلَةَ إِذَا جَرَتْ عَلَى الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ يَكُونُ لَهَا صَوْتُ عَجِيبٍ، وَهَذَا
تَشْبِيهُ لَصَوْتِ الْوَحْيِ، أَوْ لَصَوْتِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❁ قوله: «يَنْفَذُهُمْ ذَلِكَ» أي: أَنْ كَلَامَ اللَّهِ يَبْلُغُ قُلُوبَهُمْ فَيَخَافُونَ.

❁ قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني: أزيل عنها الفزع، وعادت إليهم الطمأنينة.

❁ قوله: ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ يسألون جبريل عَلَيْهِ السَّلَام؛ لأنهم لا يدرون ما الذي حدث، فيخبرهم جبريل فيقول: «قَالَ الْحَقَّ»، فيقول بعضهم لبعض: «قَالَ الْحَقَّ» أي: قال ربنا الحق.

❁ قال: «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ» المسترق: الذي يأخذ الشيء بسرعة وخفية، ومنه سُمي السارق الذي يأخذ المال على وجه الخفية والسرية حيث لا يراه أحد، ومسترق السمع: هو الشيطان الذي يخطف الكلمة من الوحي الذي تتكلم به الملائكة في السماء، وهذا هو دور الشياطين، فالملائكة يصعقون ويخافون من الله عَزَّجَلَّ، ويخرون له سجداً تعظيماً لشأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الشياطين - لعنهم الله - فإنهم يركب بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى عنان السماء، كما تركب الأصابع بعضها بعضاً.

❁ قوله: (وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) معناه: أن الشياطين يعلو بعضها بعضاً حتى تصل إلى عنان السماء، كل واحد يركب على الآخر، من أجل استراق السمع.

❁ قوله: (وَصَفَهُ سُفْيَانٌ) يعني: راوي الحديث، وهو سفيان بن عيينة، أحد كبار المحدثين المشهورين الثقات الأثبات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: وصف تراكمهم وركوب بعضهم فوق بعض في الجو.

❁ قوله: (بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا) يعني: أمالها، (وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)، أي: فرّق بين أصابعه، والأصابع يكون بعضها فوق بعض، هذا معناه: أن سفيان أراد أن يوضح لتلاميذه والرواة عنه بالمثال المحسوس المشاهد عملية تراكم الشياطين بعضهم فوق بعض في الهواء، وهذا فيه: أن من وسائل التعليم ضرب الأمثلة للطلاب حتى يفهموا، وذلك كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يفسر قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، حيث خطّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا، وخط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: «هَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، وَهَذِهِ السُّبُلُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١). فهذا من توضيح المعاني بالمحسوسات، وهي طريقة شرعية ناجحة في الإفهام، وهو ما أراده سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وصفه عملية تراكم الشياطين في الهواء بكفه، وجعل أصابعه بعضها فوق بعض وفرّج بينها من أجل أن يوضح لتلاميذه ذلك.

فالشياطين يعلو بعضهم بعضًا، حتى يقتربوا من السماء الدنيا، ويسمعوا شيئًا من كلام الملائكة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]، يرسل الله عَزَّجَلَّ عليهم الشهب،

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤٣/٦)، وأحمد (٤٣٥/١)، وابن حبان (١٨٠/١)، والحاكم في المستدرک (٢٦١/٢) وصححه، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمنهم من يدركه الشهاب فيحرقه، ومنهم من يلقي الكلمة على الكاهن من بني آدم قبل أن يدركه الشهاب، إذا أراد الله ذلك.

والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، ويتعامل مع الشياطين، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، فيأتي الشيطان بهذه الكلمة التي سمعها من السماء والتي هي حق فيلقيها إلى الشيطان الذي تحته، والشيطان الذي تحته يلقيها إلى من تحته، وهكذا حتى تنتهي إلى الكاهن، الذي يتعامل معه، ثم إن الكاهن يكذب معها مائة كذبة، ويحدث بها الناس، فيصدقونه فيما يقول من أجل كلمة واحدة في المائة، وهذا من لبس الحق بالباطل.

وهذا دليل على أن الساحر كافر؛ لأنه يتعامل مع الشياطين، وكذلك الكاهن كافر لأنه يخضع للشياطين ويتعامل مع الشياطين.

❁ قوله: (فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) الغالب أنه يدركه الشهاب، فيبطل كيدهم؛ لأن الله حرس السماء بالشهب بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحياناً - إذا أراد الله عَزَّجَلَّ لا يدركه الشهاب حتى يلقيها على رفيق له من الإنس وهو الكاهن، لأجل امتحان الخلق، ولو شاء ربك لأدركه الشهاب وأحرقه، لكن يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِحُكْمِهِ أَرَادَهَا أَنْ يَلْقَى الْكَلِمَةَ عَلَى الْكَاهِنِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةِ النَّاسِ.

✽ قال: (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ) لا يبلغها وحدها؛ لأن الشياطين لا يريدون الصدق، إنما يريدون الكذب، ولا يحبون هذه الكلمة، لكن يريدون بها التلبس على الناس.

وهذه طريقة أهل الضلال الذين يلبسون الحق بالباطل، لماذا يلبسون الحق بالباطل؟ لأجل أن يروجوا الباطل، لأن الباطل لو كان وحده ما قبله الناس، لكن إذا جعل معه شيء من الحق فإن غالب الناس الذين ليس لهم بصيرة ولا تمييز يروج عليهم هذا التلبس، ويقبلون الجميع، أما أهل البصيرة وأهل العلم الراسخون في العلم فلا يروج عليهم التلبس أبداً، بل يبينون الزيف من الصحيح.

✽ قوله: (أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا) يعني: فيصدقونه في كل ما قال، ويقولون: إنه صدق في يوم كذا وكذا. بسبب الكلمة التي سُمعت من السماء، يصدقونه في تسع وتسعين كلمة بسبب كلمة واحدة من الحق، وهذا الذي عليه كثير من الناس أنهم يقبلون الباطل الكثير بسبب حق يسير يكون معه، وهذا الذي عليه أهل التلبس من الشياطين، والمضللين من بني آدم، ومن علماء السوء ودعاة الضلال، فهم لا يقولون بالباطل المكشوف وإنما يسترونه بشيء من الحق، أو من الشيء الذي يغطي زيفهم، وهذا التلبس هو أخطر ما يكون على النفس.

✽ قوله: (فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ) قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي مَسَائِلِ هَذَا الْبَابِ: (وَفِيهِ قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ)، كيف تقبل تسعة وتسعين من الكذب بسبب كلمة واحدة؟

فالحاصل: أن هذا حديث عظيم، فيه فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه أن السنة النبوية تفسر القرآن، فهذا الحديث فسر هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ۖ ﴾ ففيه رد على الطائفة الخبيثة التي تريد رفض السنة والاقتصار على القرآن، وإذا اقتصرنا على القرآن فمن أين نفسر القرآن؟! القرآن يفسر بأحد أربعة أمور: أولاً: يفسر القرآن بالقرآن.

ثانياً: إذا لم يكن في القرآن ما يفسر القرآن يُفسر بسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثالثاً: إذا لم يكن في السنة ما يفسر القرآن، يُفسر بأقوال الصحابة؛ لأنهم تلاميذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنه تعلموا وتلقوا العلم، فهم أدرى الناس بسنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعاً: إذا لم يكن هناك تفسير من الصحابة يفسر بمقتضى لغة العرب التي نزل بها، يُنظر إلى معنى الكلمة في لغة العرب، ويفسر بلغة العرب التي نزل بها.

واختلف أهل العلم في قول التابعي: هل يفسر به القرآن أو لا، فمنهم من يرى ذلك، فيكون وجهاً خامساً؛ لأن التابعي تتلمذ على صحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فله ميزة على غيره ممن تتلمذ على غير الصحابة.

فلا يُفسر القرآن بغير هذه الوجوه - إما بالقرآن، وإما بالسنة، وإما بقول الصحابي، وإما بلغة العرب التي نزل بها - أما أن يُفسر بغير هذه الطرق فهذا باطل لا يجوز؛ لأنه قول على الله بلا علم.

فالذين يفسرون القرآن بالنظريات الحديثة، أو ما يسمونه بالعلم الحديث، فهذا خطأ، وهو قول على الله بلا علم، والنظريات هذه عمل بشر، تصدق وتكذب، وكثير منها يكذب، وغالبًا ما تأتي نظرية أخرى تبطل هذه النظرية السابقة، مثل: ما عند الأطباء، ومثل: ما عند الفلاسفة؛ لأنه عمل بشر، فالنظريات الحديثة لا يفسر بها كلام رب العالمين، ولا يقال: هذا من الإعجاز العلمي كما يسمونه، وهذا ليس بإعجاز علمي أبدًا، وينبغي أن يُصان كلام الله عن نظريات وأقوال البشر؛ لأن هذه النظريات تضطرب ويكذب بعضها بعضًا، فهل يفسر كلام ربنا بنظريات مضطربة؟!

الفائدة الثانية: إثبات صفات الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد أثبت في هذا الحديث علو الله على خلقه، وأنه في السماء سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأثبت أن الله يتكلم بكلام يُسمع، تسمعه الملائكة وترتعد عند سماعه.

الفائدة الثالثة: وهي التي عقد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب من أجلها: بطلان التعلق على الملائكة، عكس ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الملائكة، واعتقاد أنهم بنات الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - ففي هذا بطلان الشرك؛ لأنه إذا بطلت عبادة الملائكة وهم من هم في القوة والمكانة عند الله والقرب من الله، إذا بطلت عبادتهم والتعلق عليهم وطلب الحوائج منهم، فَلَأَن يَبْطُلَ ذَلِكَ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ مِنْ بَابِ أُولَى، فالذين يتعلقون على القبور وعلى الأضرحة وعلى الأشجار والأحجار، ويتبركون بها، كل هذا باطل؛ لأن هذه مخلوقات مسخرة ليس لها من الأمر شيء، إنما التعلق يكون بالله عَزَّ وَجَلَّ، والتوكل يكون على الله وحده.

والملائكة مفتقرون إلى الله، وكل المخلوقات مفتقرة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الغني الحميد، أما غيره فهم فقراء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفائدة الرابعة: في الحديث إثبات استراق السمع، وأن الشياطين قد يسترقون السمع، وهذا كان في الجاهلية كثيرًا، فلما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُرست السماء بالشُّهب، وقُلَّ استراق السمع، وقد حكى الله عَزَّجَلَّ في القرآن العظيم ما قاله بعضهم لبعض: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ﴾ يعني: هذا في الجاهلية، ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ يعني: بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَحِدُّ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ (١) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمَّ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿[الجن: ٩-١٠].

الفائدة الخامسة: فيه بطلان السحر والكهانة، وأن مصدرهما واحد، وهو التلقي عن الشياطين، فلا يُقبل السحر، ولا خبر الساحر، ولا تُقبل الكهانة ولا خبر الكاهن؛ لأن مصدرهما باطل، وقد جاء في الحديث: «مَنْ أَتَى عَرَافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» (١)، وفي الحديث الآخر: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» (٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من حديث صفية عن بعض أزواج النبي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٤٢٩/٢)، والحاكم في المستدرک (٤٩/١) وصححه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٣٢٣/٥)، والدارمي في سننه (١١٣٦). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢١٧/١٠): «وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين».

فهذا فيه بطلان السحر والكهانة، وأنه لا يجوز تصديق السحرة، ولا تصديق الكُهَّان، ولا الذهاب إليهم، لكن في وقتنا الحاضر السحرة والكهان خرجوا على الناس باسم أطباء ومعالجين، وفتحوا محلات، يعالجون فيها المرضى بالسحر والكهانة، لكن لا يقولون: هذا سحر، ولا يقولون: هذا كهانة، بل يُظهرون أنهم يعالجون النَّاسَ بأمور مباحة، ويذكرون الله عند الناس، وقد يقرؤون شيئاً من القرآن من أجل التلisis، ولكن في الخفاء يقول للمريض اذبح شاة على صفة كذا وكذا، ولا تأكل منها، خذ من دمها واعمل كذا وكذا، أو اذبح ديكاً أو دجاجة، يصفه بأوصاف، ويقول له: ولا تذكر اسم الله عليه، أو يسأله عن اسم أمه واسم أبيه، أو يأخذ ثوبه وطاقيته من أجل أن يسأل عملاءه من الشياطين؛ لأن الشياطين يخبر بعضهم بعضاً. ثم يقول الساحر أو الكاهن: فلان هو الذي سحرك. وهذا كله تدجيل، والواجب على المسلمين أن يتنبهوا لهذا، وأن يحذروا هؤلاء المشعوذين والدجالين الذين يفسدون عقائد الناس، ويأكلون أموالهم بالباطل.

الفائدة السادسة: ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: (قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟) بحيث تُقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، فالنفوس تقبل الباطل، حيث إنها تقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، وهذا فيه: التحذير من لبس الحق بالباطل، وأن لا نغتر بمن يلبس علينا، حيث يأتي لنا بأشياء من الحق، ويدخل تحتها كثيراً من الباطل والخداع، والواجب على المؤمن أن يكون كَيْسًا فطنًا؛ كما قال

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ كَيْسٌ فَطِنٌ»^(١)، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»^(٢).

فالمؤمن لا يتسرع بقبول الأقوال أو المذاهب أو المناهج حتى يفحصها تمامًا، وكيف يفحصها؟ يعرضها على الكتاب والسنة إن كان يعرف، وإن كان لا يعرف يسأل عنها أهل العلم وأهل البصيرة، حتى يميزوا له الصحيح من السقيم، هذا واجب علينا جميعًا أننا لا ننخدع بالدعايات المزوّقة والمستورة والمغلّفة بشيء من المحسنات حتى نَسْبِرَ غُورَهَا، وَنَخْبِرَ ما بداخلها، فإن كنا نستطيع ذلك فالحمد لله، وإلَّا فإننا نسأل أهل العلم وأهل البصيرة الذين يميّزون بين الحق والباطل.



(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٠٧/١) والديلمي في الفردوس (١٧٥/٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوُحْيِ، أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رَعْدَةً - شَدِيدَةً، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوُحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

قوله: [وَعَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ]، وسمعان - بكسر السين - ابن خالد الكلابي، ويُقال له: الأنصاري، صحابي، ويُقال: إن أباه صحابي أيضًا.

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ»، فالإرادة صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي نوعان: شرعية وقدرية؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ونحو هذه الآيات.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢٢٧/١)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٣٦/١)، وابن خزيمة في التوحيد (٣٤٨/١)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٩١/٢٢)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٥٣٨/٣)، وأبونعيم في الحلية (١٥٢/٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٦٦/١)، والبغوي في تفسيره (٥٥٧/٣).

قوله: «أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ»، فيه: بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ».

قوله: «تَكَلَّمَ بِالنُّوحِي»، فيه: التصريح بأنه يتكلم بالوحي، فيوحيه إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم: إن القرآن عبارة عن كلام الله.

قوله: «أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رَعْدَةً - شَدِيدَةً، خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». في هذه معرفة عظمة الله، ويوجب للعبد شدة الخوف منه عَزَّ وَجَلَّ، وفيه إثبات العلو.

قوله: «فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا»: هيبة وتعظيمًا لربهم وخشية؛ لما سمعوا من كلامه عَزَّ وَجَلَّ وتقدس.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ». هذا فيه إثبات الإرادة لله عَزَّ وَجَلَّ، وقوله: «أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ» هذا فيه إثبات الكلام.

❖ قوله: «أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً» هذا فيه دليل على أن الجمادات تدرك عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَسْجُدُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالسماوات المبنية تسبح الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك الجمادات والحجارة، وكل شيء يسبح بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني: ينزه الله عن النقائص وعن الشريك، ولكن بلغات لا يفهمها الناس ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

❁ قوله: «أَوْ قَالَ رَعْدَةً شَدِيدَةً» الرجفة أو الرعدة بمعنى واحد، لكن الراوي يريد التأكد من الرواية، فأتى بالاحتمال ولم يجزم، وهذا من دقة السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الرواية إذا صار عند أحدهم تردد بين لفظين فإنه يأتي باللفظين، ولا يأتي بصيغة الجزم إلا بما يتقن أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، وهذا فيه التحرز من الحديث عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يُحَدِّثُ الْإِنْسَانُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ تَيَقَّنَهُ، وأما إذا كان عنده شك أو تردد فإنه يأتي بالاحتمال، فيقول: يُروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا، أو يأتي باللفظتين إذا تردد بينهما.

الحاصل: أن «رجفة» أو «رعدة» المعنى واحد لكن هذا من دقتهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الرواية ومن ورعهم أن ينسبوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفظاً لم يقله، وإن كان المعنى واحداً، لكنها الأمانة في الرواية.

والآن كثير من الناس لا يتورع أن ينسب إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولاً أو فعلاً دون أن يتثبت من صحته، بل يسارع إلى ذلك، ويقول: قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا. والعلماء يقولون: إذا كان الحديث ضعيفاً فلا يُقال: قال الرسول، بل يُقال: رُوي عن الرسول، أو ورد عن الرسول، أو جاء عن الرسول كذا وكذا، ولا يقال: قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا إذا كان الحديث صحيحاً.

❁ قوله: «أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً» - أَوْ قَالَ رَعْدَةً - شَدِيدَةً، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، فيه: أن السماوات تخاف من الله عَزَّجَلَّ، ومثله قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا

هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ، خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿[الحشر: ٢١]،
 اندك الجبل من هيبة الله وعظمته، وصار ترابًا، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِّنَ
 الْحِجَارِ لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
 مِنْهَا لَمَّا يَنْهَضُ مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فالمخلوقات كلها - جامدها،
 وصامتها، وناطقها - تخاف من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلها عندها إدراك لعظمة
 الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.



قوله: «فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ»؛ لأنه ملك الوحي عليه السَّلام.

قوله: «فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَخِيهِ بِمَا أَرَادَ». فيه: التصريح بأنه عَزَّجَلَّ يوحى إلى جبريل بما أَرَادَهُ من أمره، كما تقدم في أول الحديث.

قوله: «ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَا لَيْكُتُهَا» وهذا أيضًا من أدلة علو الرب عَزَّجَلَّ وتقدس.

قوله: «مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾». قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: وهذا دليل بأنه عَزَّجَلَّ قال ويقول.

وأهل البدع من الجهمية، ومن تلقى عنهم كالأشاعرة، جحدوا ما أثبتته الله عَزَّجَلَّ في كتابه، وأثبتته رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته؛ من علوه، وكلامه، وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتتها لنفسه، وأثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة، على ما يليق بجلال الله وعظمته، بشبهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: «فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ»، أي: يرفع رأسه من السجود، وهذا فيه فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلام، وأنه أول من يرفع رأسه من الملائكة بأمر الله.

❖ قوله: «فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ» يكلمه الله عَزَّجَلَّ بالوحي؛ لأنه الأمين على الوحي، وهو الروح الأمين، قال عَزَّجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، وصفه الله بأنه أمين، وأنه كريم.

❖ قوله: «ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبَّنَا يَا جِبْرِيلُ؟» يسأله أهل السماوات؛ لأنه يحمل الوحي الذي تكلم الله به، فيسألونه ماذا قال ربنا يا جبريل؟ وهذا فيه سؤال أهل العلم؛ لأن الملائكة تسأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فغيرهم من باب أولى.

❖ قوله: «فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾». قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلَّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ» تعظيماً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَصف كلام الله بأنه حق.

وهذا فيه دليل على أن كلام الله حق لا ريب فيه، وأن الملائكة لا تعلم الغيب، ولذلك تسأل جبريل.

❖ قوله: «وَهُوَ الْعَلِيُّ» هذا فيه إثبات العلو لله عَزَّجَلَّ، والعلو ثلاثة أقسام:

* علو الذات.

* وعلو القدر.

* وعلو القهر.

وكلها ثابتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهو عليٌّ بذاته فوق مخلوقاته، وهو عليٌّ القدر سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو عليٌّ القهر، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] بجميع أنواع العلو.

وأهل السنة والجماعة يشتون العلو بأنواعه الثلاثة.

أما المبتدعة فلا يُشتون إلا علو القدر والقهر فقط، وأما علو الذات فينفونه، ولا يشتون العلو لله عَزَّ وَجَلَّ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

❁ قوله: «الْكَبِيرُ» الذي لا أكبر منه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، كل المخلوقات صغيرة بالنسبة إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ليست بشيء، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، هذا من عظمتة سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: «فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالنُّوحِي إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»؛ لأن جبريل رسول مبلّغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، والرسول يكونون من الملائكة، ويكونون من البشر، والرسول البشري يتلقى الوحي من الرسول الملكي عن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فالقرآن تكلم الله به سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأوحاه إلى جبريل، فنزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغه لأمة.

فدلّ هذا الحديث على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: إثبات الكلام لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، لم يخالف فيه إلا المبتدعة.

المسألة الثانية: إثبات الإدراك للسموات والخوف من الله، وأنها تدرك عظمة الله وتخافه، وهي جمادات، كما دلّت على ذلك الأدلة الأخرى، فإذا كانت السموات تخافه، فكيف لا يخافه ابن آدم هذا الضعيف المسكين؟!

المسألة الثالثة: وهي المسألة التي ساق المصنف هذا الحديث من أجلها، فيه: أن الملائكة يخافون من الله، ويسجدون له، فدلّ على أنهم عباد محتاجون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقراء إلى الله، فهذا يدل على بطلان دعائهم من دون الله، واتخاذهم وسائط وشفعاء عند الله عَزَّوَجَلَّ، الملائكة يشفعون، لكن لا يشفعون إلّا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَرَضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، فلا تحصل الشفاعة عند الله إلّا بشرطين: الإذن بالشفاعة، ورضاه عن المشفوع فيه، بأن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان، أما الكافر، فقال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وليس الله مثل ملوك الدنيا يشفع الشفعاء عندهم ولو لم يأذنوا، ويضطرّ الملوك إلى قبول الشفاعة من أجل تأليف الكلمة، ومن أجل حاجتهم للوزراء، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه غني عن عبادته، ولا أحد يتقدّم بالشفاعة عنده إلّا بإذنه، ومحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق، ففي عرصات يوم القيامة إذا تقدّمت الخلائق إلى محمّد تطلب منه الشفاعة لفصل القضاء، لا يشفع إلّا بعد أن يسجد لله عَزَّوَجَلَّ، ويحمد الله بمحامد عظيمة، ويدعوه ويثني عليه، ثم يُقال

له: «يَا مُحَمَّدُ: اَرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ»^(١)، فالشفاعة ملك لله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، فلا تطلبها إلا من الله عَزَّجَلَّ، فنقول: اللهم شَفِّعْ فِي نَبِيِّكَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللهم شَفِّعْ فِي عِبَادِكَ الصالحين، تطلبها من الله، أما أن تقول بعد موت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مُحَمَّدُ اشْفَعْ لِي، أو يَا فلان اشْفَعْ لِي، وتطلبها من الميّت، فهذا لا يجوز.

فطلب الشفاعة من القبور شرك أكبر، أما الحي فُتطلب منه الشفاعة بأن يطلب منه أن يدعو الله عَزَّجَلَّ لمن احتاج إلى ذلك، أما الميّت فلا يقدر على دعاء، ولا يطلب منه شيء.

هذا هو المقصود من إيراد هذا الحديث، وهو بيان حال الملائكة مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنهم يخافونه، وَيُضَعِّقُونَ من هيئته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن سماع كلامه، ويخشون الله سَجْدًا، فدلّ على أنهم عباد فقراء إلى الله، ليس بيدهم شيء إلا ما أعطاهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تجوز دعوتهم من دون الله عَزَّجَلَّ، وإذا كان هذا في حق الملائكة ففي حق غيرهم من باب أولى وأحرى.

المسألة الرابعة: فيه دليل على تعظيم كلام الله، وتعظيم القرآن الكريم؛ لأنه كلام الله، ووحى من الله، فيجب تعظيمه، والخشوع عند سماعه، والخوف مما فيه من الوعيد والتهديد، والرجاء بما فيه من الوعد الكريم، فكلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يكرّم، ويهاب، ويعظم، وهو ليس مثل كلام المخلوقين، وكذلك حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلّ ويعظم؛ لأنه وحى من الله عَزَّجَلَّ، قال

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْهُوَىٰ ۖ﴾ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿[النجم: ٣-٤]﴾، فهو وحي من الله، وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المسألة الخامسة: فيه فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وأنه موكل بالوحي، وأن الملائكة كلهم يسألونه: ماذا قال ربنا؟ وهذا دليل على فضله ومكانته عند الله عَزَّجَلَّ.

المسألة السادسة: فيه دليل على أن السماوات طباق متعددة إلى سبع سماوات، وفي كل سماء سكاّن من الملائكة، يعمرونها بعبادة الله عَزَّجَلَّ من التسبيح والتهليل، وتعظيم الله عَزَّجَلَّ.

المسألة السابعة: فيه دليل على أن الملائكة كلّ له عمل موكل به، إذا كان جبريل موكلًا بالوحي، فكذلك ميكائيل موكل بالقطر والنبات كما جاء في الحديث، وكذلك إسرافيل موكل بالنفخ في الصُّور، وكذلك بقية الملائكة^(١)، ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في استفتاحه إذا قام يتهجّد

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٠/٢، ٧٠١)، وابن أبي شيبه في العرش (ص ٨٦، ٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... فَمَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًا قَدَمَيْهِ لَا يَرْفَعُ طَرَفَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ سَبْعُونَ نُورًا مَا مِنْهَا مِنْ نُورٍ يَكَادُ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، بَيْنَ يَدَيْهِ لَوْحٌ فَإِذَا أَدْنَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ اِرْتَفَعَ ذَلِكَ الْوَحْيُ فَضَرَبَ جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمْرِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟ قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: عَلَى قَبْضِ الْأَنْفُسِ».

من الليل: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ»^(١)، لماذا خص هؤلاء، مع أن الله رب لكل شيء؟ لمكانة هؤلاء، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل موكل بالقطر والنبات الذي فيه حياة الأرض بعد موتها، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي فيه حياة الأجسام بعد موتها، فكلهم موكلون بالحياة، هذا بحياة القلوب بالوحي، وهذا بحياة الأرض بالماء والقطر، وهذا بحياة الأجساد يوم القيامة ونفخ الأرواح فيها.

المسألة الثامنة: أن الملائكة لا يعلمون الغيب، ويسألون غيرهم عما خفي عليهم.



(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّانِيَّةُ: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشَّرِكِ، خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشَّرِكِ مِنَ الْقَلْبِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قَالَ كَذًا وَكَذَا».

السَّادِسَةُ: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.

التَّاسِعَةُ: ارْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ.

الْحَادِيَّةُ عَشْرَةَ: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّهُ تَارَةٌ يُدْرِكُهَا الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةٌ يُلْقِيَهَا فِي

أُذُنٍ وَلِيَّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهَا.

الخَامِسَةُ عَشْرَةَ: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَخْيَانِ.

الْسادسة عشر: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ.

السابعة عشر: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّاءِ.

الثامنة عشر: قُبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟

التاسعة عشر: كَوْنُهُمْ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَخْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِبْتِاثُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ.

الحادية والعشرون: التَّضْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ كَانَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخْرُونَ لِلَّهِ سُجَّدًا.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ) وَهِيَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ، لَكِنِ الضَّمِيرُ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ بِدَلِيلِ الْحَدِيثَيْنِ، وَالسَّنَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَهَذَانِ الْحَدِيثَانِ يَفْسِرَانِ هَذِهِ الْآيَةَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ.

❖ قوله: (الثَّانِيَّةُ: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشُّرْكِ) وَهَذَا الَّذِي عَقَدَ الْمُصَنِّفُ هَذَا الْبَابَ مِنْ أَجْلِهِ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مِنَ الْخَوْفِ

من الله، وتعظيم الله عَزَّجَلَّ، وأنها لا تعلم الغيب، ولذلك تسأل جبريل: ماذا قال ربنا؟ ولو كانت تعلم الغيب ما احتاجت أن تسأل جبريل، مما يدل على أن الملائكة لا تعلم الغيب وأنها تسأل، وأنها تخاف من الله، فدل على أنها لا تصلح للعبادة؛ لأن العبادة لا تكون إلا لله عَزَّجَلَّ.

✽ قوله: (خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ)؛ لأنه إذا بطلت عبادة الملائكة فعبادة من دونهم من باب أولى.

✽ قوله: (وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشَّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ)، هذه الآية تقطع عروق الشرك من القلب؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أن المدعوين من دون الله لا يملكون شيئاً استقلالاً، ولا يشاركون الله في ملكه، ولا يشفعون عنده إلا بإذنه، فإذا كانوا لا يملكون شيئاً استقلالاً، ولا يشاركون الله في ملكه، ولا يشفعون عنده إلا بإذنه، إذاً بطلت عبادتهم من دون الله، فبهذه الوجوه قطعت هذه الآية عروق الشرك.

✽ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾)، متى تقول الملائكة هذا؟ تقوله إذا أخبرهم جبريل، وقال لهم: قال الله الحق، فيقولون كلهم: «قَالَ الْحَقُّ».

✽ قوله: (الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ) سببه أنهم يصيبهم الفزع والخوف، وترتجف السماوات وترعد، وهذا حدث عظيم جعلهم يسألون: ماذا قال ربكم؟

❁ قوله: (أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قَالَ كَذًا وَكَذًا»؛ لأن جبريل هو السفير بين الله وبين رسله بالوحي، وهو الأمين على الوحي.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ) وهذا دليل على أنه هو أفضل الملائكة؛ لأنه أول من يرفع رأسه، ولأنه يُسأل: ماذا قال ربنا؟

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ) دل هذا على أن الملائكة لا تعلم الغيب، لذا احتاجوا إلى السؤال، ودل على سؤال أهل العلم، إذا كانت الملائكة تسأل من هو أعلمهم جبريل فغيرهم من باب أولى.

❁ قوله: (الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْغَشْيَ يَعْصِي أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ) ولا يبقى أحد، حتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يصيبه ذلك، ويخر ساجداً لله، ويكون أول من يرفع رأسه، فإذا كانت الملائكة تسجد لله عَزَّجَلَّ دل على أنهم عباد، لا يجوز أن يُعبدوا من دون الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: (الثَّاسِعَةُ: إِزْجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ) هذا فيه عظمة الله عَزَّجَلَّ، وأن السماوات ترتجف بكلامه خوفاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَعْظِيمُهُ، ولكن البشر قلوبهم أقسى من الحجارة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، لو أن الله كلم الجبل

بالقرآن لتصدع، وابن آدم يقرأ القرآن وكأنه لا يقرأ شيئاً من قسوة القلب،
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

❁ قوله: (الْعَاشِرَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ)؛ لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المكلف بحمل الوحي وتبليغه إلى حيث أمره الله من أنبيائه ورسله.

❁ قوله: (الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ) فيه بيان عمل الشياطين والكهان لثلاثي غش بهم؛ لأن الشياطين إنما يسترقون السمع ليكذبوا معه ويخلطونه بالباطل لأجل غش بني آدم، فهم لا يريدون الخير لبني آدم أبداً، بل يريدون إهلاكهم، فلماذا يحرصون على استراق السمع؟ من أجل الغش، والتزوير، لا محبة في الوحي أو محبة لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قوله: (الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا)؛ لأنهم لا يقربون السماء إلا بأنهم يركب بعضهم فوق بعض حتى يكونوا عموداً يصل إلى عنان السماء، ففي هذا دليل على كثرة الشياطين وحيلهم، ومكرهم، كل هذا لإهلاك بني آدم.

❁ قوله: (الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: إِرْسَالُ الشُّهْبِ)؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْآخِلَى﴾ أي: لا يسمعون إلى الملائكة ﴿وَيُقَذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يقذفون بالشهب ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ يعني: الكلمة التي يسمعونها ﴿فَاتَّبَعُوهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ٨-١٠] شهاب: وهو الشظية

من النجم يرسلها الله ويرمي بها الشيطان الذي يسترق السمع فيحرقه بين السماء والأرض.

فهذا فيه بيان حكمة هذه الشهب التي ترى في الأفق، وأنها حراسة للسماء؛ لأن الله خلق هذه النجوم لثلاث حكم:

الأولى: أنها رجوم للشياطين.

الثانية: أنها زينة للسماء، فأنت إذا نظرت إلى السماء بالليل ورأيت هذه النجوم تتلألأ فإن ذلك مما يبهج النفس، ومما يريح النفس لهذه المناظر الجميلة، مما يدل على عظمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثالثة: أنها يقتدى بها في ظلمات البر والبحر، حيث يهتدي المسافرون، قال عز وجل: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فإذا انطمست النجوم، ما استطاع الناس أن يسيروا في البر ولا في البحر في ظلمات الليل.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ عَشْرَ: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيَهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) وهذا لحكمة الله، أن الله عز وجل يحرقه لكي لا يتوصل إلى مقصوده، وتارة لا يدركه الشهاب؛ لأن الله منعه عنه لحكمة أرادها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى من أجل الابتلاء والامتحان.

❁ قوله: (الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ)، ولا يغر الناس أنه يصدق بعض الأحيان، هذا فيه تحذير من الاغترار به، وأنه لو صدق بعض الأحيان فإن أكثر الأحيان يكذب، ويكذب مع الكلمة

الواحدة مائة كذبة. فلا يجوز تصديقه، وكذلك غيره ممن يلبسون الحق بالباطل، يجب ألا يُقبل منهم تلبسيهم، ولا يُغتر بتلبسيهم.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةٌ كَذِبَةٍ)، هذا دليل على أنه يريد الغش، فهو لا يسترق الكلمة من السماء محبة لها، وإنما يريد أن يغش بني آدم، فيصدقوه بسبب هذه الكلمة.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: أَنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ) لولا أنه يصدق بعض المرات ما صُدِّقَ أبداً، فالناس لا يصدقونه إلا بسبب أن شيئاً وقع كما قاله، فلو لم يحصل على هذه الكلمة لبطل عمله نهائياً.

❁ قوله: (الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِائَةٍ؟) قبول النفوس للباطل فيتعلقون بكلمة واحدة، ولا يلتفتون إلى تسع وتسعين من الكذب، وهذا حال كثير من الناس أنهم يقبلون التزييف ويقبلون الباطل بسبب أنه قد يكون فيه شيء من الصدق ولو قليل، وهذا لا يجوز، بل الواجب أن يُرد الباطل ولا يقبل من صاحبه، ولا يغتر بكونه يصدق بعض الأحيان، أو كونه عنده شيء من الحق.

❁ قوله: (الثَّاسِعَةُ عَشْرَةَ: كَوْنُهُمْ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا) يعني: يتلقى الشياطين بعضهم من بعض تلك الكلمة، لأجل أن يخلطوا معها الباطل، ويحفظونها ويستدلون بها، وهم لا يحبونها، ولا يصدقونها، ولكن يعملون هذا لغرض سيء، كذلك أهل

الباطل قد يتعلمون شيئاً من الحق أو من كلام أهل العلم، لا محبة له، وإنما لأجل أن يلبسوا على الناس، فيدخلوا معه كثيراً من الباطل، فيغتر بهم الجهال. والواجب أن أهل البصيرة يمحسون كلام هؤلاء، ويفرزون ما فيه من الحق، وما فيه من الباطل، فيردون الباطل ويقبلون الحق.

✽ قوله: (الْعِشْرُونَ: إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ)؛ لأن في هذا الباب إثبات العلو لله عَزَّجَلَّ، وإثبات الكلام لله عَزَّجَلَّ، وإثبات الإرادة لله عَزَّجَلَّ، خلافاً للأشعرية.

والأشعرية نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، الذي كان في أول أمره على مذهب المعتزلة، ثم إنه تاب من مذهب المعتزلة وانتقل إلى مذهب الكلابية، ثم إنه تاب من مذهب الكلابية وصار على مذهب أهل السنة، وصرح بذلك في كتابه: «الإبانة عن أصول الديانة»، و«مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، صرح فيهما برجوعه، وأنه على مذهب إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ، ولكن أتباعه بقوا على مذهب الكلابية، ولم ينتقلوا إلى مذهب أهل السنة، فانتفت نسبتهم إلى أبي الحسن الأشعري بعد توبته ورجوعه إلى الحق، فهم في الحقيقة ليسوا أشاعرة، وإنما هم كلابية، على مذهب ابن كلاب في تأويل الصفات.

✽ قوله: (الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ كَانَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ) أن ما يصيب السماوات والملائكة عند سماع صوت الوحي سببه الخوف من الله عَزَّجَلَّ، فدل على أن الله هو المستحق للعبادة، وأن

الملائكة لا تجوز عبادتها من دون الله، وإذا كان هذا في الملائكة فغيرهم من باب أولى.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَتَنَّهُمْ يَحْجُرُونَ اللَّهَ سُجَّدًا)؛ هذا يدل على أنهم عباد لله يعبدونه ويسجدون له، والعبد لا يُعبد؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۖ لَا يَسْخَرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۖ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۖ﴾ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ ۖ فَلِلَّهِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ❖ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، كل من في السماوات والأرض من الملائكة والادميين وكل المخلوقات عباد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كانوا عبادًا فلا تجوز عبادتهم من دون الله عَزَّجَلَّ.

فهذا فيه إبطال عبادة الملائكة، وعبادة الأنبياء والرسل، وعبادة الأولياء والصالحين، وعبادة الأشجار والأحجار، وكل عبادة لغير الله عَزَّجَلَّ فإنها باطلة، ففيه إبطال الشرك من أصله.



١٦ - بَابُ الشَّفَاعَةِ

قوله: [بَابُ الشَّفَاعَةِ]، الشفاعة نوعان:

النوع الأول: شفاعة منفية في القرآن، وهي الشفاعة للكافر والمشرِك. قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

ونحو هذه الآيات؛ كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]: يخبر عَزَّجَلَّ أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله، أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك، وما لا يعلمه لا وجود له، فنفي وقوع هذه الشفاعة، وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقربه إلى الله، وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته؛ لأنه جعل لله شريكاً يرغب إليه، ويرجوه، ويتوكل عليه، ويحبه كما يحب الله عَزَّجَلَّ أو أعظم.

النوع الثاني: الشفاعة التي أثبتها القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدتها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأمرين:

الأمر الأول: إذنه للشافع أن يشفع؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب، فإذا رحمه تعالى أذن للشافع أن يشفع له.

الأمر الثاني: رضاه عن أذن للشافع أن يشفع فيه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فالإذن بالشفاعة له بعد الرضا، كما في هذه الآية، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد.

... — الشَّيْخُ — ...

قال الشيخ الإمام رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ الشَّفَاعَةِ)، والشفاعة: مأخوذة من الشفع، وهو ما كان أكثر من واحد، فالواحد يُقال له: وتر، والاثنان يُقال لهما: شفع. قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالشَّفِيعَ وَالْوَتَرَ﴾ [الفجر: ٣]، فالشفع: هو ما كان أكثر من فرد، وأما الوتر: فهو الفرد. هذا في اللغة.

وأما في الاصطلاح، فالشفاعة: يُراد بها الوساطة للمحتاج في قضاء حاجته عند من يملكها؛ لأن طالب الحاجة واحد، فإذا انضم إليه واسطة صار شفعاً بعد أن كان واحداً؛ لذلك سميت الشفاعة، وبعضهم يقول: الشفاعة: هي طلب الخير للغير.

والشفاعة على قسمين:

* شفاعة عند الله.

* وشفاعة عند الخلق.

والشفاعة عند الخلق تنقسم إلى قسمين:

* شفاعه حسنة.

* وشفاعة سيئة.

قال عَرَّوَجٌ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، فإذا كانت الشفاعة في تحصيل شيء مباح وشيء نافع فهي حسنة؛ كما لو شفعت بجاهك عند السلطان أو عند ولي الأمر في قضاء حاجة أخيك، فتشفع لإخوانك في تحصيل مطالبهم المباحة ومصالحهم النافعة، فهذه شفاعة حسنة؛ لأنها من التعاون على البر والتقوى، «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(١)، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ»^(٢)، فقلوه: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا» فيه بيان أن الشفاعة الحسنة فيها أجر؛ لما فيها من النفع للمحتاجين.

وأما الشفاعة السيئة: فهي الشفاعة في أمر محرم، كأن تشفع في إسقاط حد من حدود الله لمن وجب عليه أن لا يُقام عليه الحد، فهذه شفاعة محرمة، وملعون من قام بها، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا بَلَغْتَ الْحُدُودَ السُّلْطَانُ فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ»^(٣)، ولما أراد أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يشفع في امرأة

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري بلفظه (١٤٣٢) من حديث أبي موسى عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم بنحو هذا اللفظ (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) أخرجه الدارقطني (٢/٣٠٥) في كتاب الحدود والديات، والطبراني في الأوسط =

وَجَبَ عَلَيْهَا حَدُّ السَّرْقَةِ، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى قَوْمِهَا، فَطَلَبُوا مِنْ أَسَامَةَ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَدَمِ قَطْعِ يَدِهَا، فَشَفَعَ أَسَامَةُ وَكَلَّمَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١)، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا»^(٢)، آوَاهُ يَعْنِي: حَمَاهُ مِنْ إِقَامَةِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَيْهِ، فَالْشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ هِيَ مَا كَانَتْ فِي شَيْءٍ مُحْرَمٍ.

والشفاعة في كتاب الله جاءت على قسمين:

* قسم منفي.

* وقسم مثبت.

فالقسم المنفي: هو الشفاعة التي تطلب من غير الله. هذه الشفاعة منفية؛ لأن الشفاعة ملك لله، لا تطلب إلا منه، وكذلك الشفاعة التي تطلب فيمن لا تقبل فيه، وهو الكافر، فالكافر والمشرِك لا تقبل فيه الشفاعة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ:

= (٣٨٠/٢)، والصغير (١١١/١) من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً إلى

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواه مالك موقوفاً عليه في الموطأ (ح ١٥٢٥).

قال ابن عبد البر في الاستذكار (٧/ ٥٤٠): «هذا خبر منقطع ويتصل من وجه صحيح».

وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٨٨): «والموقوف هو المعتمد».

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥، ٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ هذا في أهل الشرك، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ يعني: فدية، فلا يؤخذ مالٌ من أحد ليخلصه من العذاب كما هو في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يتجرأ أحد ليدافع عنهم يوم القيامة؛ كما هو حال الناس في الدنيا يدافع بعضهم عن بعض، والدول يدافع بعضها عن بعض، هذا في الدنيا، أما الآخرة فليس فيها مدافعة.

والشفاعة المثبتة: أن يأذن الله عَزَّجَلَّ لبعض أوليائه في أن يدعو الله بأن يتجاوز عمن استوجب العقوبة ويعفو عنه؛ كأن يدعو الشافع لأخيه بما يخلصه من العقاب يوم القيامة، فيستجيب الله دعاءه تكريماً للشافع ورحمة بالمشفوع، وهذه الشفاعة ثابتة في القرآن، ولكن بشرطين:

الشرط الأول: أن تُطلب الشفاعة من الله عَزَّجَلَّ ويأذن الله بها، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، بخلاف المخلوقين فقد يشفع الشفعاء عندهم ولو لم يأذنوا، بل ربما يكرهون ذلك، أما الله عَزَّجَلَّ فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان، ولكن عنده ما يوجب عليه العذاب لكبيرة من كبائر الذنوب ارتكبتها، فهو من أهل الإيمان من أصحاب الجرائم التي دون الشرك، وأما المشرك فإن الله لا يرضى أن يُشفع فيه، ولا تُقبل فيه شفاعته، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ

يُطَاعُ ﴿[غافر: ١٨]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ ارتضى الله قوله وعمله وهو المؤمن، أما الكافر فإن الله لا يرتضيه، فلا تنفعه الشفاعة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

فإذا توفر الشرطان: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع فيه، فالشفاعة حق، وإذا اختل شرط فهي شفاعة مردودة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النجم: ٢٦] هذا الشرط الأول ﴿وَيَرْضَى﴾، هذا الشرط الثاني، فهذه هي الشفاعة عند الله تجوز بشرطين، فإذا توفر الشرطان فالشفاعة صحيحة ومقبولة عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا اختل شرطٌ فهي مردودة ولا تقبل.

والناس انقسموا في أمر الشفاعة إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:

الطرف الأول: الذين نفوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة، وقالوا: إِنَّ مَنْ استوجب النار لا بد أن يدخلها، بناءً -عندهم- على أنه لا يستوجب النار إلا كافر؛ لأنهم يكفرون أصحاب الكبائر من هذه الأمة، فيقولون: لا تنفعهم الشفاعة، فمن استوجب النار لا بد أن يدخلها، ومن دخلها فإنه لا يخرج منها. هذا مذهبهم، فينفون الشفاعة التي ثبتت وتواترت بها الأدلة.

الطرف الثاني: الذين غلوا في إثبات الشفاعة، وهم القبوريون والخرافيون الذين يتعلقون بالأموات، ويطلبون منهم الشفاعة، ويدعونهم، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، وإذا قيل لهم: هذا شرك. قالوا: هذا طلب للشفاعة؛ كما قال المشركون الأولون: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٨﴾ [يونس: ١٨]،
فهم غلوا في إثبات الشفاعة حتى طلبوها من غير الله، طلبوها من الموتى
والمقبورين، وطلبوها أيضاً لمن لا يستحقها وهم أهل الشرك والكفر بالله
عَزَّوَجَلَّ.

الوسط: أهل السنة والجماعة توسطوا - كما هي عادتهم الوسطية في كل
الأمر - والله الحمد - فلم ينفوا الشفاعة مطلقاً كما نفتها الخوارج والمعتزلة،
ولم يثبتوها مطلقاً كما غلا في إثباتها القبوريون والخرافيون.

والشفاعة ستة أنواع:

منها ما هو خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره
من الملائكة، والأولياء والصالحين، والأطفال الأفراط الذين يشفعون.

فأما الخاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو:

الشفاعة الأولى: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وذلك حينما
يتقدم الناس في الموقف، موقف الحشر، ويطلبون من الأنبياء أن يشفعوا لهم
عند الله في أن يريحهم من الموقف؛ لأنه طال عليهم الوقوف، مع ما هم فيه
من الحر والضيق وطول الوقوف، حيث يقفون خمسين ألف سنة، فيتقدمون
ويطلبون من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبي البشرية أن يشفع لهم عند الله في أن يفصل بينهم
ويريحهم من الموقف، فيعتذر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم يطلبونها من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول
الرسل، فيعتذر، فيطلبونها من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر، ويطلبونها من موسى
عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر، ويطلبونها من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر، ثم يطلبونها من محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيستعد لها، ويقول: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»^(١)، بعدما يطلبونها من أولي العزم كلهم ويعتذرون إلا نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يقبل أن يشفع لهم عند الله، فيخر ساجدًا تحت العرش، فيدعو ربه عَزَّجَلَّ ويحمده، ولا يزال كذلك حتى يُقال له: «يَا مُحَمَّدُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ»، فيشفع عند الله في أهل المحشر، في أن يفصل الله بينهم بحكمه، ويريحهم من الموقف، ويقبل الله شفاعته، فهذا هو المقام المحمود، الذي قال الله عَزَّجَلَّ فيه: ﴿وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهو الذي يحمده عليه الأولون والآخرين، إظهارًا لفضله وشرفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموقف العظيم.

الشفاعة الثانية: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الجنة أن يدخلوها، وتُفتح لهم، فهو أول من يستفتح باب الجنة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٢)؛ ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، لا تُفتح لهم أول ما يأتون، بل عطف الفتح على مجيئهم؛ لأنه لا يُفتح لهم إلا بعد الشفاعة، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أما الكفار -والعياذ بالله- فمن حين يصلون إلى النار تفتح لهم أبوابها، يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا ويُدْعَوْنَ إِلَيْهَا دَعَاً -والعياذ بالله- ﴿وَسِيقَ

(١) سبق تخريجه (٦٩/٢).

(٢) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم (١٩٧) قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أَمِزْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴿٧١﴾ [الزمر: ٧١]،
إلى آخر الآيات، هذه الشفاعة الثانية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخاصة به.

الشفاعة الثالثة: أنه يشفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأناس من أهل الجنة في رفعة منازلهم في الجنة.

الشفاعة الرابعة: شفاعته في عمه أبي طالب، الشفاعة لا تنفع الكفار، ولكن نظرًا لأن أبا طالب حمى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودافع عنه، وصبر معه على الضيق، وأحسن إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه لم يوفق للدخول في الإسلام، وقد عرض عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلام وحرص على أن يدخل في الإسلام، ولكنه أبى؛ لأنه يرى أن دخوله في الإسلام فيه مسبة لدين آبائه، حيث أخذته الحمية الجاهلية لدين آبائه، وإلا فهو يعترف أن محمدًا على الحق، وأن دينه هو الحق، ولكن منعه الحمية والأنفة؛ لأنه لو أسلم بزعمه لصار ذلك سبةً على قومه.

وهو القائل:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسْبِيَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا^(١)

فقد منعه الملامة وحذر المسبة على قومه، ولقد جاءه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في سياق الموت، وقال له: «يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ كَلِمَةً

(١) انظر: الزاهر لأبي بكر الأنباري (١/ ٣٨٠)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٢١)، والبداية والنهاية (٣/ ٤٢)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤).

أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، وكان عنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقالا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فأعاد عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعادا عليه، وقالوا: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فقال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. ومات على ذلك، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ تُنْهَ عَنْكَ»^(١)، فأنزل الله قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشفع في إخراجهم من النار؛ لأنه مخلد في النار، ولكن يشفع في أن يخفف عنه العذاب فقط، ويُجعل في ضحضاح من نار، وفي أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، فلا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، مع أنه أخف أهل النار عذاباً.

فهذه الشفاعات خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشفاعة الخامسة: وهي الشفاعة في أهل الكبائر التي دون الشرك، ألا يدخلوا النار.

الشفاعة السادسة: وهي الشفاعة في أهل الكبائر التي دون الشرك أن يخرجوا من النار.

وهاتان الشفاعتان الأخيرتان مشتركتان بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره من الملائكة والنبين والأولياء والصالحين وأفراط المؤمنين، وهذه

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشفاعة يثبتها أهل السنّة والجماعة للأحاديث الواردة الصحيحة فيها، ويخالف فيها المبتدعة من المعتزلة، والخوارج الذين يقولون: إن من استحق دخول النار فإنه لا بد أن يدخلها، ومن دخلها فإنه لا يخرج منها. ويخالفون بذلك الأحاديث الصحيحة الواردة فيها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه أنواع الشفاعات الثابتة الصحيحة التي توفر فيها الشرطان المذكوران.

وأمر الشفاعة أمر عظيم، وقد غلط فيها أمم من الناس قديماً وحديثاً، وفهموها على غير المقصود، فجمهور المشركين - أو كل المشركين - فهموها على غير المقصود، وبعض المبتدعة من المسلمين أنكروا بعضها، فحصل الغلط، فلا بد من التفصيل والإيضاح في أمر الشفاعة؛ لأنها أصبحت مزلة أقدام، يجب على طلبة العلم أن يهتموا بهذا الأمر، لأن فيها مغالطات عند القبوريين والخرافيين، لأنهم لا يفقهون معنى الشفاعة، أو أنهم يتعمّدون المعاندة والمخالفة، ويصرون على ما كان عليه آبائهم وأجدادهم ومشايخهم من الضلال في هذا الباب.

فالشفاعة ليست منفية مطلقة، ولا مثبتة مطلقة، بل فيها تفصيل، وفيها إيضاح لا بد من معرفته، ولذلك عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لها من أجل هذا الغرض.

ومراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الباب: أنه لما كان المشركون قديماً وحديثاً يعبدون من دون الله الأصنام والأشجار والأحجار والقبور والأضرحة والأولياء والصالحين والملائكة والأنبياء، فإذا أنكر عليهم ذلك قالوا:

﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأن الأمر بيد الله، ولكن هؤلاء لهم مكانة عند الله، ونريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله. فيذبحون للأولياء والصالحين والأشجار والأحجار، ويستغيثون بهم، ويصرفون لهم أنواع العبادة، فإذا أنكر عليهم قالوا: غرضنا من ذلك هو الشفاعة فقط.

فبين الله أن ذلك هو الشرك، وأن تلك هي عبادة غير الله، فقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقولون: نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأنهم ليس لهم من الأمر شيء، ولكننا فعلنا ذلك من أجل أن يشفعوا لنا عند الله لأن لهم مكانة عند الله، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ يعني: يعبدونهم، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، اعترفوا أنهم يعبدونهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْصِمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿ [الزمر: ٣]، سَمَّى فعلهم هذا كذباً، وسَمَاهُ كفراً، ولم تنفعهم اعتذاراتهم، وذلك لأنهم قاسوا الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ملوك الدنيا، فكما أنهم من عاداتهم عند ملوك الدنيا أنهم يوسطون الشفعاء بينهم وبين الملوك في قضاء حوائجهم، قاسوا الله عَزَّجَلَّ بخلقه، فاتخذوا عند الله الشفعاء كما يتخذونهم عند الملوك والرؤساء، وهذا باطل، لأنه تسوية بين الخالق والمخلوق، فإن ملوك الدنيا أو سلاطين الدنيا أو رؤساء الناس في الدنيا يقبلون الشفاعة لحاجتهم إلى ذلك، وذلك لأن الملك أو الرئيس بحاجة إلى الوزراء والمستشارين ليعينوه على أمور الملك، فلو لم يقبل شفاعتهم لنفروا

منه، ولم يعينوه، والله عَزَّجَلَّ غني عن خلقه، ليس بحاجة إلى أن يعينه أحد، بخلاف الملوك والسلاطين فهم بحاجة.

وأيضاً ملوك الدنيا والسلاطين لا يعلمون أحوال الرعية، فهم بحاجة إلى هؤلاء ليلبغوا حاجات الناس وأحوال الناس، فإذا بلغهم هؤلاء الوسائط والشفعاء، فقد بلغوهم ما لم يعرفوا من أحوال رعيّتهم، أما الله عَزَّجَلَّ فإنه يعلم كل شيء، لا تخفى عليه أحوال عباد، يعلم المحتاجين والمرضى والفقراء وأصحاب الحاجات، يعلم ذلك بدون أن يخبره أحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يقاس الخالق بال مخلوق.

وأيضاً الملوك والرؤساء ولو علموا بأحوال الناس، فإنهم قد لا يلبسون لهم، ولا يلتفتون إليهم، لكن إذا جاءهم هؤلاء الوسطاء، وتكلموا معهم أثروا فيهم، فقبلوا الشفاعة، أما الله عَزَّجَلَّ فإنه لا يؤثر عليه أحد، الله عَزَّجَلَّ يريد الرحمة لعباده، ويريد المغفرة، ويريد قضاء حاجات الناس، وإعطاءهم، ورزقهم، هو يريد لذلك عَزَّجَلَّ بدون أن يؤثر عليه أحد. ففيه فرق بين الخالق والمخلوق من هذه الوجوه، من ناحية أن الله غني لا يحتاج إلى إعانة الشفيع، ومن ناحية أن الله عليم لا يحتاج إلى إخبار الشفيع عن أحوال خلقه، ومن ناحية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد للخير والرحمة لعباده، وقضاء حوائجهم، إذا هم طلبوا من الله بصدق، وتوجهوا إليه بإخلاص قضى حوائجهم، بدون أن يكون هناك واسطة.

فَتَبَيَّنَ لَنَا إِذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَغَلِطَ الْمُشْرِكُونَ فِي ذَلِكَ
حَيْثُ سَوَّاهُ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، وَاتَّخَذُوا الشُّفَعَاءَ عِنْدَهُ كَمَا يَتَّخِذُونَ الشُّفَعَاءَ
عِنْدَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ.



وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ﴾: الإنذار: هو الإعلام بأسباب المخالفة والتحذير منها.

قوله: ﴿بِهِ﴾ أي: القرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: وهم أهل الإخلاص الذين لم يتخذوا لهم شفيعاً، بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله وحده، ولم يلتفتوا إلى أحد سواه فيما يرجون نفعه ويخافون ضره.

قال الفضيل بن عياض: «لَيْسَ كُلُّ خَلْقِهِ عَاتِبٌ، إِنَّمَا عَاتَبَ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ»^(١).

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، قال الزجاج: «موضع (ليس) نصب على الحال؛ كأنه قال: متخلين من ولي وشفيع، والعامل فيه ﴿يَخَافُونَ﴾»^(٢).

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة، وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم؛ لأنه ينافي الإخلاص، الذي لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه؛ لأنه طلب وسؤال من غير الله.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٩٧/٤) رقم (٧٣٢٨).

(٢) انظر: التفسير البسيط (١٥٧/٨).

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن، والخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُنْذِرْ بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ والخوف: هو توقع شيء مكروه، بخلاف البشارة فإنها توقع شيء محبوب، والإنذار: هو الإخبار عن شيء مكروه، ينذرهم يعني يخوفهم ويحذرهم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشير ونذير، بشير لأهل الإيمان بالأجر والثواب والرحمة، ونذير لأهل الشرك والمعاصي بالعذاب والنار.

وفي هذا إبطال هذه المقالة الرائجة الآن بأن هؤلاء معذورون بالجهل. مع أنهم بلغهم القرآن، كيف يكونون معذورون بالجهل وقد بلغهم القرآن، وقرؤوه وحفظوه، وسمعوه ليلاً ونهاراً؟! والله عَزَّجَلَّ يَبْنُ أن بلوغ القرآن كاف لإقامة الحجة؛ كما في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فهذا دليل على أن بلوغ القرآن يكفي، وهؤلاء يقولون: يعذرون بالجهل. إلى متى الجهل وقد بلغهم القرآن؟!

❖ قوله: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أي: يخافون أن يُجْمَعوا يوم القيامة في المحشر؛ لأن الحشر هو الجمع، والله عَزَّجَلَّ يَجْمَعُ الأولين والآخرين يوم القيامة لمجازاتهم على أفعالهم.

❖ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الفضيل بن عياض: «لَيْسَ كُلُّ خَلْقِهِ عَاتِبَ، إِنَّمَا عَاتِبَ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ») أما الذين لا يعقلون ويصرون على الكفر فهؤلاء

لا كلام معهم؛ لأنهم معاندون، مهما قلت لهم ومهما أقمت من الأدلة لا يلتفتون لك؛ لأنهم معاندون، إنما تنذر الذي عنده تقوى وعنده خوف من الله عَزَّجَلَّ، هذا هو الذي يقبل الموعظة ويقبل النصيحة.

❁ قوله: ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الله هو رب الجميع سبحانه، رب المؤمنين والمشركون والكفار والملاحدة، كلهم الله ربهم وهم عبيده، ويحشرون إليه سبحانه لمجازاتهم على أفعالهم، وما أحد يغيب عن هذا المحشر أو يتخلف أو ينسى أبداً، كلهم يجتمعون بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا مفر لهم من هذا المحشر، ولا أحد يظن أنه يتخلف أو يغيب أو يختفي أبداً، بل جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم يحشرون إلى ربهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

فإذا علم العاقل أنه سيحشر إلى ربه فإنه يستعد لهذا الحشر بالأعمال الصالحة التي تقيه من أخطاره بإذن الله، ولا ينفع في هذا اليوم إلا التوحيد الخالص، وأما المشركون والكفار فإنهم في هذا اليوم واقعون في العذاب والخطر؛ لأنهم لم يقدموا لهذا اليوم ما يقيهم من هذه الأخطار والأهوال، فالؤمن إذا تذكر الحشر وتذكر القيامة استعد لها، وليس الاستعداد بأن يعمل ما يشاء أو يقلد الناس ويعمل ما يعملون، ويقول: هذا عمل صالح ينفع يوم القيامة. بل لا ينفع في هذا اليوم إلا الإخلاص لله والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومهما أتعب الإنسان نفسه فيما عدا ذلك فإنه يكون هباءً منثوراً ليس فيه نفع، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ

الْظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ، لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[النور: ٣٩].

فلا ينفع في هذا اليوم إلا الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بترك الشرك، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بترك البدع والمحدثات التي لم يشرعها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هذه جملة حالية في محل نصب، أي: متخلين عن الشفعاء والأولياء؛ لأنه لا ينفع عند الله يوم القيامة إلا العمل الصالح، فليس لهم غير الله ولي يتولاهم ويدبر أمرهم وينقذهم من هذا الموقف، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، فلا ولي في هذا اليوم إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لا ينفع عنده إلا الإخلاص والعمل الصالح، كلُّ يتبرأ من الآخر، حتى الأم تتبرأ من ولدها، والأب يتبرأ من ولده، والولد يتبرأ من أبيه وأمه، والأخ يتبرأ من أخيه، لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا تملك نفس لنفس شيئاً.

❁ قوله: ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [السجدة: ٤]، فلا أحد يتولى أمرهم، ولا أحد يشفع عند الذي يتولى أمرهم - وهو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ما داموا على الكفر وعلى الشرك.

فالكفار والمشركون ليس لهم شفاععة، وهم في هذه الدنيا يظنون أن هذه الأصنام والأشجار والأحجار، وهذه القبور والأضرحة تشفع لهم عند الله، وهذه الشفاععة خلاف الشفاععة التي جاء القرآن بها، قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، وقال: ﴿ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، الكافر والمشرِك ليس له شفاعَة ولا من شفيع يشفع له، فهو لاء أتوا الأمر من غير بابه، أرادوا النجاة ولم يسلكوا مسالكها.

وما أحسن قول الناظم:

مَا بَالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدَنِّسَهُ وَتَوْبُ جَسْمِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ^(١)

فهم سلكوا مسلكاً لا ينجيهم ولا ينقذهم.

فبطل بذلك أمر هؤلاء الذين يتخذون الشفعاء ويظنون أنهم يخلصونهم يوم القيامة من عذاب الله؛ كحال صاحب «البردة» الذي يقول:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أُلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ^(٢)

هذا على اعتقاد المشركين أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأخذ بيده ويخلصه من النار، وهذا ليس بصحيح، لا يخلصه من النار إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى إذا كان من أهل الإيمان.

(١) هذان البيتان للشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، المعروف بأبي العتاهية، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة بالحجاز، ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تنسك وصار قوله في الوعظ والزهد، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: روضة العقلاء (ص ٢٨٥)، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٤/ ١١٢)، وبستان الواعظين (ص ١٦٥)، وانظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥).

(٢) انظر: ديوان البوصيري (ص ٢٥٢).

❖ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذا تعليل لقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾، من أجل ماذا؟ من أجل أن يتقوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتقوى معناها: أن يتخذوا ما يقيهم من عذاب الله يوم القيامة، وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات، ولا يقي من عذاب الله يوم القيامة إِلَّا التقوى. وفي هذا رد على المشركين الذين يتخذون الشفعاء بَيْنَ الله أنهم سيأتون يوم القيامة ولا أحد يشفع لهم كما يزعمون.



وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾: دلت الآية أن الشفاعة له سبحانه؛ لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه سبحانه وتعالى، كما قال عَزَّجَلَّ في الآية السابقة.

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية [يونس: ٣]، فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه، ولا تقع إلا لمن أذن له فيها.

فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء.

وقوله: ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤] يبطل التعلق على غيره سبحانه؛ لأنه الذي انفرد بملك كل شيء فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده.

والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص، كما في «المسند» عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَبِالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ». قَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «أَنْ يُسَلِّمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ، وَأَنْ تُوجِّهَ وَجْهَكَ إِلَى اللَّهِ وَتُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ»^(١).

والآيات في بيان الإخلاص كثيرة، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٣/٥)، وابن حبان في صحيحه (٣٧٧/١)، والطبراني في الكبير (١٠٣٦).

الدِّينَ ﴿غافر: ١٤﴾، فأمره عَزَّجَلَّ بإخلاص الدعاء له وحده، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل.

قال شيخ الإسلام: «الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه».

... — الشَّيْخُ — ...

﴿قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ هذه الآية جزء من قوله عَزَّجَلَّ في سورة الزمر: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾﴾ ﴿٢٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

﴿فقوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى: بل، أي: بل اتخذوا، وهذا من باب الإنكار عليهم.

﴿وقوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾﴾ أي: المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير الله ﴿شُفَعَاءَ﴾؛ أي: وسائط، يتوسطون بينهم وبين الله في إجابة دعواتهم، وقضاء حاجاتهم.

﴿قال: ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ الذي لا يملك شيئاً لا يملك الشفاعة، فكيف تُطلب منه وهو لا يملكها؟! وفاقد الشيء لا يعطيه، فأنتم تطلبون منهم ما لا يملكون.

﴿قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾﴾ إذا تُطلب الشفاعة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تطلب من غيره. فإذا كانت الشفاعة لله فهي تطلب منه

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ، فعلى العبد أن يتسبب بسبب نافع حتى يأذن الله لمن يشفع فيه، فينال الشفاعة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا هو الباب الصحيح الذي تطلب منه الشفاعة: الإخلاص لله، وسؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تطلب الشفاعة من غير الله، لا من الأموات، ولا من الأشجار والأحجار.

فهؤلاء ضيعوا أعمارهم وأعمارهم فيما لا جدوى فيه، فلا يغنيهم عملهم شيئاً يوم القيامة؛ لذا بهم إلى القبور والأضرحة والأشجار والأحجار، وإلى الآثار التي يتمسحون بها ويتبركون بها، هذا كله عمل فاسد وتعب بلا فائدة، بل هو ضرر، لماذا لا يدعون الله ويخلصون العمل لله ويتقربون إلى الله إذا كانوا يريدون النجاة ويريدون الشفاعة ويريدون الخير، فيأتون الأمور من أبوابها؟

أما أنهم يضيعون أعمارهم في طلب الأشياء ممن لا يملكها ولا يقدر عليها فهذا هو الضياع.

❦ فقلوه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا أحد غيره يملكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص، له الشفاعة وله ملك السماوات والأرض الذي هو أعم من الشفاعة، وليس لأحد شيء في السماوات ولا في الأرض، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.



وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: تقدم معنى هذه الآية.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا جزء من آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله، لماذا صارت أعظم آية في كتاب الله؟ لأنها اشتملت على النفي والإثبات: نفي النقائص عن الله عَزَّجَلَّ، وإثبات الكمال لله عَزَّجَلَّ، والشاهد منها قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

❖ قوله: ﴿مَنْ﴾ نفي، أي: لا أحد ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ أي: عند الله عَزَّجَلَّ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فهو الذي يأذن للشفعاء أن يشفعوا، وبدون إذنه لا يمكن لأحد أن يشفع أبداً، لا الأنبياء، ولا الملائكة، ولا الأولياء، ولا الصالحين، وهذا محل الشاهد: أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله.

ففي هذا رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند الله عَزَّجَلَّ، ولذلك صرفوا لهم العبادة، فصاروا يذبحون للقبور، وينذرون لها، ويطوفون بها، ويتبركون بها، ويتمسحون بترابها، وبجدرانها، يعبدونها من دون الله، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا﴾ [يونس: ١٨]، تركوا الله عَزَّجَلَّ وعبدوا غيره، فعملهم هذا حابط باطل؛ لأنهم يضعونه في غير محله، وقاسوا الخالق على المخلوق.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ﴾، فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْجُدُونَ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ [الأنبياء: ٢٦-٢٩]، فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن، التي هي ملك لله لا يملكها غيره، وقيد حصولها بقيددين - كما في هذه الآية وغيرها، - كما تقدم قريباً:-
إذنه للشافع أن يشفع، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

ورضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين.

فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة، وأن اتخاذ الشفعاء من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله في سورة النجم: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ﴾: (كم) هذه خبرية؛ لأنها تأتي على قسمين:

الأول: استفهامية؛ كقولك: كم عندك من المال؟ هذه استفهامية.

الثاني: خبرية؛ كما في هذه الآية: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: كثير من الملائكة، والسموات مملوءة بالملائكة؛ لأنها موطنهم، فهم سكان السموات، وهم قريبون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضاً هم أصلح الخلق؛ لأنهم يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، فلا أحد يعبد الله مثل عبادة الملائكة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ أَثِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فالملائكة أكثر الخلق عبادة، ومع هذا لا يملكون الشفاعة، وهؤلاء يقولون: لا، بل الشفاعة يملكها فلان، ويملكها الصنم، ويملكها القبر... إلى آخر ما يقولون. سبحان الله!! الملائكة على قربها من الله وكثرة عبادتها لا تملك الشفاعة، فكيف بغيرهم ممن دونهم؟!

وحتى طلبت منهم الشفاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٣٦) لَا يَسْقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴿[الأنبياء: ٢٦-٢٨]﴾، فالملائكة لا تشفع إلا لمن رضي الله عنه، والله سبحانه لا يرضى عن المشركين وهؤلاء مشركون، كيف يطلبون الشفاعة وهم مشركون؟

❖ قوله: ﴿لَا تَغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ إلا بشرطين: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا الشرط الأول: أن يأذن للشافع أن يشفع ﴿وَيَرْضَى﴾ هذا الشرط الثاني: أن يرضى عن المشفوع فيه، وهو لا يرضى عن أهل الشرك، قال

عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] فلن تنفعهم الشفاعة؛ لأن الله لم يرض عنهم، إنما تنفع الشفاعة من رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الموحّد الذي عنده شيء من الذنوب دون الشرك.

فهؤلاء ضيعوا أعمارهم في عبادة الأضرحة والقبور والمزارات، والأصنام والأحجار والأشجار، وذهبوا مذاهب شتى في عباداتهم، وكلها باطلة لا قيمة لها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا تَنْفَعُ أَهْلَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وستكون هباءً منثورًا، بل تكون كالرماد إذا اشتدت به الريح.



وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. ﴿[سبا: ٢٢-٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلّق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبيّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»^(١).

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه»^(٢).

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله سبحانه وهو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه، وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه^(٣).

(١) سبق تخريجه (٢/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩، ٦٥٧٠).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧، ٧٨).

قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٢] الآيتين. قال أبو العباس: «نفى الله عَمَّا سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ»... الخ. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ وفيه تحقيق لأمر الشفاعة، وجمع للأدلة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَم.

... — الشَّبَحُ — ...

هذه الآيات يقول عنها العلماء: إنها قطعت عروق الشرك من أصله. فقوله عَزَّجَلَّ: ﴿ قُلِ ﴾ هذا أمر لرسوله مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يخبر هؤلاء الذين يدعون الملائكة وغيرهم من دون الله، ويزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله بغير إذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويبلغهم ويقول لهم: ﴿ ادْعُوا ﴾ وهذا الأمر من باب التوبيخ والتعجيز لهم، وهو مثل قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فليس هذا أمراً بالكفر، وإنما هو أمر توبيخ وتهديد، وإلا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأمر بالكفر، وقد يكون الأمر للتعجيز؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿ يَمْعَشَرِ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ [الرحمن: ٣٣]، هذا أمر تعجيز.

قوله: ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ هذا فيه رد عليهم، وذلك لأنهم لم يبنوا فعلهم هذا على دليل من الشرع النازل من عند الله، فالله لم يشرع دعاء غيره أبداً، وإنما أمر بدعائه وحده لا شريك له، فمن دعا غيره فهذا زعم منه، والزعم باطل، وكذلك لم يعتمدوا على دليل عقلي فطري؛ لأن العقل يدل على أن العبادة لا تكون إلا لمستحقها وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما العبد الفقير

العاجز، فإنه لا يستحق العبادة، هذا دليل العقل مع دليل الشرع بأن العبادة والدعاء لا يصلحان إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والزعم معناه: الكذب، دلّ على أنهم كاذبون في عملهم هذا؛ لأنه إذا لم يكن عليه دليل فهو كذب.

❦ قوله: ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [٢٢-٢٣] وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، ❦ [سبأ: ٢٢-٢٣] وذلك أن المدعو لابد أن يتوفر فيه إحدى هذه الحالات:

الحالة الأولى: إما أن يكون مالكا للمطلوب منه، فأنت إذا طلبت من أحد شيئا فلا بد أن يكون مالكا له، وهؤلاء المدعوون لا يملكون شيئا مما يُطلب منهم؟ إذا دعاؤهم باطل، كيف تطلبون من أناس لا يملكون ما تطلبونه منهم؟! فهم: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي: ليس لهم ملك ولو قل، والذرة معروفة هي أصغر شيء، إما أنها الهباءة التي تطير في الهواء، أو النملة الصغيرة التي لا وزن لها، ودائما يضرب الله هذا المثل؛ كما في قوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، ❦ [الزلزلة: ٧-٨]، أقل شيء من الخير والشر، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠]، فالظلم منتفٍ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قليله وكثيره.

إذا كيف تدعونهم وتطلبون منهم الشفاعة وهم لا يملكون ما تدعونهم له وتطلبونه منهم؟! هذا من العبث، كيف تُعرضون عن الذي يملك السماوات والأرض ومن فيها - وهو الله - وتنصرفون إلى دعاء من لا يملك شيئاً؟!

الحالة الثانية: إذا لم يكن مالكا فلا أقل من أن يكون شريكا للمالك، وهذا منتفٍ في حق الخلق: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾؛ لأنهم لا يشاركون الله في ملكه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، فلا أحد يشارك الله في ملك السماوات والأرض أبداً، لا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا الأولياء، الملك لله وحده.

الحالة الثالثة: إذا لم يكن مالكا للشيء ولا شريكا فيه، فربما يكون معينا للمالك، وإذا كان معينا للمالك جاز أن يستشفع به إليه، والله نفى هذا وقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٍ﴾ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يتخذ أحداً يعينه على تدبير خلقه، وانفرد بخلق السماوات والأرض، وخلق جميع المخلوقات؛ لأنه قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء.

الحالة الرابعة: قد يكون شفيعا عند المالك مثل ما يشفع الناس عند الملوك، وهم ليسوا ملوكا، وليسوا شركاء للملوك، وليسوا وزراء للملوك وأعوانا، لكنهم شفعاء، يأتي ذو جاه ومكانة فيدخل على السلطان ويشفع عنده، وهو ليس معينا له ولا شريكا له، هذا جائز في حق المخلوقين، لكن

في حق الخالق لا يجوز؛ لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ﴾ أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ وهذا بخلاف المخلوقين، فقد يُشفع عندهم دون أن يأذنوا، وهل الله أذن في الشفاعة في المشركين؟ من المستحيل أن تقع الشفاعة في مشرك أو كافر؛ لقوله عز وجل: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

إذا بطلت شفاعتهم من كل الوجوه الأربعة، فهي شفاعة باطلة، وإنما الشفاعة الصحيحة هي الشفاعة التي يتوفر فيها شرطان:

الشرط الأول: أن تكون بإذن الله عز وجل.

الشرط الثاني: أن تكون في أهل التوحيد والإخلاص.

فهذه الآية أبطلت الشرك من جميع وجوهه، فلم يبق له تعلق والله الحمد.

❁ قوله: (قال أبو العباس) هو: أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحراني رَحِمَهُ اللهُ، يكنى أبا العباس، هو ليس له أولاد لأنه ما تزوج، ولكنه يكنى أبا العباس من باب التكرمة له؛ لأن الكنية فيها تكريم للمكني، نقول: أبو فلان، وأم فلان، من باب التكريم.

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأَكْرِمَهُ وَلَا أُلقِبُهُ وَالسَّوَاءَ - اللَّقَبُ (١)

الحاصل أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تكلم عن هذه الآيات بكلام جيد مفيد حصر فيه معنى هذه الآيات في جمل قوية.

(١) هذا البيت أورده أبو تمام في الحماسة (١٨/٢) مع بيت قبله، ونسبه إلى بعض الفرازين. وانظر: خزانة الأدب (٩/١٤٢).



❁ قوله: (فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون) ويدعون الأصنام والأوثان والقبور والأضرحة من أجلها باطلة، (هي متنتية يوم القيامة كما نفاها القرآن) وهم يتعبون في غير فائدة، ومن غير طائل، لو أنهم يعقلون ويتفكرون، ويتدبرون القرآن ويتركون التعصب، فإن أصل المشكلة التعصب والهوى، وتقليد الآباء والأجداد من غير دليل أو برهان، هذا الذي يهلك الناس. فهم يتعلقون بالمعبودات من دون الله، ويأتون يوم القيامة وليس لشفاعتهم أي مجال من النفع أو الفائدة، فلينته هؤلاء ويرجعوا إلى الصواب قبل أن يفوت الأوان.

❁ قوله: (وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده) الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو أفضل الخلق وأكرم الخلق على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأحبهم إلى الله - لا يجرؤ أن يشفع عند الله إلا بعد الاستئذان والسجود بين يديه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهؤلاء يذهبون إلى كل من هب ودب، ويقولون: اشفع لنا.

❁ قوله: (لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقُلْ تُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ) وهذا هو المقام المحمود، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وذلك أن الخلائق إذا اجتمعوا في المحشر وطال عليهم القيام والوقوف في المحشر تقدموا إلى الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم، فيعتذرون كلهم ولم يبق إلا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: «أنا لها»، ثم يأتي تحت العرش ويخر ساجداً بين يدي ربه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،

ولا يرفع رأسه حتى يؤذن له، ويقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تَسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»، فعند ذلك يرفع رأسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويدعو الله أن يخلص الخلائق من المحشر ويحاسبهم، فيستجيب الله دعاءه، ويأتي سبحانه لفصل القضاء بين عبادہ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، إذا جاء الله عَزَّجَلَّ فصل بين عبادہ وحكم بينهم، فأهل النار يذهبون إلى النار، وأهل الجنة يذهبون إلى الجنة، وينتهي المحشر بسبب شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك سمي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

❖ قوله: (وقال له أبو هريرة: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟) الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع، ولكنه لا يشفع ابتداء. سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟) قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فلا ينال هذه الشفاعة إلا المخلص الموحد، إذا المشرك ليس له بها علاقة ولا نصيب.

❖ قوله: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» أي: الموحد الذي قالها بلسانه، معتقداً لها بقلبه، عاملاً بمقتضاها ظاهراً وباطناً، هذا الذي ينال شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، وهذا يطابق قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾؛ لأن أهل التوحيد هم الذين يرضي الله عَزَّجَلَّ أعمالهم، أما الشرك والكفر فإن الله لا يرضاه لعباده.

❁ قوله: (فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله) لأهل الإخلاص خاصة دون أهل الشرك؛ لأن الشرك ينافي الإخلاص، وأيضًا (بإذن الله)، فهما شرطان لا بد منهما لقبول الشفاعة.

❁ قوله: (وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يفضل على أهل الإخلاص) حقيقة الشفاعة ما هي؟ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يشرح لنا الشفاعة، فليست الشفاعة أن تذهب لقبر أو ولي أو ضريح أو شجر أو حجر وتطلب منه، إنما حقيقة الشفاعة وتفسيرها أن الله عَزَّجَلَّ يأذن لمن يريد إكرامه أن يشفع لمن شاء من خلقه، ففيها إكرام للشافع وفيها نفع للمشفوع فيه. فقوله: (وحقيقته) يعني: تفسير الشفاعة.

❁ قوله: (فيغفر لهم بواسطة دعاء) وليس بواسطة جاه أحد، أو حق أحد، بل بواسطة دعاء فقط، وذلك بأن يدعو الشافع الله أن يغفر للمشفوع فيه، ولذلك فإن الصلاة على الجنائز شفاعة؛ لأن الذين يصلون على الجنائز يشفعون لها، بمعنى: أنهم يدعون لها بالمغفرة والرحمة، وكذلك الشفاعة العظمى لا تكون إلا بعد أن يدعو الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ويتضرع إليه.

❁ قوله: (من أذن له أن يشفع) إذا أذن للشافع أن يشفع فالشافع يدعو الله: اللهم اغفر لفلان، اللهم ارحم فلانًا، اللهم أخرج من النار، اللهم أنقذه من النار. يدعو الله بمثل هذا الدعاء.

❁ قوله: (ليكرمه وينال المقام المحمود) يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ أن يشفع إكرامًا له، مثل ما يحصل لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المقام المحمود،

إكرامًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورحمة للمشفوع فيه إذا كان من أهل الشفاعة والرحمة، هذه هي الحكمة في جعل الله هذه الشفاعة، فالأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قبل ومن بعد.

وبهذا يتبين لنا معنى الآيتين الكريمتين مع بيان شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الكلام الواضح.

فقد أبطلت ما يعتقده المشركون في معبوداتهم، وردّت عليهم ردًّا مفحّمًا:

هل يستطيع المشركون أن يقولوا: إن معبوداتنا هذه تملك في السماوات أو في الأرض شيئًا؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها شريكة لله؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها تعين الله في تدبير الملك؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا إنها تشفع عند الله بغير إذنه؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إن الشفاعة تنفع المشركين وتنفع الكفار؟ لا يستطيعون.

كل هذا لا يستطيعونه أبدًا.

هل أحد منهم عارض هذه الآية، وقال: إن معبوداتنا تملك، أو أنها شريكة لله، أو أنها معينة لله، أو أنها تشفع عنده بغير إذنه؟ ما أحد يستطيع أن يعارض كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولكن إذ عميت البصائر، وصار الناس

يعملون على حسب أهوائهم، وحسب التقاليد الفاسدة؛ حينئذٍ يقعون في المهالك، يقعون فيها وقعوا فيه.

ولو سألت أي خرافي أو أي مشرك من عباد الأضرحة وقلت له: أجب عن هذه الآيات، ما استطاع الجواب، وإذا لم يستطع الجواب، تبين أنه مكابر، وأن عمله باطل.

فمن ادعى الإسلام، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وجب عليه أن يرجع إلى القرآن، وأن يتدبر القرآن، وأن يعمل به، وأن يراجع سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعمل بها، ولا يذهب مع التقاليد الفاسدة، ولا يتبع ما كان عليه الناس من دعاوى باطلة بأن هذه القبور تنفع، أو أن هؤلاء الأموات ينفعون من دعاهم، أو من تقرب إليهم، هذا كله إذا عُرِضَ على الكتاب والسنة تبين بطلانه.

نعم، قد يقع هؤلاء الذين يدعون الأولياء أو القبور أن تحصل لهم حاجاتهم التي طلبوها، لكن هذا لا يدل على صحة ما هم عليه؛ لأنهم قد يُعطون ما طلبوا من باب الفتنة، ومن باب الاستدراج، أو أنه يصادف ذلك قضاءً وقدرًا من الله سُبحانه وتعالى في إعطائهم هذا الشيء، فيظنون أنه بسبب القبور، وهو في الواقع بقضاء الله وقدره، فحصول المطلوب لا يدل على صحة الطلب، إنما الاحتجاج يكون بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا بالعادات، والتقاليد، والحكايات، والمنامات، والخرافات، ولا لأن فلانًا قد حصل له كذا، أو لأن فلانًا ذهب إلى القبر الفلاني فحصل له مقصوده،

وفلانة ذهبت إلى القبر الفلاني فحملت، هذا ليس بدليل أبدًا؛ لأن إعطاء الإنسان شيئًا مما يحتاج إليه، لا يدل على صحة ما ذهب إليه، ولا على صحة ما فعل من الشرك والعادات السيئة.

يقول شيخ الإسلام: «وَقَدْ كَانَتْ «الشَّيَاطِينُ» تَتَمَثَّلُ فِي صُورَةٍ مَنْ يُعْبَدُ كَمَا كَانَتْ تُكَلِّمُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَكَذَلِكَ فِي وَقْتِنَا خَلَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَتَبِّعِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِبَعْضِ مَنْ يُعَظَّمُهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ مِنَ الْمَشَايخِ وَغَيْرِهِمْ فَيَدْعُوهُ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فَيَرَاهُ قَدْ أَتَاهُ وَكَلَّمَهُ وَقَضَى حَاجَتَهُ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَمَثَّلَ عَلَى صُورَتِهِ لِيُغْوِيَ هَذَا الْمُشْرِكَ»^(١).

فحصول المقصود لا يدل على صحة العمل، وكذلك كونهم يشاهدون الشخص الذي بصورة الميت، أو يسمعون كلامًا يكلمهم، كل هذا ليس بحجة؛ لأن هذه أعمال شيطانية، يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت، أو يكلمهم بصوت الميت، أو هو شيطان يريد أن يضلهم عن سبيل الله، فيعطيهـم بعض الحوائج؛ لأن الشياطين تستطيع السير إلى الأماكن البعيدة، وحمل الأشياء والمجيء بها، وتحضيرها، والجن يتعاونون على هذا الشيء ويحضرون مطلوب هؤلاء، ويعطونهم إياه.

الحاصل: أنها كلها أعمال شيطانية؛ لأنها مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه من البلايا، يعني: كونهم يحتجّون بأن فلانًا شفي لما ذهب

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٣).

إلى القبر، أو فلانة حملت لما ذهبت إلى القبر، هذا ليس بحجة أبداً، بل هذا فتنة وابتلاء وامتحان، وهو من أعمال الشياطين.

قد يقول بعضهم: إنه رأى الميت في الرؤيا، وقال له كذا وكذا. وهذا من الشيطان، فقد يأتي النائم ويكلمه، أو يتمثل له بصورة من يعرف من الأموات، وليست كل رؤيا تكون صحيحة، بل الرؤيا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رؤيا هي حديث نفس، وأضغاث أحلام، لا أصل لها.

القسم الثاني: رؤيا شيطانية، حيث يأتي الشيطان فيقول للإنسان: اعمل كذا، أو اطلب كذا، أو اذهب إلى كذا، من الأعمال التي لو عُرِضَتْ على الكتاب والسنة لظهر عوارها، خصوصاً إذا كان الإنسان قد نام على غير ورد، ولم يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص والمعوذتين عند النوم، فإنه حينئذٍ يتسلط عليه الشيطان لكي يضلّه، أو من أجل أن يكدر عليه نومه ويزعجه، فيأتيه بمزعجات، ويريه أشياء يكرهها.

القسم الثالث: هي الرؤيا الصحيحة، وهي التي تجري على يد الملك، وهي رؤيا ليس فيها تضليل، وإنما فيها خير، وهي جزء من النبوة؛ كما في الحديث الذي في الصحيح عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(١)، وهي من المبشرات، لكن هذه لا تحصل إلا لأهل الإيمان في الغالب، وقد تحصل الرؤيا للكفار لحكمة يريد بها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، كما حصلت للملك في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ،

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤).

والملك كان كافرًا، هذه رؤيا صحيحة حصلت لكافر لأمر أَرَادَهُ اللهُ، وهو: الإِرْهَاصُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكْرِمَهُ اللهُ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَيَتَبَيَّنَ عِلْمُهُ وَفَضْلُهُ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنَ السِّجْنِ، ثُمَّ يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْمَلِكِ.

الحاصل: أَنَّ الرُّؤْيَا لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الْعِبَادَاتِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ -وَلَا سِيَّمَا التَّوْحِيدَ- لَا تُبْنَى إِلَّا عَلَى دَلِيلٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَوْ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، أَمَّا الْمَنَامَاتُ وَالرُّؤْيَا وَالْحِكَايَاتُ هَذِهِ كُلُّهَا لَا تُبْنَى عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ.

فَإِذَا جَاءَكَ وَاحِدٌ فِي الرُّؤْيَا وَقَالَ لَكَ: صَلِّ كَذَا وَكَذَا مِنَ الصَّلَوَاتِ، أَوْ صُمْ. لَمْ يَجِزِ الْعَمَلُ بِهِذِهِ الرُّؤْيَا؛ لِأَنَّ التَّشْرِيعَ انْتَهَى بِوَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَانْقِطَاعِ الْوَحْيِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ دَلِيلٌ إِلَّا مِنَ الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ، لَا سِيَّمَا فِي أُمُورِ التَّوْحِيدِ وَأُمُورِ الْعَقِيدَةِ.

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ شَرَّعُوا فِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ، وَبَنُوا الْأَضْرَحَةَ عَلَى الْقُبُورِ، وَالرَّسُولُ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَطَافُوا بِهَا، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهَا، كُلُّ هَذَا مُنَافٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَشْرَعْ لَنَا هَذِهِ الشَّرَكِيَّاتِ، وَهَذِهِ الْخَرَافَاتِ، وَهَذِهِ الْبِدْعِيَّاتِ وَالْمَحْدَثَاتِ.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

الثَّانِيَّةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُنْفِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثَبَّتَةِ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمُحْمَدُ.

الخَامِسَةُ: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، بَلْ

يَسْجُدُ، فَإِذَا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ شَفَعَ.

السَّادِسَةُ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِهَا؟.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ)، وهي التي مرت بالباب، فلا بد للعبد أن يعرف تفسير هذه الآيات وما تشتمل عليه، حتى يميز بين الشفاعة الصحيحة والشفاعة غير الصحيحة، ولا يعتمد على ما يقوله الخرافيون في كتبهم أو في دروسهم، الذين يقولون: إن الولي فلان يشفع، والولي فلان ينفع، وأن فلانًا ذهب إلى قبر الولي وحصل له مقصوده. هذا كله لا تعتمد عليه، إنما تعتمد على القرآن وعلى سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المقام مقام عظيم؛ مقام نجاة أو هلاك، وهذا لا يكون إلا بكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكون بأقوال الرجال.

❁ قوله: (الثَّانِيَّةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَّةِ) وهي التي يطلبها أهل الشرك من الأصنام والأحجار والأشجار، هذه منفية لا وجود لها.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبِتَةِ) وهي التي تكون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون المشفوع فيه من المذنبين من أهل التوحيد، محصورة على هؤلاء، لا تنال المشرك والكافر، إنما هي للموحد العاصي الذي لا تخرجه معصيته عن التوحيد وعن الإيمان.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ) وهي الشفاعة الخاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل المحشر.

وقد ذكر العلماء أن أنواع الشفاعة ستة أنواع:

الشفاعة الأولى: الشفاعة العظمى، وهي شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل المحشر، وهي المقام المحمود، وهذه خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشفاعة الثانية: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الجنة أن يدخلوها، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من يستفتح باب الجنة، فلا يدخل أهل الجنة الجنة إلا بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأهل الجنة إذا جاؤوها وجدوها مغلقة؛ لأنها شيء غالي ثمين، ليست مثل أي شيء، فلا بد أن يستفتحها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه شفاعة لأهل الجنة أن يدخلوها، وهي خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشفاعة الثالثة: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أناس من أهل الجنة أن ترفع درجاتهم، وهذه خاصة أيضًا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشفاعة الرابعة: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وهذه شفاعة خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما الكفار فلا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا أبا طالب فنفعته شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتخفيف العذاب عليه فقط، لا بإخراجه من النار، فهي خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاصة بأبي طالب من الكفار.

الشفاعة الخامسة: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن استحق النار من أهل التوحيد أن لا يدخلها، فيشفع له فلا يدخلها.

الشفاعة السادسة: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرج منها.

وهاتان الشفاعتان الأخيرتان - الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها - ليستا خاصتين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يشاركه فيها الأنبياء والصالحون، والأفراط الذين يموتون صغاراً يشفعون لأبائهم، فهي مشتركة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين غيره.

❦ قوله: (صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ شَفَعَ) هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الخلق لا يبدأ بالشفاعة حتى يستأذن ربه عَزَّ وَجَلَّ، ويخر ساجداً بين يديه، ويدعوه سبحانه ويتضرع إليه، ويبقى هكذا حتى يؤذن له، ويقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ». فإذا كان هذا سيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يشفع غيره عند الله بغير إذنه كما يقوله المشركون والخرافيون!!

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِهَا) أسعد الناس بشفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أهل الإخلاص، يعني: أهل التوحيد، فدل على أن المشركين لا تنالهم شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كانوا يتسبون إلى الإسلام وأنهم من أمة محمد، إذا وقعوا في الشرك الأكبر فإنهم لا تنالهم شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم ليسوا من أهل الإخلاص، وناقضوا كلمة «لا إله إلا الله»، ولو كانوا يدعون الإسلام، وأنهم من أمة محمد؛ لأن دعواهم باطلة.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: أَتَمَّا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ)؛ لأنه ليس من أهل الإخلاص، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍّ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، إنما خُصَّ من هذا كافر واحد فقط لتخفيف العذاب عنه، وهو أبو طالب.

❁ قوله: (الثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا) أي: بيان معنى الشفاعة؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (حَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ وَيَنَالَ بِهِ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ)، هذه حقيقتها، يعني: هذا تفسيرها، وليس تفسيرها كما يقوله المشركون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، هذا تفسير للشفاعة بغير معناها الصحيح، وهو تفسير باطل.



١٧- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾]: قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أَي: لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]»^(١).

قلت: والمنفي ها هنا هداية التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله وحده وهو القادر عليه، وأما الهداية المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله، والدال على دينه وشرعه.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾): أي: ما جاء في سبب نزول هذه الآية وفي تفسيرها، ويريد بذلك الردّ على الذين غلوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى المشركين الذين يتعلّقون بالأولياء والصالحين، ويدعونهم من دون الله، ويستغيثون بهم؛ لأنه إذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يملك لعمه أبي طالب شيئاً، وأنه نُهي عن الاستغفار له، ففي

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٥).

حق غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب أولى، فدلّ ذلك على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُدعى من دون الله، ولا يُطلب منه شيء من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ لأنه لم يملك هذا لعمه أبي طالب مع حرصه على نفعه، وعاتبه الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وبقوله: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه هداية الدلالة والبيان، أما هداية التوفيق والقبول إنما أمرها بيد الله وحده، هو سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة، ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، فلا يضع الهداية إلا لمن يصلح لها، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمن أثر الحق وقبله وفقه الله، ومن أعرض عن الحق وتعصب للباطل أضله الله عقوبة له.

فإذا كان هذا في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أفضل الخلق- دلّ على أنه لا يُدعى من دون الله، ولا يُطلب منه شيء من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، فغيره من باب أولى من الأولياء، والصالحين، وأصحاب الأضرحة، مهما بلغوا من الصلاح، ومهما بلغوا من المكانة في الدين، فإنهم لا يُطلب منهم إلا ما يقدرون عليه من أمور الدنيا، إذا كانوا على قيد الحياة، أما أمور الهداية، وأمور قضاء الحاجات التي لا يقدر عليها إلا الله؛ من شفاء المرضى، وإنزال المطر، وجلب الأرزاق، وإعطاء الأولاد، هذا كله لا يُطلب إلا من

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، لَا مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا مِنْ وَلِيٍّ، وَلَا مِنْ أَيْ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ طَلَبَهُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكُ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ الْمَخْرُجِ مِنَ الْمِلَّةِ.

فهذا الباب مثل الأبواب السابقة في بيان بطلان الشرك، ورد شبه المشركين الذي يتعلقون بالمخلوقين، ويدعونهم من دون الله، ويستغيثون بهم، ويزعمون أنهم يقضون حوائجهم، ويحييرون دعاءهم وطلباتهم، فهذه الآية يفسرها سبب النزول الذي أنزلت من أجله، وهو ما في الحديث الذي أورده المصنف بعد هذه الآية.



وفي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بَنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فَقَالَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا نَعَمَ أَنَّهُ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]»^(١).

قوله: [وفي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ] أي: في الصحيحين.

وابن المسيب هو: سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو ابن عائن بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين، اتفق أهل الحديث أن مراسيله أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات في التسعين وقد ناهز الثمانين^(٢).

وأبوه المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك جده حزن صحابي استشهد باليامة.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).

(٢) انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى (١١٩/٥)، والوافي بالوفيات (١٦٣/١٥)، وطبقات الحفاظ (٢٥/١).

قوله: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ) أي: علاماتها ومقدماتها.

قوله: (جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُسِيبُ حَضَرَ
مَعَ الْاِثْنَيْنِ، فَإِنَّهُمَا مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، وَهُوَ أَيْضًا مَخْزُومِي، وَكَانَ الثَّلَاثَةُ إِذْ ذَاكَ
كُفَّارًا، فَقُتِلَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى كُفْرِهِ، وَأَسْلَمَ الْآخَرَانِ.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث سعيد بن المسيب الذي في الصحيحين - صحيح البخاري،
وصحيح مسلم - كما أشار إلى ذلك المصنف بقوله: (وفي الصَّحِيحِ).
وسعيد بن المسيب من أكابر التابعين، كانت له منزلة عظيمة في العلم،
فهو من كبار علماء التابعين، وأحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى
في الدُّنْيَا في زمانهم.

وأبوه المسيب وجده حَزَنٌ صحابيَّان، فهو من كبار التابعين، وأبوه
وجده صحابيَّان.

❦ قوله: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ) أي: قارب الوفاة، وليس المراد
أنه نزل به الموت؛ لأنه إذا نزل الموت بالمحتضر، وبلغت الروح الغرغرة،
لا تُقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَةٌ؛ كما جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ
يُغْرَغَرْ»^(١)، فالمراد بهذا - والله أعلم -: أنه لما حضرته الوفاة، وظهرت عليه

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في
المسند (١٣٢/٢)، وابن حبان في صحيحه (٣٩٤/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٤٦٢/٩)،
والحاكم في المستدرک (٢٨٦/٤) وصححه، والبيهقي في شعب الإیمان (٣٩٥/٥) من
حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

علامات الموت قبل أن تبلغ روحه الغرغرة، وقبل أن يأتي الوقت الذي لا تُقبل منه التوبة.

ويحتمل أنه حضرته الوفاة، يعني: بلغ نزع الروح، فيكون هذا خاصاً بأبي طالب، وأما غيره فإذا وصل إلى هذا الحد فإنه لا تُقبل منه توبة. والله اعلم.

وأبو طالب هو: ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي ربي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفله بعد جده عبد المطلب، فإن والد النبي وهو عبد الله بن عبد المطلب مات والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن أمه، فلما ولد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفله جده عبد المطلب، ثم لما حضرته الوفاة عهد به إلى ابنه أبي طالب، فكفله أبو طالب أحسن كفالة، وأحسن إليه، ثم لما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أبو طالب يحميه ويدافع عنه، ووقف منه موقف الصادق المناصر المدافع عنه، وهذا من تسخير الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان أبو طالب سيداً في قريش، كانت تهابه قريش وتجله، فكان يحمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويدفع عنه أذى قومه، ويصبر على ما يناله في سبيل ذلك، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً على إسلامه غاية الحرص، ولهذا لما حضرته الوفاة أخذت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفقة عليه، ومن باب رد الجميل إليه دعاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإسلام، حتى يموت على التوحيد، لعل الله عَزَّوَجَلَّ ينقذه من النار، وهذا من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدعوة إلى الله خصوصاً مع أقاربه، ففيه حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدعوة إلى الله، وصبره على ذلك.

❁ قوله: (جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ)، وهما مخزوميان، فيكونون ثلاثة من قبيلة مخزوم حضروا وفاة أبي طالب مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منهم: والد سعيد: المسيب؛ لأنه مخزومي، ومخزوم قبيلة من قريش.

❁ قوله: (وكان الثلاثة إذ ذاك كفارًا، فقتل أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران) أسلم أبو سعيد، وكذلك عبد الله بن أبي أمية مَنَّ الله عليه بالإسلام فأسلم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأما أبو جهل عمرو بن هشام -قبحه الله- فقد كان ألدَّ أعداء الإسلام، وأعظم الذين آذوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمَّاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١)، وهو الذي قاد المشركين إلى بدر، وحرَّضهم على قتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقتل مع صناديد قريش في غزوة بدر كافرًا والعياذ بالله.



(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/٤٨٨)، وأحمد في المسند (١/٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٣٦٠)، والبزار في مسنده (٥/٢٤٨)، والطبراني في الكبير (٨٤٦٩)، والبيهقي في الكبرى (٩/٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «يَا عَمَّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: أمره بقولها لعلم أبي طالب بأنها دلت على نفي الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها عن علم ويقين وقبول، فقد أنكر الشرك وتبرأ منه، وكذلك الحاضرون يعلمون بما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، ولهذا عارضوا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولهم: أَتَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ لأن ملة عبدالمطلب الشرك بعبادة الأوثان، كما كانت قريش وغيرهم في جاهليتهم كذلك.

قوله: «كلمة»: قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من «لا إله إلا الله»، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله: «أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»؛ لأنه لو قالها في تلك الحال لقبلت منه ودخل بها في الإسلام.

قوله: (فَقَالَا لَهُ: أَتَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟) ذكرناه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين؛ كقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، وكقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

... — الشَّبَحُ — ...

قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمَّ»، هذه كلمة استعطاف وتأدب وتلطف معه، وهكذا ينبغي على الداعية أن يتلطف مع المدعو خصوصاً إذا كان من أقاربه، فإن أقاربه أولى بدعوته وأولى بحرصه على هدايتهم؛ كما كان

إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أول ما بدأ بأبيه، فقال له: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴿مريم: ٤٤-٤٥﴾، كان يستعطفه بقوله: يا أبت، فينبغي للداعية أن يكون كذلك مع أقاربه ومع غيرهم من المسلمين؛ كما أمر الله عَزَّجَلَّ موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَلْعَلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿طه: ٤٤﴾.

❁ قال: «يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يجوز أن تقول: يا عم بالكسر إشارة إلى الياء المحذوفة، ويجوز أن تقول: يا عُم على قطع الإضافة، على لغة من لا ينتظر أي يبنى على الضم لأنه غير مضاف.

❁ قوله: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي: تلفظ بها، «كلمة» هذا بدل من «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ لأن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» جملة في محل نصب مقول القول، فتكون «كلمة» بدلاً منها، وبدل المنصوب منصوب، و«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تسمى كلمة الإخلاص، وكلمة التوحيد، وكلمة التقوى؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦]، فهي كلمة عظيمة.

❁ وقوله: «كلمة» هذا من باب ترغيبه، وأنها كلمة سهلة إن قالها كان من الناجين، ما طلب منه شيئاً يشق عليه ولا سيباً وأنه في هذه الحالة.

❁ قوله: «أحاجُّ لك بها عند الله» أحاجَّ: على الجزم جواب الطلب، وحُرِّكَتِ الجيم بالفتح للالتقاء الساكنين، ويجوز على الضم «أحاجُّ»: فعل مضارع مرفوع إذا عري عن الناصب والجازم، ويكون استئناف كلام: «أحاجُّ لك بها عند الله» أي: أشفع لك بها عند الله يوم القيامة؛ لأن شفاعته

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل التوحيد، فإذا قال عمه هذه الكلمة صار من أهل التوحيد، ومن أهل الشفاعة، فدل هذا على أن من مات على غير التوحيد فإنه لا تناله شفاعاة الشافعين، ومنهم أبو طالب، وأنه لا تنفعه قرابته من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا إذا مات على التوحيد، أما إذا مات على غير التوحيد فلن تنفعه الشفاعة ولو كان من قرابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا فيه رد على الذين يتعلقون بقرابتهم من رسول الله، ويقولون: نحن من أهل البيت، ونحن، ونحن، ولا يحققون التوحيد، فإن كونهم من أهل البيت لا ينفعهم شيئاً إلا مع التوحيد، فهذا أبو طالب لا يحتاج له الرسول عند الله إلا إذا مات على التوحيد، فيا لها من بينة ما أوضحها!

فقال له الرجلان المخزوميان حضرة السوء: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! أي: عبادة الأصنام، فهؤلاء المشركون فهموا أنه لو قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فإنه بذلك يتبرأ من عبادة الأصنام؛ لأن كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تنفي وتبطل عبادة الأصنام، فهم يمتنعون من قولها من أجل ذلك؛ لأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان، بل لها معنى وهو ترك عبادة الأصنام، ولهذا لما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قالوا: أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِهًا وَاحِدًا؟^(١) يعني: يريد منا ألا نعبد إلا إلهًا واحدًا ونترك الأصنام، قال عَزَّوَجَلَّ:

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٤٤٢/٦)، وأحمد في المسند (٢٢٧/١)، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٥/٤)، والبيهقي في الكبرى (١٨٨/٩) من حديث ابن عباس

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونَ ﴿[الصفات: ٣٥-٣٦]، فهم فهموا أن كلمة «لا إله إلا الله» يلزم منها ترك الآلهة غير الله عَزَّجَلَّ، هذا وهم مشركون، وهؤلاء الذين يعبدون القبور الآن ومنهم علماء لا يفهمون معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ولذلك يقولونها وهم يعبدون القبور، ما فهموا أنها تنفي عبادة القبور، وأنها تبطل عبادة القبور، فهذا من العجب أن المشركين الأولين يعرفون معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وأنها تبطل عبادة القبور، وأن من قالها يلزمه أن يترك عبادة غير الله عَزَّجَلَّ، فلذلك أبوا أن يقولوها، وهؤلاء يقولونها بالآلاف ولكنهم يناقضونها بالأفعال، فيدعون الموتى، ويستغيثون بهم، ويطوفون بالأضرحة، ويزبحون وينذرون ويحجون للقبور، وما فهموا أن عملهم هذا تبطله «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» التي يقولونها، فهذا من العجب العجيب.

✽ قال: (قالوا له: أَتَرُغِبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟)؛ لأنه إذا قال هذه الكلمة فقد رغب عن ملة أبيه عبد المطلب، فهم يريدون بقولهم هذا الاستعطاف، وأنه لا يجوز له يخالف ملة عبد المطلب، ويزعمون أن في هذا عيباً لعبد المطلب، من باب إثارة النخوة الجاهلية فيه.

ولهذا هو يقول في شعره:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ	مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ	لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا ^(١)

فهو ترك التصريح والنطق بـ «لا إله إلا الله»؛ لأنه يحذر مسبة قريش أو ملامة قريش له لتركه ما هم عليه، وهذا من حمية الجاهلية، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، فهم يعرفون أن ما هم عليه باطل، لكن لا يتركونه حمية لقومهم، فهذا فيه ضرر حمية الجاهلية، وأن العبد يجب عليه أن لا يترك الحق من أجل قومه، أو من أجل بلده، أو من أجل مشايخه إذا كانوا على ضلال، بل يجب عليه اتباع الحق، وهذا هو شأن المؤمنين الصادقين.



قوله: (فَاعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعَادَا): فيه مضرة أصحاب السوء، والحذر من قربهم والاستماع لهم، ففيه معنى قول الناظم:
إِذَا مَا صَحِبْتَ الْقَوْمَ فَاصْحَبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَزْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى^(١)
قوله: (فكان آخر ما قال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله).

قال الحافظ: «هو تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب»^(٢).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

قوله: (فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ»): اللام لام القسم.

قال النووي: «فِيهِ جَوَازُ الْحَلْفِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْلَافٍ»^(٣).

قال ابن فارس: «مات أبو طالب ولرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع وأربعون سنة، وثمانية أشهر، وأحد عشر يوماً، وتوفيت خديجة أم المؤمنين «بعد موت أبي طالب بثمانية أيام»^(٤).

(١) هذا البيت للشاعر عدي بن زيد العبادي التميمي، انظر: جهمرة أشعار العرب (ص ١٥٣)، والعقد الفريد (١٦٧/٢)، ونفح الطيب (١٩١/٥)، وفيه:

إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَزْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى
عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِإِثْقَارٍ يَفْتَدِي

(٢) انظر: فتح الباري (٥٠٧/٨).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٥/١).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٥/١).

قوله: (فأنزل الله عَزَّجَلْ: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١٣] هو خبر بمعنى النهي، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: (فأنزل الله) بعد قوله: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَكُنْ عَنْكَ) يفيد ذلك، وقد ذكر العلماء لسبب نزول هذه الآية أسباباً أخر^(١)، فلا منافاة؛ لأن الآية الواحدة قد يتعدد نزولها.

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين، وموالاتهم، ومحبتهم.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (فأعاد عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هذا من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه أن الذي يدعو إلى الله لا يئأس، بل يكرر الدعوة ولو

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٠٧ - ٥٠٩): «في سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَكُنْ عَنْكَ...» الحديث.

والثاني: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بقبر أمه آمنة، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم بكى، فبكى الناس لبكائه، ثم انصرف إليهم، فقالوا: ما الذي أبكاك؟ فقال: «مررت بقبر أُمِّي فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت...» الحديث.

والثالث: أن رجلاً استغفر لأبويه، وكانا مشركين، فقال له علي بن أبي طالب: أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكر ذلك علي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت هذه الآية.

والرابع: أن رجلاً من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الرحم، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال: «بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فنزلت هذه الآية». انتهى بتصرف.

وانظر: تفسير الطبري (١١/ ٤٢، ٤٣).

لم يستجب له من أول مرة، هذا هو منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة، الذي يجب على المسلمين اتباعه واقتفاء أثره، ولا يأخذوا منهمجهم من الحزبيات والجماعات والاصطلاحات البشرية، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

❦ قوله: (فَاعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعَادَا) أي: الرجلان، أعادا عليه قولهما: (أَتَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟)، انظر كيف يصر المشركون -والعياذ بالله- على عنادهم وعلى حميتهم الجاهلية، أعادا عليه مقاتلتهم الخبيثة -غيرة على الشرك، فكانت آخر كلمة قالها أبو طالب وهو في الرmq الأخير: (هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) -والعياذ بالله- وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

جاء بضمير الغائب في قوله: (هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) استكراها للفظ المتكلم أن يقول: أنا، وربما قال أبو طالب: أنا، لكن الراوي صرفها إلى ضمير الغائب استكراها لها.

الحاصل: أنه أبى أن يقول: لا إله إلا الله، ومات على ذلك، فهذا فيه دليل على أن أبا طالب مات على الشرك، وعلى أن عبد المطلب مشرك، وعلى أن أجداد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشركون، وفي هذا ردٌ على الرافضة الذين يدعون إسلام أبي طالب، وألف بعضهم كتاباً سماه أبو طالب مؤمن قريش، فالشيعة يزعمون إسلام أبي طالب، وإسلام عبد المطلب، وإسلام أجداد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل والمخرفون غير الشيعة يزعمون هذا، ويقولون: ما يليق بالرسول أن يكون من أولاد كفار. وهذا لجهلهم وإلا لو كانوا يعلمون

لعلموا أن إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان أبوه كافراً، وهذا من صريح القرآن، وقد تبرأ إبراهيم منه؛ كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

إبراهيم الخليل أبو الأنبياء أبوه كافر، وما ضره هذا، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه كافر، أبى أن يركب مع أبيه في السفينة، وأبوه يقول له: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، وهو ولد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرسل، فلا يضر ولا يستغرب أن يكون أبو نبي من الأنبياء كافراً، أو ابنه كافراً، ليس بمستغرب.

❁ قال: (وأبى أن يقول: لا إله إلا الله) لما أبى أبو طالب أن ينطق بكلمة التوحيد، لم تنقطع شفقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمه، فقال: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنْكَ» وذلك من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رد الجميل إلى عمه الذي دافع عنه وحماه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿ [التوبة: ١١٣-١١٤]، لما نزلت هذه الآيات تأسف ناس من الصحابة؛ لأنهم كانوا يستغفرون لأبائهم، فخافوا أن يؤاخذوا بفعلهم هذا بعدما تبين لهم أن هذا أمر غير جائز، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] أي: أن ما فعله الإنسان قبل أن يتبين له الحق فإنه لا يؤاخذ به، فهم فعلوا هذا قبل أن ينهوا عن الاستغفار فلا يضرهم،

وهذا كقوله عَزَّجَلِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]، وغير ذلك من الآيات التي يبين الله عَزَّجَلِ فيها أنه لا يعذب قبل إقامة الحجة، فهذا عذر لهم فيما فعلوه، ودفع لما حصل لهم من الخوف والندم على ما فعلوه.

فهذه الآيات التي نهي فيها الله عَزَّجَلِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين أن يستغفروا للكفار والمشركين، تدل على تحريم الاستغفار لهم والترحم عليهم ولو كانوا أولي قرابة، حتى ولو كان الكافر أباً للمسلم أو ابنه أو أخاه أو ابن عمه، فكيف الاستغفار للأبعاد؟!

الحاصل: أنه لا يجوز الاستغفار للكفار، لا الأحياء ولا الأموات، الحي لا يُستغفر له وهو على الشرك، إنما يُدعى له بالهداية، وأن يوفقه الله لقبول الحق، ولا يقال: المغفور له أو المرحوم فلان، وهو مشرك أو كافر، هذا لا يجوز، إنما الاستغفار للمؤمنين: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأنزل الله عَزَّجَلِ في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا تَهْدِي هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ وَالْقَبُولِ مَنْ أَحْبَبْتَ مِنْ عَمِكَ أَوْ غَيْرِهِ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هذه هداية التوفيق والقبول، هذه بيد الله عَزَّجَلِ لا يملكها غير الله، وأما هداية الدلالة والإرشاد والدعوة، فهذه يملكها الرسول، ويملكها الدعاة إلى الله، قال عَزَّجَلِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، يعني: تدل عليه وترشد إليه.

فالهداية هدايتان، هداية يملكها الرسل والدعاة إلى الله، وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان، أما هداية التوفيق وبعث الإيمان في القلوب فهذا لا يملكه إلا الله، لا يملكه الأنبياء، ولا غيرهم من باب أولى؛ لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والله عَزَّ وَجَلَّ عليم حكيم يضع الأمور في مواضعها، فلا يضع الهداية إلا فيمن يعلم أنه يصلح لها، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من المعلوم أن المؤمن لا يجوز له أن يحب الكافر، فهل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أبا طالب وهو مشرك؟ هذا السؤال له جوابان:

الجواب الأول: أن يكون المعنى: إنك لا تهدي من أحببت هدايته، فيكون المفعول محذوفًا، لا بد من هذا التقدير، وهو الأولى.

الجواب الثاني: أن المراد بالمحبة هنا: المحبة الطبيعية؛ لأن المحبة الدينية لا تجوز إلا للمؤمنين، أما المحبة الطبيعية فالإنسان بطبعه يميل إلى قبيلته، ويميل إلى أقاربه ولو كانوا كفارًا، هذه محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان، أما الممنوع مع الكفار فهو المحبة الدينية، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، المراد بالمودة هنا المودة الدينية.

فهذه قصة عظيمة، وبالنظر في الحديث الذي أورده المصنف مع الآيات المتعلقة بها، نستنتج مسائل عظيمة، منها:

المسألة الأولى: بطلان التعلق بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كجلب الرزق، ودفع الضرر، وشفاء المريض، وهداية القلوب، وإنزال المطر، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله، هذا لا يطلب إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يجوز طلبه من غير الله، فإذا كان هذا لا يجوز في حق الأنبياء ففي حق غيرهم لا يجوز من باب أولى.

المسألة الثانية: فيها مشروعية زيارة المريض ولو كان كافراً، فإن كان المريض مؤمناً فلاجل توطينه، وتوسيع الأمر عليه، وتذكيره بالشهادة؛ لأن المريض يحتاج إلى من يحضره ويؤنسه ويوسع عليه الأمر ويبشره، وإن كان كافراً فمن أجل دعوته إلى الله، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار عمه أبا طالب لدعوته إلى الله، وزار غلاماً يهودياً محتضر، فدعاه إلى الله، فاستجاب وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومات على الإسلام، فزيارة المريض مشروعة ولو كان كافراً من أجل دعوته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المسألة الثالثة: فيه ضرر جلساء السوء، فيجب على الإنسان أن يتجنب جلساء السوء وأن يحذر منهم؛ لأنهم يجرونه إلى الشر، ولا يصحب إلا الأخيار، وما أحسن قول الناظم:

إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى
عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِإِثْقَارٍ يَفْتَدِي

فهؤلاء الجلساء أثروا على أبي طالب حتى مات على الشرك، فهذا فيه ضرر مجالسة أهل السوء وقرناء السوء.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على تحريم الاستغفار للمشركين والترحم عليهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، وإنما هذا خاص بالمؤمنين، فالاستغفار للمشركين لا يقبله الله ولو كان من النبي، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استغفر لعمه ولم يستجب له، فدل على أن الاستغفار للمشركين لا ينفعهم ولو كان المستغفر من الأنبياء والصالحين، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذا فيه خطر الشرك والعياذ بالله.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فلو أن أبا طالب قال: «لا إله إلا الله» لحتم له بخاتمة خير ودخل الجنة، بعدما عاش على الكفر والشرك، ولكنه لما لم يقلها ومات على ملة المشركين صار من أهل النار، ففيه أهمية الخاتمة وأن الأعمال بالخواتيم، فيجب على المسلم أن يكثر من سؤال الله حسن الخاتمة.

المسألة السادسة - وهي مهمة جداً -: أن من قال: «لا إله إلا الله» فإنه يُقبل منه، ويُحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يُناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حُكم برّدته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يُحكم بإسلامه، فإن كان صادقاً فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقاً، وإن كان كاذباً فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عَزَّجَلَّ، أما نحن فليس لنا إلا الظاهر.

المسألة السابعة: في هذا دليل على بطلان قول الرافضة والشيعة بإسلام أبي طالب، فالحديث صريح ومتفق عليه في الصحيحين أنه مات

على الشرك، وهم يقولون: أبو طالب مسلم، فيدعون إسلام أبي طالب، وإسلام عبدالمطلب، ويستدلون بقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، يقولون: هؤلاء أجداد الرسول تنقل بين أصلاهم، وهذا تفسير للآية بغير معناها؛ لأن قوله: ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ يعني: قيام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الليل مع الذين يقومون يصلون الليل، فالمراد بالساجدين الذين يصلون ويقومون الليل من الملائكة والآدميين، وليس المراد أن أجداد الرسول كانوا ساجدين وكان الرسول يتنقل من صلب إلى صلب، هذا كلام باطل.

المسألة الثامنة - وهي عظيمة جداً -: تفسير «لا إله إلا الله»؛ كما يقول الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ، وأن معناها: ترك عبادة غير الله؛ لأن أبا جهل وزميله فهما أنه إذا قال: «لا إله إلا الله» فقد ترك ملة عبد المطلب، وأن «لا إله إلا الله» ليست مجرد كلمة تُقال، وإنما هي كفر بالطَّاغوت وإيمان بالله عَزَّجَلَّ، بخلاف ما يعتقده كثير من الخرافيين في هذا الزمان، يقولون: «لا إله إلا الله» بألسنتهم، ثم يدعون غير الله عَزَّجَلَّ، فيقولون: يا حسين، ويا بدوي، ويا فلان، ويذبحون للموتى، ويستغيثون بهم، وهم يقولون: «لا إله إلا الله!!»، بل لهم أورد صباحية ومسائية يقولونها بالمئات، ثم يذبحون للضريح ويطوفون به، ويستغيثون به.

فدَلَّ ذلك على أن أبا جهل أفهم منهم بمعنى «لا إله إلا الله»؛ لأن أبا جهل فهم أن معنى «لا إله إلا الله»: ترك عبادة الأوثان، وهؤلاء ما فهموا

هذا، ما فهموا أن «لا إله إلا الله» معناها؛ ترك عبادة القبور، وهذا من الفقه العظيم، وهذه هي العقيدة الصحيحة، والداعي إلى الله يجب أن يفهم هذا الفقه؛ لأن هذا هو فقه الدعوة.

المسألة التاسعة: فيه الردّ على المرجئة، الذين يقولون: إن الإيَّان هو مجرّد المعرفة أو الاعتقاد، فإذا عرف الإنسان بقلبه أو اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، ولو لم يعمل؛ فإنه يكون مسلماً، لأن الأعمال ليست شرطاً في الإيَّان، بل مجرّد المعرفة أو الاعتقاد بالقلب يكفي عندهم، وهذا باطل؛ لأن معرفة أبي طالب لرسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تعتبر إسلاماً، والله عَزَّوَجَلَّ قال عن المشركين: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَتْ إِلَهُهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم يعرفون أنه رسول الله، لكن الكبر والحمية الجاهلية جعلتهم لا يقبلون الدعوة، مع أنهم يعرفونها بقلوبهم، والله عَزَّوَجَلَّ حكى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فرعون عارف بقلبه صحّة ما جاء به موسى، ولكن منعه الكبر والمعاندة.

المسألة العاشرة: فيه خطورة الحمية الجاهلية لدين الآباء والأجداد، وأن الإنسان لا يتعصب لمذهب آبائه وأجداده وأهل بلده ومشايخه ومن يعظمهم إذا كان هذا مخالفاً للحق، فإنه يحمل على الكفر -والعياذ بالله- والخروج من الملة إذا احتّمى له ودافع عنه، وما هلكت الأمم إلا بهذا، كلهم يحتجون بما عليه آبائهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا

عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴿البقرة: ١٧٠﴾، أي: ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] أي: على دين.

هذه حجة المشركين، يتمسكون بها عليه الآباء ويتركون ما جاءت به الرسل، فهذا فرعون يقول لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، موسى عَلَيْهِ السَّلَام يدعوه إلى التوحيد وعبادة الله، وهو يحتج بها عليه القرون الأولى، فهي حجة مضطردة عند المشركين: الاحتجاج بها عليه الآباء والأجداد، وهذه هي التي أهلكت الأمم.

فيجب على الإنسان أن يتبرأ من هذه الحجة، ويكون هدفه الحق والنجاة من النار، فإذا رأى أن من يعظمهم على باطل، فلا يتعصب لهم، ولا تأخذه حمية الجاهلية لنصرة مذهبهم، وترك الحق وهو يعلمه، هذا هو الذي أهلك الأمم السابقة عارضوا الأنبياء بهذه الحجة.

ولهذا فإن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ يسميها: الحجة الملعونة، هذه هي الحجة الملعونة التي هي من أعظم مسائل الجاهلية - والعياذ بالله - حيث يحتج أهل الباطل بها عليه الآباء والأجداد، ويتركون الحق تعصباً وحمية لهم ولمذهبهم، وهذا يشمل كل من تعصب لباطل، فلا يجوز للمسلم أن يتعصب للباطل، بل إذا تبين له الحق وجب عليه المبادرة إليه، ولو كان الحق مع أعدائه؛ لأنه ليس قصده الرجال، إنما قصده الحق، والحق ضالة المؤمن أنى وجده أخذه، فهذا في الحقيقة باب عظيم فيه فقه غزير في العقيدة.

المسألة الحادية عشرة: فيه أن الهداية التي هي هداية القلوب لا يملكها
إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما هداية الدلالة والإرشاد فهذه يستطيعها الدعاة إلى
الله عَزَّوَجَلَّ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الْآيَةُ.

الثالثة: وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكُبْرَى، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ لِلرَّجُلِ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَقَبَّحَ اللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: حِدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِِيَ عَنْ ذَلِكَ.

الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ الشُّوْءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

العاشرة: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ، لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الحادية عشرة: الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ
 فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَكَرُّرِهِ، فَلِأَجْلِ
 عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ، اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.



١٨ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوفُ فِي الصَّالِحِينَ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوفُ فِي الصَّالِحِينَ]: قد أُنْذِرُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنَ الْغُلُوفِ، وَأُبْلِغُ فِي الْإِنْذَارِ، تَحْذِيرًا عَمَّا وَقَعَ مِنْ جَهَالَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ) أَيِ: مِنَ الْأَدْلَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الدَّالَّةِ عَلَى (أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ)، وَالسَّبَبُ فِي اللُّغَةِ: مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ، أَمَّا السَّبَبُ عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ فَهُوَ: مَا يُلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ الْعَدَمُ، وَلَا يُلْزَمُ مِنْ وَجُودِهِ وَجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لِدَاثَتِهِ.

والكفر: هو الخروج من الدين والردة عنه؛ لأن الكفر على قسمين:

* كفر أصلي: وهو ما كان عليه الكفار والمشركون والوثنيون.

* وكفر بسبب الردة عن الإسلام.

والمراد هنا النوع الثاني: أنهم كانوا مسلمين في أول الأمر ثم ارتدوا عن الإسلام بسبب من أسباب الردة.

❁ قوله: (بَنِي آدَمَ) يعني: جميع الناس من الأمم السابقة والأمم اللاحقة، فهذا السبب مضطرد في بني آدم.

❖ قوله: (وَتَرَكِهِمْ دِينَهُمْ) أي: رجوعهم عنه وردتهم، (تَرَكِهِمْ) بالجر عطفاً على (كفر)؛ لأن (سَبَبَ) مضاف، و(كُفِّرَ) مضاف إليه، فعطف عليه (تَرَكِهِمْ)، والمعطوف على المجرور مجرور - كما هو معروف - و(دِينَهُمْ) مفعول؛ لأن المصدر إذا أضيف يعمل عمل فعله، ف- (دِينَهُمْ) مفعول به لـ (تَرَكِهِمْ)، وقوله: (تَرَكِهِمْ دِينَهُمْ) تأكيد لقوله: (سَبَبَ كُفِّرَ بني آدم)؛ لأن ترك الدين والكفر بمعنى واحد، أو أن يكون (كُفِّرَ بني آدم) الكفر الأصلي، و(تَرَكِهِمْ دِينَهُمْ) ردة، فيكون مراد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: أن سبب الكفر الأصلي وسبب الردة هو: (الغلو).

والغلو في اللغة: الزيادة، يقال: غلا السعر إذا زاد، وغلى القدر إذا ارتفع فيه الغليان بسبب الحرارة^(١).

والغلو شرعاً: هو الزيادة عن الحد المشروع، والغلو يكون بالقول وبالاعتقاد وبالفعل؛ كأن يقول قولاً فيه زيادة عن الحد المشروع، أو يعتقد في شخص أو في شيء اعتقاداً زائداً عن الحد المشروع، أو بالفعل كأن يزيد في العبادة عن الحد المشروع، ويتشدد في الدين في التحليل والتحریم، ويتشدد في التعبّد والصيام والصلاة وغير ذلك، حتى يشق على نفسه، هذا غلو في العبادة، وهو في جميع أنواعه محرم، والتساهل أيضاً محرم، والمطلوب

(١) قَالَ اللَّيْثُ: غَلَا السَّعْرُ غَلَاءً: مَمْدُودٌ، وَغَلَا فِي الدِّينِ يَغْلُو غُلُوءًا: إِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ، وَغَلَا بِالسَّهْمِ يَغْلُو غُلُوءًا: إِذَا رَمَى بِهِ. انظر: العين (٤/٤٤٦)، وجمهرة اللغة (٢/٩٦١)، وتهذيب اللغة (٨/١٦٧-١٦٨)، والصحاح (٦/٢٤٤٨)، ولسان العرب (١٥/١٣١-١٣٤).

والمشروع الاعتدال: بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والتساهل، بين الجفاء والتشدد، فلا يكون العبد معرضاً وجافياً، ولا يكون غالياً ومتشدداً؛ كما يقول الشاعر:

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كَلَّا طَرَفِي قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ^(١)

❁ قوله: (هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ) المراد بالصالحين من العباد: الأنبياء والأولياء والعلماء، فلا يغلو العبد في أحد منهم حتى يرفعه فوق منزلته؛ لأن هذا سبب في الشرك به، وعبادته من دون الله عَزَّجَلَّ، فالغلو في الشخص سبب للشرك بعبادته، والغلو في العبادة سبب لترك العبادة؛ لأن الإنسان بشر، يعتريه الملل، فيترك العبادة بسبب أنه زاد على نفسه، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمنبت -أي الذي عطب مركوبه من شدة السير^(٢)-: «لَا أَرْضَا قَطْعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^(٣). مثل الذي يكون في سفر فيسرع في سيره ويكثر، فتكل راحلته وتعجز، فيبقى بدون راحلة، لا ظهراً أبقى، وتبقى المسافة لم يقطعها، أما إذا كان الإنسان يعمل بجِد واعتدال فهو كالمسافر الذي يعتدل في سيره ويريح راحلته، فإنه يقطع المسافة وتبقى راحلته.

(١) هذا البيت لأبي سليمان الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الفقيه الأديب. انظر: كتابه العزلة (٩٨). ونسبها إليه ابن خلكان في ترجمته في وفيات الأعيان (٢/ ٢١٥)، والذهبي في تاريخ الإسلام (٢٧/ ١٦٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ١٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٢): «رواه البزار، وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل، وهو كذاب». وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٩٧): «وله شاهد في الزهد لابن المبارك من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً».

ودين الله متين، لا أحد يحصيه؛ كما يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(١)، ويقول أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَقِيمُوا وَكُنْ تَحْصُوا»^(٢)، فلن تحيط بالدين وتزعم أنك ما تركت شيئاً من الدين، بل ستبقى أشياء كثيرة، ولن تستطيع الإحاطة به كله، فلا ترهق نفسك، ولكن خذ ما تستطيع برفق واعتدال، وأيضاً التوسط في العمل سبب للاستمرار في الطاعة، وأما الغلو فهو سبب لانقطاع العمل، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»^(٣).

فالحاصل: أن الغلو مذموم، ولو كان قصد الإنسان حسناً، ونيته طيبة فهذا لا يسوغ له أن يزيد ويغلو ويتشدد، ويقول: أنا نيتي طيبة، هذا منهي عنه نهى تحريم، هذا مقصود الشيخ، ولكن المقصود بالغلو هنا أن الغلو في الصالحين من أنبياء وأولياء وعلماء هو سبب الشرك الذي وقع فيه بنو آدم؛ كما حصل لقوم نوح لما غلوا في الصالحين كما يأتي في هذا الباب، وكما حصل في هذه الأمة لما غلوا في الأولياء والصالحين فعبدوا قبورهم، كما يأتي في هذا الباب وفي الأبواب التي بعده.



- (١) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد في المسند (٢٧٦/٥)، والدارمي في سننه (٦٥٥)، والحاكم في المستدرک (١/٢٢٠، ٢٢١) وصححه، والطبراني في الأوسط (١١٦/٧) والكبير (١٤٤٤)، والبيهقي في الكبرى (١/٨٢) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٣) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله: ﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية. الغلو: هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي: لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله، والخطاب - وإن كان لأهل الكتاب - فهو تحذير لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما فعلت النصارى مع المسيح وأمه، واليهود مع العزيز.

وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظماً ونثراً؛ كما في كلام البوصيري، والبرعي^(١)، وغيرهما، وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله، ولكتابه، ولرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَخَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا. فكره

(١) هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي، الهاجري، اليماني، من سكان (برع) وهو جبل في تهامة مما يلي اليمن، ولد وعاش في قرية من ذلك الجبل تدعى (النيابتين)، هي اليوم من ولاية الحديدة، لم يذكر المؤرخون وأهل التراجم مولد البرعي ولا طفولته ومنشأه، طُبِعَ له ديوان فيه من الأقوال الكفرية والمذائح الصوفية الشريكة ما الله به عليم، توفي ببرع سنة ثلاث وثمانمائة. انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ١١٨)، وتاريخ البرهبي (٤٣/ ١)، والبدر الطالع (٢/ ١٢٠).

وقد تسمى باسمه أحد مشايخ الصوفية المعاصرين في السودان، له أشعار يكثر فيها من مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأولياء الصالحين، يخدع بها عوام المسلمين وجهالهم، فلم يترك معتقداً كفرية فاسداً يعتقده غلاة المتصوفة إلا وصَّح به في هذا المديح. وقد شمر بعض طلبة العلم عن ساعد الجد للرد عليه، ومن رد عليه: الشيخ عمر التهامي في رسالة بعنوان: «شعر البرعي في الميزان بين الكتاب والسنة».

ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد الكراهة - كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث ^(١) إن شاء الله تعالى - وقول القائل: مَا شَاءَ اللَّهُ، وَشِئْتُ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدَهُ» ^(٢).

قال شيخ الإسلام: «ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط، فقد شابههم».

قال: «وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَرَّقَ الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقتلهم فيها، واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قول أكثر العلماء» ^(٣).

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قال: (وقول الله عَزَّجَلْ: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتِبُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، سُمُّوا بذلك؛ لأن الله عَزَّجَلْ أنزل على أنبيائهم الكتب: أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنزل

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٠، ٧١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٣)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٣٩٠)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٣٩٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٦٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٤، ٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٣) من حديث عبد الله بن الشخير، أنه هو الذي قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القول.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٠)، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٤).

الإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلذلك سُمُّوا أهل الكتاب فَرَقًا بينهم وبين الأُمِّيِّينَ والوثنيِّينَ الذين لا كتاب لهم.

وهذا فيه تنبيه على أن المطلوب منهم أن يتقيّدوا بالكتاب الذي أنزل عليهم، وعدم مجاوزته، وهو تنبيه لكل عالم بأن يلتزم الاعتدال.

❖ قوله: ﴿لَا تَغْلُوا﴾؛ أي: لا تشتدوا وتزيدوا في دينكم؛ لأنهم غلوا في المسيح، واعتقدوا أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله، قال عزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، غلوا في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى جعلوه ابناً لله - تعالى الله عن ذلك - وعبدوه من دون الله، هذا سبب الغلو.

قال عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٧١] فليس هو الله، ولا ثالث ثلاثة، وإنما هو رسول الله أرسله الله إلى بني إسرائيل، فقال لهم: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِيَّيْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]، وقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ما قال: جعلني ابناً، أو جعلني ثالث ثلاثة، بل قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، فهو عبد لله، ورسوله إلى بني إسرائيل، ليس كما يعتقد النصارى فيه.

فليست الآلهة ثلاثة كما تقول النصارى، وإنما الله إله واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عزَّجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَسَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿٧٥﴾ [المائدة: ٧٣-٧٥]، فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول مثل الرسل الذين أرسلوا قبله، فلماذا تقولون: المسيح ابن الله، ولا تقولون إن الرسل كلهم أبناء الله؟ إذا كانت الرسالة تقتضي أن يكون الرسول ابناً لله فليكن جميع الرسل إذاً أبناء الله، تعالى الله عن ذلك.

﴿قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ والصديق: هو المبالغ في الصدق، ودرجة الصديقين بعد درجة الأنبياء؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصَّدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»^(١)، فالصديق هو كثير الصدق الذي لا يصدر منه كذب.

فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول من الرسل، وأمه صديقة من الصديقين، وليس كما يقولون: إنه ثالث ثلاثة.

﴿قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كان عيسى ومريم يأكلان الطعام، فدل على أنهم بشر مخلوقون؛ لأن الرب سبحانه لا يأكل الطعام، لأنه ليس بحاجة إلى الطعام، ومن كان يأكل الطعام دل هذا على نقصه وحاجته إلى

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطعام، وأنه لو لم يأكل الطعام لهلك، وكونها يأكلان الطعام هذا دليل على أنها ليسا بأرباب، فهذا برهان عقلي على بطلان اعتقاد إلهية المسيح وأمه.

فالحاصل أن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْهَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وإن كان المخاطب به بنو إسرائيل، إلا أن اللفظ عام يشمل الجميع، يشمل المسلمين؛ لأن القرآن جاء للمسلمين، وهذه الآية من القرآن، فليس النهي عن الغلو خاصاً ببني إسرائيل أو بأهل الكتاب، فهذا هو الشاهد من الآية النهي عن الغلو، أنه كان سبباً في شرك أهل الكتاب بالله عَزَّوَجَلَّ.

فكذلك الذين غلوا في الصالحين من هذه الأمة حتى عبدوهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعلوا لهم شيئاً من الربوبية، سواء بسواء.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوَهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ الْقِيمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبِدُوهُمْ»^(٢).

قَوْلُهُ: [فِي الصَّحِيحِ] أَيُّ: صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، وَهَذَا الْأَثَرُ اخْتَصَرَهُ الْمَصْنَفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ أَمَّا وَدٍّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لَهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُوفِ، عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لَهُمْدَانٍ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمِيرٍ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ... إِلَى آخِرِهِ.

قَوْلُهُ: «أَنْ انْصَبُوا»: بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ.

قَوْلُهُ: «أَنْصَابًا»: جَمْعُ نَصَبٍ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي صَوَّرُوهَا عَلَى صُورِ الصَّالِحِينَ.

قَوْلُهُ: «فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»:

الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ: «وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ»، فَلَعَلَّ الَّذِي هُنَا رَوَايَةٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩٢٠) مَعَ اخْتِلَافٍ يَسِيرٍ.

(٢) انْظُرْ: إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ (١/ ١٨٤).

فصارت هذه الأصنام - بهذا التصوير على صور الصالحين - سُلَّمًا إلى عبادتها، وكل ما عُبد من دون الله؛ من قبر، أو مشهد، أو صنم، أو طاغوت، فالأصل في عبادته هو الغلو، كما لا يخفى على ذوي البصائر، كما جرى لأهل مصر وغيرهم؛ فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يُعرف له أصل، ولا فضل، ولا علم، ولا عبادة، ومع هذا فصار أعظم آلهتهم، مع أنه لا يُعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة، فبال فيه ثم خرج ولم يصل!! ذكره السخاوي عن أبي حيان^(١).

فزين لهم الشيطان عبادته، فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون، ويطفئ الحريق، وينجي الغريق، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب، وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة، وفيهم من يسجد على عتبة حضرته.

وكان أهل العراق ومن حولهم - كأهل عمان - يعتقدون في عبدالقادر الجيلاني، كما يعتقد أهل مصر في البدوي، وعبدالقادر من متأخري الحنابلة، وله كتابه «الغنية»، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة من هو أفضل منه في

(١) قال السخاوي في الضوء اللامع (٩/ ١٥٠): «حدّث المقرئ في عقوده عن شيخه أبي حيان، قال: ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن الباب المسير معه لزيارة أحمد البدوي بناحية طنطا، فوافيناه يوم الجمعة، وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال، وعمامة صوف رفيع والناس يأتونه أفواجا، فمنهم من يقول: يا سيدي خاطرك مع غنمي، وآخر يقول: مع بقري، وآخر: مع زرعي، إلى أن حان وقت الصلاة، فنزلنا معه إلى الجامع، وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة، فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة، وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائما، وكشف عن عورته بحضرة الناس، وبال على ثيابه وحصر المسجد، واستمر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس إلى أن انقضت الصلاة ولم يصل».

العلم والزهد، لكن فيه زهد وعبادة، وفتنوا به أعظم فتنة؛ كما جرى من الرافضة مع أهل البيت، وسبب ذلك الغلو، ودعوى أن له كرامات، وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل؛ كبعض الصحابة والتابعين، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به.

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي^(١)، وهو إمام أهل الوحدة، الذين هم أكفر أهل الأرض.

وأكثر من أن يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين؛ كأناس بمصر وغيرها، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا، وفي الحجاز واليمن وغيرها من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى؛ كعبادتهم للجن، وطلبهم الشفاعة منهم، والأصل في ذلك: الغلو بتزيين الشيطان.

وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ»، حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي، فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فقال الشيخ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ. فأنكر ذلك عمرو وقال: مَا هَذَا؟ فقال الشيخ: تَمَلِّكُهُ وَمَا مَلَكَ، فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو، فدانت بها العرب^(٢).

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الأندلسي، ولد بمرسية سنة ستين وخمسائة ونشأ بها، وانتقل إلى أشبيلية سنة ثمان وسبعين، وارتحل إلى بلاد الشام، ثم أقام بمكة مدة، صنف فيها كتابه «الفتوحات المكية»، وله كتابه المسمى بـ «فصوص الحكم»، فيها أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح، انظر: سير أعلام النبلاء (٤٨/٢٣)، والبداية والنهاية (١٥٦/١٣).

(٢) انظر: الروض الأنف (١٦٧/١)، والبداية والنهاية (١٨٨/٢)، والسيرة الحلبية (١٦/١).

... الشَّيْخُ ...

هذا الحديث في تفسير ابن عباس للآية الكريمة، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا حزنوا عليهم وفقدوهم، فاستغل الشيطان هذه الفرصة وأوحى إليهم: أن صوروا صورهم وانصبوها على مجالسهم حتى تتذكروا أحوالهم، فهو جاءهم من طريق ظاهره النصيح وباطنه المكر والخديعة، فظهر لهم أنه يحثهم على العبادة، وأن هذه الصور فيها مصلحة؛ لأنها تذكر بأحوال الصالحين، فتنشط على العبادة، وهو يقصد غير ذلك؛ يقصد أن هذه الصور في المستقبل تكون أصنامًا، ففعلوا ما أوحى به إليهم، وصوروا صورهم ونصبوها.

والأنصاب: جمع نصب، وهو الصورة التي تعلق أو تنحت من الحجر أو من الطين، ومثلها اليوم: الصور التي يعلقها بعض الناس ويعظمونها ويقولون: هذه للذكريات، وهذا هو فعل قوم نوح، وإن كانوا في الوقت الحاضر لا يعبدونها، لكن يأتي وقت في المستقبل يزين الشيطان لأهل الأرض أن هذه الصور تنفع وتضر فيعبدونها، فإذا قُرِنَ السبب وجدت النتيجة فيما بعد، وإذا قطع السبب فإنها لا توجد النتيجة، والشيطان حريص على إهلاك بني آدم، وله نظر بعيد، فهو لا ينظر إلى الجيل الحاضر؛ لأنه يعلم أن الجيل الحاضر لن يعبدوا هذه الصور؛ لأنهم يعرفون التوحيد ويعرفون الشرك، وفيهم العلماء، لكن يكفي منهم بنصب الصور بزعم أنها تذكر بأحوال

العباد والمجاهدين، ويظهرها بمظهر النصيحة والعبادة، ثم إذا مات هذا الجيل، وفقد العلماء الذين ينهون عن الشرك، وجاء جيل جاهل، جاءهم الشيطان وقال: هذه تنفع وتضر فعبدوها، كما حصل لقوم نوح تماماً.

وهذا دليل على أن البدع لا تجوز، وإن كان ظاهرها الخير، وإن كانت نية أصحابها الخير.

❁ قوله: «حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُذِّتْ»، وفي رواية: «تَنْسَخَ الْعِلْمُ»، يعني: مات العلماء الذين يحذرون من الشرك، «عُذِّتْ» أي: الصور؛ لأن الشيطان جاء إلى من بعدهم وقال: إن آباءكم نصبوا هذه الصور لكي تُعبد، وفيها كان يسقون المطر، فعبدوها من دون الله، وحدث الشرك في الأرض.

فأول شرك حدث في الأرض كان بسبب صور الصالحين، ولذلك أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المصورين أشد الناس عذاباً يوم القيامة؛ لأن التصوير وسيلة للشرك، وقد لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصورين^(١)، وقال: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»^(٢)، وقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّورَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(٣)، وقال: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً، فَإِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٦، ٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فِيهَا أَبَدًا»^(١)، فاشتد نكيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّصْوِيرِ وَعَلَى تَعْلِيقِ الصُّورِ؛ لَأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى الشُّرْكِ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ لَا يُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادَةِ هَذِهِ الصُّورِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ التَّوْحِيدَ وَفِيهِمْ عُلَمَاءٌ، وَفِيهِمْ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، لَكِنْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِذَا انْعَقَدَ السَّبَبُ وَوَجَدَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي إِلَى أَجْيَالِ الْمُسْتَقْبَلِ وَيُغْرِيمُ بِهَذِهِ الصُّورِ، لِأَسْمَا إِذَا كَانَتْ صُورَ مُعْظَمِينَ، كَصُورِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْتَنُهُمْ بِهَا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

فَسَبَبُ الْحَدِيثِ: أَنَّ الصُّورَ أَوْقَعَتْ الْأُمَمَ فِي الشُّرْكِ، كَمَا حَصَلَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، وَكَمَا حَصَلَ فِي قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ كَانُوا يَعْبُدُونَ التَّمَاثِيلَ، وَهِيَ الصُّورُ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وَكَذَلِكَ الْيَهُودُ لَمَّا صُورَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ صُورَةَ عَجَلٍ فَعْبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، صُورَ لَهُمْ تَمَثُّلاً عَلَى شَكْلِ عَجَلٍ مِنَ الْبَقَرِ، فَعْبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

فَالصُّورُ فِيهَا فِتْنٌ عَظِيمَةٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ الْآنَ يَسْمُونَهَا فَنَ مِنَ الْفَنُونِ، وَيَتَعَلَّمُونَهَا عَلَى أَنَّهَا فَنٌ، فَهِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ لَا يَجُوزُ التَّسَاهُلُ فِي شَأْنِهَا، وَيَجِبُ قَطْعُ دَابِرِهَا عَنْ مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ.

فَهَذَا فَعْلُ الشَّيْطَانِ مَعَ قَوْمِ نُوحٍ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ هَذِهِ الصُّورِ تَعَصَّبُوا لَهَا وَقَالُوا: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، كَمَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٢٢٥، ٥٩٦٣)، وَمُسْلِمٌ (٢١١٠) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال كفار قريش لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نهاهم عن الشرك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنْطَلَقَ أَمْلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِ الْهَيْكَةِ﴾ [ص:٦]، أي: لا تطيعوا محمداً.
فدين المشركين واحد من قديم الزمان وحديثه.

❁ قال: (قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا، عَكُفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ») يعني: لما مات هؤلاء الصالحون. وهذا تفسير وتوضيح لما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والعُكُوف هو: طول البقاء في المكان، ومنه: الاعتكاف في المساجد، أي: لزوم مسجد لطاعة الله.

فهذه الآثار مع الآية الكريمة تدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريم الغلو في الصالحين، بمعنى ما ذكرناه في الغلو، وأنه يؤول إلى الشرك، فإن غلو قوم نوح في الصالحين آل بهم إلى الشرك والعياذ بالله، فهذا شاهد للترجمة: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ) وهذا ظاهر، فإن ما وقع في قوم نوح كان سببه الغلو في الصالحين.

وفيه ردٌّ على عبّاد القبور اليوم، الذين يقولون: البناء على القبور من باب المحبة للصالحين. وكوننا نستغيث بهم، ونستشفع بهم، ونذبح لهم، وننذر لهم، ونتبرّك بتربتهم، هذا ليس من الشرك، هذا من باب محبة الصالحين. ويقولون: للذين ينكرون هذا: أنتم تبغضون الصالحين. هكذا فسروا المحبة والبُغض، بأن المحبة: عبادتهم، والبغض: ترك عبادتهم، وهذا

من انتكاس الفطر والعياذ بالله. فالآية والأثر يردّان عليهم؛ لأن هذا ليس من محبة الصالحين، وإنما هو من الغلو فيهم الذي يؤول إلى الشرك.

المسألة الثانية: في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧] دليل على أن الغلو في الصالحين من سنة اليهود والنصارى، وليس من سنة المسلمين، فهؤلاء القبوريون سلفهم اليهود والنصارى، وبئس السلف.

المسألة الثالثة: في أثر ابن عباس تحذير من التصوير، ونشر الصور؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، فأول شرك حدث في الأرض هو بسبب الصور المنصوبة، وهذه إحدى علتي تحريم التصوير؛ لأن التصوير ممنوع لعلتين: **العلة الأولى:** أنه وسيلة إلى الشرك.

العلة الثانية: أن فيه مضاهاة لخلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد قال عَزَّجَلَّ - كما في الحديث القدسي - : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(١)، فالمصوّر يحاول أن يضاهي خلق الله عَزَّجَلَّ بإيجاد الصورة، فلذلك يجعل لها أعضاء، ويجعل لها عيين، ويجعل لها أنفًا، ويجعل لها شفيتين، ويجعل لها وجهًا، ويجعل لها يدين، ويجعل لها رجلين، يضاهي خلق الله، إلا أنه لا يقدر على نفخ الروح فيها، ويجعل الصورة على شكل ضاحكة، أو على شكل باكية، أو شكل مقطّبة الجبين، أو مسرورة، كل هذا مضاهاة لخلق الله، وإن كانوا

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يسمون هذا من باب الفنون، وهي فنون شيطانية، والجنون فنون، فتسميته من باب الفنون لا يسوغ عمله، والتصوير ملعون من فعله.

ففيه: التحذير من التصوير ونصب الصور؛ لأن ذلك يؤول إلى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أعظم العَلَّتَيْنِ في النهي عن التصوير ونصب الصور، لاسيما صور المعظمين من الملوك والرؤساء ومن الصالحين والمشايع إذا نُصبت فإن هذا يؤول إلى عبادتها، ولو على المدى البعيد؛ لأن الشيطان حاضر ويستغل الجهل والعواطف.

المسألة الرابعة: في الآية والآثار دليل على تحريم البدع في الدين، وأنها تؤول إلى الشرك، ولذلك قال العلماء: البدعة توصل إلى الشرك ولو على المدى البعيد. وهذه بدعة قوم نوح وصَّلت إلى الشرك، وهذا شيء واضح.

المسألة الخامسة: فيه دليل على أن حسن النية لا يسوغ العمل غير المشروع؛ لأن قوم نوح عندما صَوَّروا الصور كانوا يريدون النشاط على العبادة، وتذكر أحوال هؤلاء الصالحين، ولا قصدوا الشرك أبداً، وإنما قصدوا مقصداً حسناً، لكن لما كان هذا الأمر بدعة صار محرماً؛ لأنه يُفضي إلى الشرك ولو على المدى البعيد، فالنية الحسنة لا تسوغ العمل غير المشروع.

المسألة السادسة -وهي عظيمة جداً-: فيه بيان فضيلة وجود العلم والعلماء في النَّاسِ، ومضرة فقدهم؛ لأن الشيطان ما تجزأ على الدعوة إلى الشرك مع وجود العلم ووجود العلماء، إنما تجزأ لما فُقد العلم ومات العلماء،

فهذا دليل على أن وجود العلم ووجود العلماء فيه خير كثير للأمة، وأن فقدهم فيه شر كثير.

المسألة السابعة: فيه التحذير من مكر الشيطان، وأنه يُظهر الأشياء القبيحة بمظهر الأشياء الطيبة حتى يغرّر بالناس. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه يتدرّج بالناس شيئاً فشيئاً؛ كما تدرّج بقوم نوح من تذكّر العبادة والنشاط والمقصد الحسن، إلى المقصد السيئ والشرك بالله عزَّوجلَّ.

وليس هذا مقصوراً على شيطان الجن، بل وشيطان الإنس كذلك يعمل هذا العمل، فدعاة السوء ودعاة الضلال -أيضاً- يُمكرون بالأمة الإسلامية مثلما يُمكر الشيطان، قال عزَّوجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

المسألة الثامنة: فيه دليل على تحريم الغلو في قبور الصالحين،، فقول ابن القيم: «لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ» فيه: التحذير من الغلو في قبور الصالحين، وذلك بالعكوف عندها، أو البناء عليها، أو غير ذلك من أي مظاهر الغلو، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذّر من البناء على القبور، وحذّر من الصلاة والدعاء عندها؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، وحذّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إسراج القبور، فقال: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرُجَ»^(١)؛ لأن العوام يغترون بهذا، ويقولون:

(١) سبق تخريجه (١/ ٥٥٥).

ما عُمِلَ به هذا العمل إِلَّا لأنه يضر أو ينفع، ولذلك أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «أَنْ لَا تَدَعَ تَمَثَّالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»^(١)، المشرف: هو المرتفع بالبناء، «إِلَّا سَوَّيْتَهُ» يعني: هدمت البناء الذي عليه.

وكذلك نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تخصيص القبور، وطلائها بالجص، أو بالنورة، أو بالبويات، أو الألوان المزخرفة؛ لأن هذا يَغُرُّ العوام، ويظنون أنه ما عمل به هذا العمل إِلَّا لأنه له خاصية، ونهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكتابة على القبور، فلا يُكتب على القبر اسم الميت، ولا تاريخ وفاته، ولا مكانته، فلا يقال: هذا قبر العالم الفلاني الذي عمل كذا وكذا، كل هذا لا يجوز؛ لأن الناس قد يغترون بهذا فيما بعد، ويقولون: ما كُتِبَتْ هذه الكتابة إِلَّا لأن هذا الميت له خاصية.

كل هذه الأمور نهى عنها الشارع؛ لأنها وسائل إلى الشرك، والمشروع في القبور أن تُدْفَنَ بترابها - كما كان على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتُرفَع بالتراب عن الأرض قدر شبر، من أجل أن تُعرف أنها قبور فلا تُداس، ويجعل عليها نصائب من طرفيها لتحديد القبر، لأجل أن لا يوطأ، وما زاد عن ذلك فهو ممنوع. هكذا كانت القبور في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دفن الأموات.

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



.....

المسألة التاسعة: فيه أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، وهذه قاعدة مشهورة؛ لأن عمل قوم نوح فيه مصلحة جزئية وهي: تذكر حالة الصالحين، لكن المفسدة أكبر من هذا، وهي: أن ذلك يؤول إلى الشرك والعياذ بالله.



وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [عن عمر] هو: ابن الخطاب بن نفيل -بنون وفاء مصغر- العدوي، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولي الخلافة عشر سنين ونصفًا، فامتلات الدنيا عدلاً، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقصر، واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

قوله: «لَا تُطْرُونِي»: الإطراء هو الغلو، «كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَّاهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ٧١].

قوله: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»: أمرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يتجاوزوا هذا القول، وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه؛ لأن أشرف مقامات الأنبياء العبودية الخاصة والرسالة.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين، وأفضل هذه الأمة بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يروي عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»، والإطراء:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

معناه الغلو والزيادة في المدح؛ لأن هذا يجر إلى الشرك، فابن مريم أطراه النصراني ومدحوه حتى آل بهم الأمر إلى أن قالوا: إنه ابن الله، وعبدوه من دون الله، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى هذه الأمة عن الغلو في مدحه، فلا بأس أن يُمدح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفاته الكريمة، فقد مدحه حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومدحه الشعراء في وقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن من دون غلو، وليس كما يقول صاحب البردة:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي أَخْذًا بِيَدِي	فَضْلًا وَلَا فَقْلًا يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا	وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

فهذا البوصيري غلا في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى زعم أنه لا يخلص من العذاب إلا الرسول، وأنه إن لم يخلصه فإنه هالك، ونسي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، بل ادعى أن الدنيا والآخرة من جود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست لله عَزَّجَلَّ، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب، ويعلم ما في اللوح المحفوظ الذي كتب بالقلم الذي أمره الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذا من الغلو في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي جرهم إلى الشرك بالله عَزَّجَلَّ، حيث انصرف الناس إلى دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب هذا المدح الزائد عن حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس من شك في أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حق، لكن حق الله أعلى، وما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث يقول (١):

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/٤٣٧).

لِلَّهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الْحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ
فَالْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ دُونَ رَسُولِهِ وَكَذَا الصَّلَاةُ وَذَبْحُ ذَا الْقُرْبَانِ
وَكَذَا السُّجُودُ وَنَذْرُنَا وَيَمِينُنَا وَكَذَا مَتَابُ الْعَبْدِ مِنْ عِصْيَانِ
وَكَذَا التَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالتَّقَى وَكَذَا الرِّجَاءُ وَخَشْيَةُ الرَّحْمَنِ
وَكَذَا الْعِبَادَةُ وَاسْتِعَانَتُنَا بِهِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ذَانَ تَوْحِيدَانِ
وَعَلَيْهِمَا قَامَ الْوُجُودُ بِأَسْرِهِ دُنْيَا وَأُخْرَى حَبْدَا الرُّكْنَانِ
وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّحْمِيلُ هَلِيلُ حَقِّ إِلَهِنَا الدِّيَانِ
لَكِنَّمَا التَّغْزِيرُ وَالتَّوْقِيرُ حَ قٌ لِلرَّسُولِ بِمُقْتَضَى الْقُرْآنِ
وَالْحُبُّ وَالْإِيمَانُ وَالتَّصَدِيقُ لَا يُخْتَصُّ بَلْ حَقَّانِ مُشْتَرِكَانِ

فحقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يصل إلى حق العبودية الذي هو الله سُبحانه وتعالى، كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، فقال معاذ: الله ورسوله أعلم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(١).

هذا حق الله عَزَّوَجَلَّ لا يشاركه فيه أحد، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا أي أحد، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حقوق، منها: المحبة، والطاعة، والاحترام، والتوقير، والصلاة والسلام عليه، ومنها: حق الرسالة، والاتباع، والافتداء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما العبادة بجميع أنواعها فهي من حق الله عَزَّوَجَلَّ، ليس للرسول منها شيء، فمن طلب من الرسول شيئاً مما لا يقدر عليه إلا الله،

فإنه يكون قد غلا فيه وأطراه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك من مدحه بما ليس فيه، وإنما هو من حق الله، فقد غلا فيه وأطراه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ» والعبد ليس له من الربوبية والألوهية شيء، «فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»، ففي هذا رد على الذين يغلون في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه رد - أيضًا - على الذين يجحدون رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينكرونها، ففيه نهي عن الإفراط والتفريط في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَقَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنْغُلُوا»^(١).

قوله: [وَقَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنْغُلُوا»]: هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله بدون ذكر راويه، وقد رواه الإمام أحمد، والترمذي^(٢)، وابن ماجه من حديث ابن عباس، وهذا اللفظ رواية أحمد عن ابن عباس.

قال شيخ الإسلام: «هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال»^(٣).

... — الشَّبَحُ — ...

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه، وقد رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، وغيرهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة لَقَطِ الجمار، لما انصرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مزدلفة إلى منى أمر الفضل بن عباس أن يلقط له حصي لرمي جمره العقبة، فلقط له سبع حصيات مثل حصي الخذف، وهو الذي يُخذف بالأصابع^(٤)، وقد وصفه الفقهاء بأنه فوق الحمص ودون البندق^(٥).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠، ٥/ ٢٩٨)، والنسائي (٣٠٥٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ليس عند الترمذي، انظر: تحفة الأشراف (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٠٦).

(٤) الخذف: الرمي بِحَصَاةٍ أَوْ نَوَاجِدٍ بِأَطْرَافِ الأصابع، أَوْ بِجَعْلٍ مَخْدَفَةٍ مِنْ خَشَبٍ يُرمى بِهَا يَنْ الإبهام والسَّبَّابَةَ. يُقال: خَذَفَ بالشَّيْءِ يَخْذِفُ خَذْفًا إِذَا رَمَى، وَخَصَّ بعضهم به الحصى. انظر: مادة (خذف) في «العين» للخليل (٤/ ٢٤٥)، ولسان العرب (٩/ ٦١).

(٥) انظر: المغني (٣/ ٢١٧)، والمبدع (٣/ ٢٣٨)، والإنصاف للمرداوي (٤/ ٣٢).

فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحصيات، وجعل ينفذها في كفه، ويقول: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارْزُمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوءَ»، هذا تحذير «إِيَّاكُمْ» بمعنى: احذروا، و«الغلو» منصوب على التحذير، ثم علل هذا النهي بقوله: «فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» يعني: من الأمم «الْغُلُوءَ» وهو: الزيادة في العبادات، فلا يأتي واحد ويقول: هذه حصى صغار لا تفعل شيئاً، ويأخذ حصى كبار يضرب بها الشيطان بزعمه، هذا غلو، إنما يرمي بمثل ما رمى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارْزُمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوءَ».

فهذا النهي في حصى الجمار وفي غيرها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا يدل على أن الواجب علينا التقيد بالعبادة كما جاءت في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس لنا أن نتدخل في تحديد العبادة ومواقيتها وصفاتها، وهيئاتها، وإنما يتبع في هذا ما دلّ عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب الغلو في العبادات؛ كما ذكر عن بني إسرائيل، وكما ذكر عن قوم نوح لما غلوا في الصالحين، ومثل النصارى لما غلوا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، حيث أخرجهم الغلو من الدين إلى الكفر - والعياذ بالله - فهلكوا، وهم يريدون النجاة، لكن لما كانت طريقتهم غير مشروعة لم تحصل لهم النجاة، وإنما حصل لهم الهلاك.

فكل أحد يريد النجاة من غير أن يسلك طريقها فإنه هالك، لا نجاة إلا باتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومهما كَلَّفَ الإنسان نفسه وكان مخالفاً لمنهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه غَالٍ وهالك، وهو مشابه لمن كان قبلنا من الغلاة.

ففي هذا: التحذير من الغلو في العبادات، والغلو في الأشخاص، والغلو في كل شيء، والمثل يقول: (كل شيء جاوز حدّه انقلب إلى ضده)، كل غلو فهو طريق هلاك، وإنما طريق النجاة هو الاعتدال والاستقامة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢]، وما هلكت الخوارج والمعتزلة وعلماء الكلام إلا بسبب غلوهم.

فالخوارج عندهم عبادة عظيمة، حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم إلى صلاتهم، وعندهم قراءة للقرآن كثيرة، لكنهم لم يقتصروا على المشروع، بل زادوا -والعياذ بالله- حتى هلكوا، وكل من فعل هذا فإنه يهلك، والتجربة موجودة، وما وصل أحد من المتنطعين والغلاة إلى النتيجة المطلوبة أبداً، وإنما يكون سبيلهم الهلاك في الدنيا والآخرة.

فهذا مما يُحذَّر منه في هذا الزمان؛ لأن ظاهرة الغلو والتَّنطع كثرت إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بسبب فشو الجهل في الناس، وتزيين الباطل من شياطين الإنس والجن.

فالواجب علينا أن نحذر من هذا، وأن نلزم طريق الاستقامة في كل

شيء.

والمعتزلة غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات.



والمثلة غلوا في الإثبات حتى شبهوا الله بخلقه، تعالى الله عما يقولون.
أما أهل السنة والجماعة فقد توسطوا، فأثبتوا لله الأسماء والصفات كما
جاءت، تنزيهاً بلا تعطيل، وإثباتاً بلا تمثيل.



وَلِإِسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا»^(١).

قوله: [وَلِإِسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». قَالَهَا ثَلَاثًا]: قال الخطابي: «المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف في البحث عنه، على مذهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيه، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم»^(٢).

وقال أبو السعادات: «هم المتعمقون الغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم»^(٣).

وقال النووي: «فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدد، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة القوم ونحوهم»^(٤).

قوله: (قَالَهَا ثَلَاثًا) أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغّ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ووجه مناسبة هذا الحديث للترجمة: أن الغلو من التنطع والزيادة؛ لما فيه من الخروج إلى ما يوصل إلى الشرك بالله.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) انظر: معالم السنن (١٣/٧).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٧٣/٥).

(٤) انظر: رياض الصالحين (ص ٣٩٣).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (وَلَسْلِمٍ) يعني: روى الإمام مسلم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي صَحِيحِهِ، (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ): عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، الصحابي الجليل، والعالم الكبير، الذي يُعد من أكابر علماء الصحابة، وإليه المرجع في الفتوى، ورواية الحديث، وغير ذلك، فهو من أكابر الصحابة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان -أيضاً- من أشد الناس تحذيراً من البدع والغلو، ومواقفه من المبتدعة مشهورة، وكلماته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ مَأثُورَةٌ.

❁ قوله: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، التنطع في اللغة: التقعر في الكلام إظهاراً للفصاحة، والمراد هنا: التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة.

والتنطع في الكلام معناه: أن يتكلم الإنسان بكلمات غريبة من اللغة لا يفهمها الناس، فيأتي بأسلوب وألفاظ من وحشي اللغة لا يعرفها الناس. وكذلك من التنطع في الكلام: أن يخاطب الحاضرين بأشياء لا يفهمونها، والناس بحاجة إلى أن يبين لهم عقيدتهم وعبادتهم وطهارتهم ومعاملاتهم، فإذا بهذا المتنطع يتكلم في أشياء بعيدة عنهم، وعن مجتمعهم؛ كأن يتكلم في أمور السياسة، وأمور الدول، ووسائل الإعلام، وهي أشياء لا يعرفها العوام، ولا يستفيدون منها شيئاً، فيخرجون من عنده بجهلهم، لا يعرفون أمور دينهم، بل منهم من لا يعرف كيف يصلي، ومنهم من لا يعرف كيف

يتوضأ، ومنهم من لا يعرف كيف يغتسل من الجنابة، فيخرجون بجهلهم، ولم ينتفعوا بهذا الكلام البعيد الغريب عن أسماعهم.

وغرض المتكلم أن يبين للناس أنه فاهم، وأنه مثقف ولو على حساب الحاضرين، ولو ما فهموا، ولو ما عرفوا شيئاً. والمطلوب من الخطيب والمحاضر والمتكلم والمدرس: أن يتكلم في حدود ما يفهمه الحاضرون، وما هم بحاجة إليه في أمور دينهم، وفي أمور معاملاتهم وأخلاقهم، وأن يكون قصده نفع الحاضرين وتعليمهم، ولا يكون قصده إظهار شخصيته وفصاحته، فهذا هالك؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ».

فلنحذر من هذا حينما نتكلم في درس، أو نخطب في جمعة أو عيد أو استسقاء، أو حينما نلقي محاضرة، وليراع المحاضر والخطيب والمدرس حالة الحاضرين، ويأتي من الكلام بما يفهمونه ويستفيدون منه، ويختار الموضوع المناسب، والأسلوب المناسب، واللغة التي يفهمونها. هذا إذا كان يريد الخير للناس، ويريد تعليم الناس.

أما الذي يريد أن يُظهر نفسه على حساب الناس، فهذا هو المتنطع، وهذا لا يفيد شيئاً، ويخرج كما دخل من غير فائدة. فعلينا أن نتنبه لذلك، لئلا نكون من المتنطعين في الكلام.

وفي الأثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(١).

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

أما التنطع في الاستدلال فهو: طريقة أهل الكلام وأهل المنطق، الذين عدلوا عن الاستدلال بالكتاب والسنة إلى الاستدلال بقواعد المنطق ومصطلحات المتكلمين. والمنطق، وقواعد المنطق من أين جاءت؟ جاءت من اليونان، استجلبوها واستعملوها في الإسلام، وتركوا الاستدلال بالكتاب والسنة، وزعموا أن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين، وأن الذي يفيد اليقين هو الأدلة العقلية، فبذلك هلكوا.

والواجب أن يكون الاستدلال بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين، والقياس الصحيح؛ كما هو عليه علماء أهل السنة والجماعة، ولهذا يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنَّعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالَ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ»^(١).

فمن هؤلاء من يترك كلام الله وكلام رسوله، ويأتي بقواعد المنطق، حتى في العقائد، وهم يسمون علم المنطق، وعلم الكلام: علم التوحيد، ولذلك وقعوا في الهلاك، وضلوا وأضلوا، وقد انتهى أمرهم إلى الحيرة، كما شهد بذلك أكابرهم، وبعضهم عند الوفاة، حيث أشهد الحاضرين أنه مات وهو لا يعرف شيئاً، مع أنه أفنى عمره في علم الكلام والجدل والمنطق^(٢).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٩)، وقال الذهبي عقبه: «لعل هذا متواتر عن الإمام»، وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٢).

(٢) نقل مثل ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨ / ٤٧١) عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أنه قال: «قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، =

هذا مآل المتنطعين - والعياذ بالله - وشهاداتهم على أنفسهم موجودة^(١)، مما يدل على صدق قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَاكَ الْمُتَنَطِّعُونَ».

أما التنطع في العبادة: فهو - كما سلف - أن يزيد الإنسان في العبادة على الحد المشروع، وهذه رهبانية النصارى، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذّر من الغلو، وحذّر من رهبانية النصارى، وأمر بالاعتدال والتوسط، وقال: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»^(٢). فالواجب على الإنسان أن يتوسط في العبادة من غير زيادة، ومن غير نقصان.



=وغصت في الذي نهى أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني».

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٤/٢٨): «وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقهم؛ كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره، حتى قال أبو حامد الغزالي: أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام».

(٢) سبق تخريجه (١٥٣/٢).

فِيهِ مَسَائِلُ،

الأُولَى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَيَّنَ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَقْلِيلِهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثَّلَاثَةُ: أَوَّلُ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُمْ.

الرَّابِعَةُ: قَبُولُ الْبِدْعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطْرِ تَرُدُّهَا.

الخَامِسَةُ: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، فَالْأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ، وَالثَّانِي: فِعْلُ أَنْاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا، فَظَنُّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السَّابِعَةُ: جِبَلَةُ الْأَدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثَّمَانِيَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَةَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

التَّاسِعَةُ: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسَنَ قَصْدُ

الْفَاعِلِ.

الْعَاشِرَةُ: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ، وَ مَعْرِفَةُ مَا

يُؤْوَلُ إِلَيْهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنِ اللَّهِ حَالٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ، فَهُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّضْرِيحُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّورَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا

أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ» فَصَلَّوْا تُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مَنْ بَلَغَ الْبَلَاحُ الْمُبِينُ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُتَنَطِّعِينَ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: التَّضْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَّ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ

مَعْرِفَةِ قَدْرِ وَجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

الْعِشْرُونَ: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.



١٩ - بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ

عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!]: فكل ما كان وسيلة إلى الشرك فهو حرام؛ لكونه يوقع في الشرك بالله وعبادة ما سواه، كما في الأحاديث.

... — الشَّيْخُ — ...

لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب السابق بعض الأدلة الواردة في النهي عن الغلو في الصالحين، وأن الغلو كان سبباً في هلاك الأمم السابقة؛ كقوم نوح وغيرهم، ذكر في هذا الباب أن من الغلو في الصالحين: الدعاء عند قبورهم، والصلاة عند قبورهم، والذبح عند قبورهم، وإن كان الذي يفعل ذلك لا يقصد الأموات، وإنما يقصد بذلك وجه الله عَزَّجَلَّ، لكن فعله في هذا الموضع منهي عنه؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، فيكون النهي من باب سد الذرائع؛ لأن الدعاء أو الصلاة أو الذبح عند قبور الأولياء والصالحين يؤول إلى أن تُصرف العبادة لهؤلاء الصالحين.

وقد سبق في كلام ابن القيم أن الشيطان تدرج مع قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في مراحل حتى أدى بهم إلى الشرك:

أولاً: أغراهم بالعكوف عند قبور الصالحين.

ثانياً: أغراهم بتصوير صورهم ونصبها في مجالسهم.

ثالثاً: أغراهم بعد ذلك بعبادتهم من دون الله.

فالعكوف عند القبور منهي عنه؛ لأنه يؤول إلى الشرك، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»^(١) يعني: عيدًا مكانيًا بأن يجتمعوا عند القبر.

فإذا كان العكوف عند القبور منهي عنه، لأنه وسيلة من وسائل الشرك، فمن باب أولى ينهى عن عبادة الله عند القبور، فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ) يعني: من النهي في الكتاب والسنة (مَنْ التَّغْلِيظِ) يعني: شدة النهي (فِي مَنْ عَبْدَ اللَّهِ) لم يقل: عبد القبر؛ لأن عبادة القبر معروف أنها شرك، لكن من أخلص لله العبادة لكن عند القبر، فهذا أمر لا يجوز؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، (فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ) أي: كيف إذا عبد الرجل الصالح أو الميت؟! لا شك أن الأمر أشد، وهذا سيأتي - إن شاء الله - في الباب الذي بعد هذا.



(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد في المسند (٣٦٧/٢)، والطبراني في الأوسط (٨١/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩١/٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال النووي في رياض الصالحين (ص ٣١٦): «رواه أبو داود بإسناد صحيح».

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»^(١).

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَائِيلِ^(٢).

قوله: [فِي الصَّحِيحِ] أي: الصحيحين.

قوله: (أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ) هي: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة، توفيت سنة اثنتين وستين.

قوله: (ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً): وفي الصحيحين: أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

و(الكنيسة) بفتح الكاف وكسر النون: متعبد النصرارى.

قوله: (رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ)؛ لأنَّ أُمَّ سَلَمَةَ هاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة فهاجرا منها إلى المدينة، والحبشة دينهم النصرانية، وفيهم من أسلم.

قوله: (فَقَالَ: أُولَئِكَ) - بكسر الكاف - : خطاب للمرأة.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) انظر: إغاثة اللفهان (١/٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧، ١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

قوله: «إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ»: هذا - والله أعلم - شك من الراوي.

قوله: «أَوَّلَتْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»، ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير؛ لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته، فبذلك صاروا أشرار الخلق، فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه، مما هو أعظم من هذا؛ كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها، ومع ذلك يعتقدونه ديناً، وهو الشرك الذي حرمه الله، وأرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهى عنه.

قوله: (فَهُؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ)^(١): هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، لم يذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن ذلك معلوم عند من يقرأ هذا الكتاب.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (فِي الصَّحِيحِ) يعني: في الصحيحين - البخاري ومسلم - (عَنْ عَائِشَةَ): أم المؤمنين، بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ): هند بنت أبي أمية المخزومية، القرشية، زوج أبي سلمة، هاجرت هي وزوجها إلى الحبشة الهجرة الأولى؛ لأن المشركين ضايقوا المسلمين في مكة مضايقة شديدة، ومنعواهم من عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ - كما هي عادة أهل الشرك وأهل

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١٨٤).

الكفر دائماً يضايقون أهل التوحيد وأهل العقيدة الصحيحة - فأذن لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إلى الحبشة.

والحبشة إقليم معروف في إفريقية يُطلق عليه الآن: أثيوبيا وأريتريا والصومال، كان فيها ملك نصراني اسمه النجاشي، والنجاشي لقب لمن ملك الحبشة، وكان عادلاً لا يُظلم أحد عنده.

وكان أهل الحبشة آنذاك على دين النصرانية، وكانت عاداتهم أنهم يبنون الكنائس، والكنيسة: معبد النصراني الذي يجتمعون في يوم الأحد لعبادتهم، بخلاف الصومعة التي هي معبد خاص لفرد من النصراني يخلو فيه، وينقطع للعبادة، فالصومعة للأفراد، أما الكنيسة فهي للجميع.

فذكرت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رآته بأرض الحبشة من هذه الكنائس، وما فيها من الصور، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ»، هذا شك من الراوي لم يجزم باللفظ الذي قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هل قال: الرجل الصالح، أو العبد الصالح؟ والمعنى واحد لا يتغير، لكن هذا من التحفظ في الرواية، ومن تحري الصحابة -رضوان الله عليهم- في الرواية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا ينسبون إليه إلا ما تأكدوا أنه قاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما شكوا فيه فإنهم يأتون بالاحتمال، بينما كثير من الناس اليوم لا يبالون، ويقولون: قال الرسول كذا، وقال الرسول كذا، ولو كان الحديث موضوعاً، ولو كان شديد الضعف، فلا يتحرزون من نسبته إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: «بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا» أي: مصلى يصلون فيه، تعظيمًا للقبر، فبناء المساجد على القبور من عادة النصارى، «وَصَوِّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ» أي: صور الصالحين، ينصبونها في هذا المكان، من باب الغلو فيهم وتخليد شخصياتهم، واتخاذ التماثيل تخليدًا للشخصيات من هذا الباب: باب تعظيم الصالحين، أو تعظيم العظماء ولو كانوا من غير الصالحين؛ كالرؤساء والسلاطين والملوك، وهذا لا يجوز في الإسلام، لأنه وسيلة إلى الشرك، ولا سيما في مواطن العبادة - كالمساجد وغيرها - فهذا الأمر أشد.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» أي: الذين يبنون المساجد على القبور، فدلّ على أن من بنى مسجدًا على قبر، أو صوّر الصور ونصبها على القبور؛ أنه من شرار الخلق. و«شِرَارُ»: جمع شر، وهو أفعل تفضيل، والمراد به: أشد الناس شرًا، ذلك لأن الذين يبنون المساجد على القبور يفتحون للناس باب الشرك بهذا الفعل، ويتسبّبون في انحراف الأمة، وما حدث الشرك في هذه الأمة إلا بسبب البناء على القبور.

وأول من بنى على القبور في الإسلام - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - هم: الشيعة الفاطميون، ثم قلدتهم من قلدتهم من المنتسبين إلى السنة من الصوفية وغيرهم، فبنيت المساجد على القبور في الأمصار.

ولا تزال الأمة الإسلامية تعاني من شر هذه القبور وفتنتها، وحدث الشرك في الأمة، الذي لا يقره من يؤمن بالله ورسوله؛ لأنه شرك صريح، وأصبحت هذه المساجد المبنية على القبور أوثانًا تُعبد من دون الله، ويظن

أصحابها أن ذلك من الإسلام، وأن من أنكره فهو خارج عن الإسلام، كالذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فهم شرار الخلق، وإن كانوا يزعمون أنهم على صلاح، وأنهم خير الخلق.

ثم ذكر الشيخ عبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد الحديث، وهي قوله: (فَهَؤُلَاءِ) يعني: اليهود والنصارى، (جَمَعُوا بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ) فتنة القبور: هي الغلو في القبور وتعظيمها حتى تُتخذ متعبدات، وهي فتنة عظيمة في الأمم السابقة وفي هذه الأمة.

وفتنة التماثيل: فتنة قديمة؛ كما في قصة قوم نوح، فقوم نوح إنما وقع الشرك فيهم بسبب نصب التماثيل، ووقع الشرك في اليهود بسبب تماثيل العجل الذي صنعه لهم السامري، ووقع الشرك في النصارى بسبب نصب الصليب على صورة المسيح بزعمهم، ويُحشى أن يقع الشرك في هذه الأمة بسبب نصب التماثيل للعلماء والعباد الصالحين، فهذه فتنة عظيمة، حذر منها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والتماثيل اسم للصور، سواء كانت مجسمة أو غير مجسمة، تسمى تماثيل ولو كانت رسماً على الأوراق أو على الخرق، وإن كان يأتي اسم التماثيل على المجسمات، ولكن قد يُطلق أيضاً على الصور غير المجسمة مسمى تماثيل.

فالتماثيل والصور فيها فتنة عظيمة، ولذلك شدد الشارع النكير على المصورين والوعيد عليهم؛ لأن التصوير جريمة خطيرة، وإن كان المفتونون

الآن يسمونه بالفن والفنون، فهو خطير جداً، والذي يشتغل فيه مفتون -نسأل الله العافية- ومتوعد بأشد الوعيد.

❦ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» دل على تغليظ
يطابق قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ فَيَمْنُ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ
رَجُلٍ صَالِحٍ...)، هذا من أشد التغليظ؛ لأن النصارى كان قصدهم بذلك
العبادة عند هذا القبر، ولذلك بنوا عليه.



وَلَهُمَا عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرَحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا لَوْلَا ذَلِكَ أَتَبَّرَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» أَخْرَجَاهُ^(١).

(الخميسة): كساء له أعلام.

والشاهد للترجمة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، فلعنهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تحري الصلاة عندها، وإن كان المصلي إنما يصلي لله، فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون؛ لأنه ذريعة إلى عبادتها، فكيف إذا عبد أهل القبور والغائبين بأنواع العبادة، وسألهم ما لا قدرة لهم عليه؟!

وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها، واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارى، بل تعم من فعل فعلهم وما هو أعظم منه، هذا هو الذي أَرَادَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لعنة اليهود والنصارى على هذا الفعل، تحذيرًا لأُمَّتِهِ أَنْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلَتْهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فيقع بهم من اللعنة ما وقع بهم.

قوله: (لَوْلَا ذَلِكَ) أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجدًا لأَبْرَزَ قَبْرُهُ مع قبور أصحابه بالبقيع.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٣١).

قوله: (عَيَّرَ أَنَّهُ خَشِيَّ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا) روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلوا وتعظيمًا؛ لما أبدى وأعاد من النهي والتحذير ولعن فاعله.

قال القرطبي: (ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدة بقبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشمالين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره) (١) اهـ.

قلت: فبذلك صان الله قبره، وقَبِلَ دعوته بقوله: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (٢).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قوله: (وَلَهُمَا) أي: البخاري ومسلم، وهذا يغني عن قوله بعد نهاية الحديث: (أَخْرَجَاهُ).

(١) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٢/ ١٢٨).

(٢) سبق تحريجه (١/ ٢٨٩).

❁ قال: (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ) يعني: نزل به الموت؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقد كان رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرها وهو في الموت، قالت: (طَفِقَ يَطْرُحُ) طَفِقَ: هذا من أفعال الشروع عند النحويين، أي: جعل يفعل كذا.

❁ (يَطْرُحُ حَمِيصَةً) أي: يضعها، والخميص: كساء معروف له أعلام وخطوط، (عَلَى وَجْهِهِ) يغطي وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها وهو يحتضر (فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا) يعني: ضاقت نفسه بسبب الغطاء (كَشَفَهَا) لكي يتنفس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

❁ قالت: (فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ) يعني: وهو يحتضر، لم ينس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبليغ الأمة، ولم ينس أن ينهى الأمة عن الشرك وهو في هذه الحالة، وهذا من كمال نصحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحرصه على التبليغ، حيث لم يشغله ما هو فيه من كرب السياق ومن سكرات الموت عن أداء رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاسيما وأن أجله قد حضر فيخشى أن يعملوا به كما عمل أهل الكتاب بأنبيائهم.

فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر من الشرك وهو في هذه الحالة، فهذا دليل على أن التحذير من الشرك أمر متعين، وأنه يجب على الدعاة أن يهتموا بهذا الأمر اهتمامًا بالغًا قبل غيره، قبل أن يحثوا الناس على الصلاة والصيام، وترك الربا، وترك الزنا، وترك شرب الخمر، قبل ذلك ينهوهم عن الشرك، لاسيما إذا كان واقعًا في الأمة، فالسكوت عنه من الغش للأمة، فلا بد أن يُبدَأَ به، وأن يُعمل على إزالته قبل كل شيء؛ لأنه إذا صلحت العقيدة صلحت بقية الأعمال.

أما إذا فسدت العقيدة فلا فائدة في الأعمال كلها، ولو ترك الربا، وتصدق بهاله، وصلى الليل والنهار، وصام الدهر، وحج، واعتمر، وعنده شيء من الشرك الأكبر، فإن أعماله تكون هباءً منثورًا، لا فائدة منها، أما إذا كان موحدًا خاليًا من الشرك، فلو وقع في الكبائر، ولو وقع في الزنا، ووقع في الربا، ووقع في المحرمات التي دون الشرك، فإنه يُرجى له المغفرة، وإن عذب بذنوبه فإنه لا يخلد في النار وهو مؤمن موحد، حكمه حكم المؤمنين، ولا بد له من دخول الجنة بتوحيده وإيمانه، وإن كان ضعيفًا. فكيف إذا نهتم بجوانب فرعية، أو جوانب جزئية، ونترك هذا الأمر الخطير يعجّ في جسد الأمة الإسلامية، ولا نحذّر منه، ولا ندعو إلى تركه، ولا نسعى في إزالته عن الأمة؟؟ بحجة أننا نريد أن نجمع الأمة كما يقولون.

هذا هو صميم الدعوة الذي جاءت الرسل من أولهم إلى آخرهم للتحذير منه، كل رسول يقول لقومه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]؛ لأن العبادة لا تنفع مع وجود الشرك، فهذا أمر عظيم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» هذا دعاء على اليهود والنصارى، واليهود: هم في الأصل أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كانوا الآن قد انحرفوا عن ديانة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنصارى: هم في الأصل أتباع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كانوا بعد ذلك حرفوا وخالفوا دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واللجنة: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا من التغليظ الذي يطابق الترجمة: (بَابُ

مَا جَاءَ مَنْ التَّغْلِيظِ...)، والسبب لهذا اللعن أنهم: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» لَمَّا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ.

وهذا فيه رد على الذين يقولون: لا تلعنوا اليهود والنصارى. وهم بذلك يعارضون القرآن؛ لأن الله عَزَّجَلَّ لعنهم في القرآن بقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وقوله: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]، وهؤلاء يقولون: لا تلعنوا اليهود والنصارى. بل منهم من يقول: إن اليهود والنصارى إخواننا؛ لأنهم أصحاب ديانة سماوية.

الشاهد من هذا الحديث أن سبب لعن اليهود والنصارى: أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، أي: مصليات يصلون عندها، سواء بنوا عليها أو لم يبنوا عليها؛ لأن الصلاة عند القبر تعني: اتخاذه مسجداً، أي: مصلى، وكل مكان صلي فيه يُسمى مسجداً، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»^(١)، أي: صالحة للصلاة، فإذا بُني مسجدٌ على القبر كان الأمر أشد.

❁ قالت: (يُحَذَّرُ مَا صَنَعُوا) أي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما قال هذا في هذه الحالة إلا أنه يحذر أمته ما صنع اليهود والنصارى أن يفعلوا مع قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما فعلت اليهود والنصارى مع قبور أنبيائهم.

❁ قالت: (لَوْلَا ذَلِكَ) أي: لولا أن يفعل عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما فعل عند قبور السابقين (لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ) يعني: لدفن في البقيع مع أصحابه، لكنه دفن في بيته، ما الحكمة من ذلك؟ الجواب: ما قالت عائشة: أنه خشي

أن يُتخذ قبره مسجداً، أي: مصلًى يُصلى عنه، لاسيما العوام والجهال، ففي دفنه في بيته صيانة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث لا يقع النظر على قبره أبداً؛ لأنه محاط بالجدران، وسُدت جميع النوافذ، فلا أحد يرى قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا لو أُبرز قبره ورآه الناس لرأيت العجب العجيب، لكن من رحمة الله أن الله صان قبر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تراه عيون الناس إلا من دخل إلى الحجرة، وهذا أمر ممنوع لا أحد يدخلها، وهذا استجابة لدعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١).

فدل ذلك على تحريم البناء على القبور، والبناء عليها، واتخاذ بقاعها أمكنة للصلاة عليها، والدعاء عندها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَدَعَا بِأَنْ لَا يُجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الْأَوْثَانِ
فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى اغْتَدَّتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانٍ^(٢)
هذا استجابة لدعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ مَسَائِلُ عَظِيمَةٌ:

المسألة الأولى: تحريم البناء على القبور؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لأن القبر إذا بُني عليه بنية، أو جُعل عليه ستائر وزُخرف، فإن العوام

(١) سبق تخريجه (١/ ٢٨٩).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٣٥٢).

والجهال يفتنون به، ويظنون أنه ما عُمِلَ به هذا العمل إلا لأن فيه سرًّا، وأنه محل للعبادة والدعاء وطلب الحاجات - كما هو الواقع - ولهذا كان هدي الإسلام في القبور أن الميت يُدفن في المقبرة العامة مع أموات المسلمين، ويُدفن في تراب قبره الذي حُفر منه، لا يزداد عليه، ويُرفع عن الأرض قدر شبر من التراب من أجل أن يُعرف أنه قبر فلا يُداس، ولا يُبنى عليه شيء.

هكذا كان قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت قبور الصحابة في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو هدي الإسلام في القبور، لا يُبنى عليها بنية، ولا يُكتب عليها، ولا تزخرف، ولا تجصص؛ لأن هذه الأمور إذا فُعلت صارت وسيلة إلى الشرك، وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم القبور المشرفة، فقال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَدْعُ تِمَثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»^(١) يعني: لا تدع قبرًا مرتفعًا إلا هدمت ما عليه من البناء، حتى يصبح كسائر القبور، لا يلفت النظر، ولا يُفتتن به، فالقبور إذا كانت على الهدى الشرعي لا يُفتتن بها، أما إذا بُني على بعضها، وجصص، وزخرف، فإن الناس سينصرفون إليه ولا بد.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم العبادة عند القبر - حتى ولو لم يُننَ عليه بنية - لا بدعاء، ولا بصلاة، ولا بذبح، ولا بنذر، ولا بغير ذلك، وإنما هدي الإسلام أن القبور تُزار من أجل السلام على الأموات، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، واتعاظ الزائر بأحوال الموتى، وأيضًا من هدي الإسلام

في القبور: أن لا تُهان، ولا تُمتَهن، بل يُحافظ عليها، هذا هو هدي الإسلام وسط في كل شيء، فلا إفراط بالغلو فيها، ولا تفريط بالتساهل في شأنها وإهانتها؛ لأن من الناس من يمتَهن القبور، ويبنّي عليها المساكن، أو يجعلها محلاً للقمامات والقاذورات، أو يَدُوسِ الأقدام عليها، أو مرور الحيوانات عليها، أو يقضون حوائجهم ويبولون عليها، وهذا حرام لا يقرّه الإسلام.

المسألة الثالثة: فيه دليل على تحريم نصب الصور من التماثيل؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بهذه الصور ولو على المدى البعيد، كما حصل لقوم نوح.

المسألة الرابعة: فيه دليل على أن النية الصالحة لا تسوغ العمل السيئ، فهؤلاء إنما فعلوا هذا لظنهم أن فيه خيراً، وبه يتذكرون أحوال هؤلاء الصالحين، وأن فيه إكراماً للصالحين - كما يقولون - أو تخليداً لذكراهم، فهذا - وإن كان قصدهم فيه حسناً - غير مشروع؛ لأنه يُفْضِي إلى الشرك في العبادة، والشارع جاء بسدّ الذرائع المفضية إلى الشرك دون نظر إلى نيات أصحابها.

المسألة الخامسة: فيه دليل على جواز لعن الكفار وأصحاب الكبائر على وجه العموم؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن اليهود والنصارى، وهذا لعن على العموم، فلعن الكفار وأصحاب الكبائر على العموم لا بأس به لأجل التنفير في فعلهم، وأما لعن المعيّن ففيه خلاف.

المسألة السادسة: في الحديثين دليل على التحذير من التشبه بالنصارى؛ لأن البناء على القبور والصلاة عندها من هدي النصارى، ونحن منهيون عن هدي النصارى، ففي قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (يُحَذَّرُ مَا صَنَعُوا) دليل على النهي عن التشبه بالنصارى، ولا سيما في أمور العقيدة.

المسألة السابعة: أن الذين يبنون على القبور والذين يذهبون إليها للتعبد عندها هم شرار الخلق، لا أحد شرُّ منهم؛ لأن معصيتهم فوق كل معصية، فالزاني وشارب الخمر والسارق أخف من الذي يبنّي على القبور، ولو كان زاهداً عابداً. فالزاني وشارب الخمر، إذا كان معه أصل التوحيد وأصل العقيدة فهو خير من الذين يبنون على القبور، والذين يذهبون للعبادة عندها، وإن كانوا يكون الليل والنهار، ويصومون، فهم شرار الخلق والعياذ بالله.

المسألة الثامنة: فيه دليل على أن المصورين هم شرار الخلق؛ لأن فعلهم هذا وسيلة إلى الشرك، ولأنه مضاهاة لخلق الله، سواء كانوا يصورون ببناء التماثيل، أو يصورون بالرسم، أو يصورون بالتقاط الصور بالآلة الفوتوغرافية، كل ذلك داخل في الوعيد والنهي الشديد، وأنهم شرار الخلق عند الله. وإخراج التصوير بالآلات عن حكم التصوير المنهي عنه قول بلا دليل، فلا عبرة به.

المسألة التاسعة: في الحديث دليل على وجوب الاهتمام بأمر العقيدة، والدعوة إليها قبل كل شيء من أنواع الفساد، نبذاً بإصلاح العقيدة قبل إصلاح الأمور الأخرى؛ لأن هذا منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

المسألة العاشرة: في الحديث دليل على كمال حرصه ﷺ على أمته، ونصيحته لأمره، وأنه بلغّ البلاغ المبين حتى في آخر لحظة من حياته ﷺ، بل وهو في حالة حرجة، وهي حالة الاحتضار.

المسألة الحادية عشر: فيه دليل على بيان الحكمة من دفنه ﷺ في بيته، وعدم دفنه في المقبرة العامة، وأن ذلك لأجل الحفاظ على عقيدة

المسلمين من الغلو في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يُفعل عند قبره كما فُعل عند قبور الأنبياء والصالحين في بني إسرائيل، هذا هو بيان الحكمة. وهذا فيه بيان الإشكال الذي لا يزال يتردد عند بعض الناس، ويقولون: إن مسجد الرسول مبني على القبر، فهذا دليل على جواز البناء على القبور بزعمهم.

فنقول لهؤلاء: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يدفن في المسجد، وإنما دفن في بيته خارج المسجد، والحكمة في ذلك ما ذكرته أم المؤمنين أنه خشي أن يتخذ مسجداً، فالبيت منفرد عن المسجد، وفي معزل عن المسجد، وإنما أُدخل البيت في المسجد بعد عهد الخلفاء الراشدين، في وقت الوليد بن عبد الملك؛ لما أراد أن يوسع المسجد عمم التوسعة من جهة المشرق، فأدخل حجرة عائشة إلى المسجد وفيها قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك عمل الخليفة دون مشورة أهل العلم، ولكن مع هذا فالبيت لا يزال على شكله وحيازته، والمسجد لا يزال على وضعه والحمد لله، وما يحصل من الناس الجهال إنما يكون في مسجد الرسول وليس عند القبر؛ لأن القبر بعيد عنهم، ومَصُون عنهم، ولا يرونه، ولهذا لما دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه وقال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»^(١). استجاب الله دعاءه، فصانه في بيته.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ: «أَنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَا تَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَأَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»^(١).

قوله: [عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ] أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه.

قال: ولا ريب في القطع بتحريمه - ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أن قال -: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ) يُحْتَمَلُ أَنَّهَا خَمْسُ لَيَالٍ - وهذا هو الأقرب والله أعلم - وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا خَمْسُ سِنِينَ (وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْرَأُ

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٢٩، ٣٣٠).

إِلَى اللَّهِ) البراءة: نفي الشيء والابتعاد عنه، فما الذي يبرأ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث؟

❁ قال: «أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ» ينفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون له خليل من أصحابه، لماذا؟ لأن الله اتخذَه خليلًا، والخلة: هي أعلى درجات المحبة، ولا تقبل المشاركة، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفى بخلة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْ أَصْحَابِهِ خَلِيلًا، وَإِنْ كَانَ يَحِبُّ أَصْحَابَهُ حُبًّا شَدِيدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَكِنْ خَلَّتْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةٌ بِرَبِّهِ عَزَّجَلْ؛ لَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْإِشْتِرَاكَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَلِيلَ اللَّهِ وَخَلِيلَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ.

❁ قال: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»؛ كما في قول الله عَزَّجَلْ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ❁ [النساء: ١٢٥]، هذا ثابت في القرآن، وثبتت خلة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسنة الصحيحة، ولذلك يقال: الخليلان: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

فالخلة هي أعلى درجات المحبة، ولم ينلها من البشر من الله عَزَّجَلْ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَمَا بَقِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصَّالِحِينَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُمْ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَحِبُّ التَّوَابِينَ، وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَيَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيَحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، لَكِنْ لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ خَلْقِهِ خَلِيلًا غَيْرَ الْخَلِيلَيْنِ: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ^(١).

(١) انظر: الجواب الصحيح (٣/ ٣٥٠)، والجواب الكافي (١٣٤).



❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا» يعني: لو جاز لي أن أتخذ خليلاً «لَا تَخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» هذا تنبيه على فضل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه أفضل الصحابة، بل أفضل الأمة على الإطلاق، فقد بلغ من محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أنه لو جاز له أن يتخذ من أصحابه خليلاً لاتخذ أبا بكر.

وفيه إشارة إلى استخلاف أبي بكر من بعده؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا في آخر حياته، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرض موته أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ولما قيل له عن عمر أبي وغضب، وقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ»^(١)، فهذا فيه إشارة إلى خلافته، وفيه -أيضاً- رد على الرافضة الذين يُبغضون أبا بكر الصديق، ويطعنون في خلافته وخلافة إخوانه: عمر وعثمان، ويقولون: إن الخلافة لعلي بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الصحابة اغتصبوها، وظلموا علياً، هكذا يقولون -قبحهم الله- فعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الخليفة الرابع بإجماع المسلمين.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» من اليهود والنصارى «كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ» أي: مصليات -سواء بُني عليها أو لم يبن عليها- يصلون عندها رجاء الإجابة، فهم لا يصلون للقبور، وإنما يصلون لله عَزَّ وَجَلَّ، لكن يوقعون الصلاة عند القبور رجاء الإجابة ظناً منهم أن هذا محل إجابة، وهو ليس كذلك؛ لأن هذا وسيلة من وسائل

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الشرك، فلذلك نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولذلك لا يجوز الدعاء عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عند قبر غيره، فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولا الذبح عند القبور، وإن كان من يفعل ذلك يقصد وجه الله إلا أن المكان ليس مكان عبادة؛ لأن العبادة في هذا المكان تكون وسيلة إلى الشرك، والإسلام جاء بسد الذرائع.

❖ قال: «أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» هذا نهى منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجد، أي: مصليات، ثم أكد ذلك مرة ثانية فقال: «إِنِّي أَنهَأُكُمْ عَنْ ذَلِكَ» فهذا تأكيد من بعد تأكيد لبيان أهمية هذا الأمر، فهذا هو التخليط الذي أشار إليه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة بقوله: (بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ...)، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك مرتين، وجاء بأداة الاستفتاح (أَلَا) من أجل التنبيه، فهي أداة تنبيه تدل على أهمية ما بعدها، وهذا من تغليظ النهي عن هذا العمل.



فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ،
وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبَيَّنْ مَسْجِدًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: «خُشِّي أَنْ
يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ
مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى
مَسْجِدًا؛ كَمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»^(١).

قوله: [فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ
فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبَيَّنْ مَسْجِدًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: «خُشِّي
أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ
مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى
مَسْجِدًا؛ كَمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»]. هذا ذكره شيخنا،
وهو تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

علق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ بِهَذَا الْكَلَامِ
الَّذِي نَقَلَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

❁ قوله: (نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ) أَي: نَهَى عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ
قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ، وَهَذَا فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، (ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ
فَعَلَهُ) وَهُوَ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ كَانَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ وَيَطْرَحُ
الْخَمِصَةَ وَيَكْشِفُهَا، فَنَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ جَنْدَبٍ، وَلَعَنَ

(١) سبق تخريجه (١/ ٤٥٥).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٣٢).

من فعله وهو في سياق الموت، وهذا من باب التغليظ الشديد في هذا الأمر، فكيف يُتساهل في هذا الأمر ويظن قوم أن الصلاة والدعاء والذبح عند القبور أفضل، وأنه مظنة الإجابة وأنه وأنه، مع أنه وسيلة إلى الشرك!! لا شك أن هذا من سفه العقول والضلال المبين.

❁ قوله: (فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا)؛ لأنهم معصومون عن ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا يمكن ذلك أبدًا في حقهم، بل لم تبني المساجد على القبور في القرون الأربعة كلها؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثنى على القرون الأربعة بقوله: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١)، فإذا كانت القرون الأربعة لم يبن فيها على القبور مساجد فمن باب أولى ألا تُبنى في عهد الصحابة الذين هم القرن الأول.

فالْحاصل أن المراد باتخاذ القبور مساجد: تحري الصلاة عندها ظناً أن الصلاة عندها فيها مزية، وأنها يُستجاب الدعاء عندها، وهي بذلك تكون وسيلة من وسائل الشرك، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الصلاة عند القبور، واتخاذها مساجد سداً لذريعة الشرك، لأن الصلاة والدعاء عندها يتطور مع الوقت حتى تُدعى من دون الله، وتُعبَد من دون الله، كما حصل الآن عند الأضرحة حيث صارت تُعبَد من دون الله؛ فيُذبح لها، وينذر لها، ويُستغاث بالموتى، ويُتمرغ على ثُربتها، ويُعكف عندها، ويُطاف حولها كما يُطاف بالكعبة، كل ذلك لأن الباب فُتح لما بُني عليها.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين

❁ ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ) أَي: كُل مَوْضِع يُتَرَدَّدُ عَلَيْهِ وَيُصَلَّى فِيهِ، سَوَاء كَانَ عِنْدَهُ قَبْرٌ أَوْ لَيْسَ عِنْدَهُ قَبْرٌ (فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا) وَإِنْ لَمْ يُبَيَّنْ، وَلَوْ كَانَ صَحْرَاءَ فَهُوَ يُسَمَّى مَسْجِدًا، يَعْنِي: مَكَانُ صَلَاةٍ وَمَكَانُ سَجُودٍ. (بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا) حَتَّى لَوْ لَمْ يُبَيَّنْ عَلَيْهِ (كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا») يَعْنِي: صَالِحَةٌ لِلصَّلَاةِ فِيهَا.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، سَوَاءً قُصِدَ أَوْ لَمْ يُقْصَد، سَوَاءً بُنِيَ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يُبَيَّنْ.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَعْنَى اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ يَشْمَلُ مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: الصلاة عندها وإن لم يُبَيَّنْ مسجد، وهذا هو المعنى المراد من الأحاديث.

والمعنى الثاني: بناء المساجد فيها والقباب، وهذا -أيضًا- منهي عنه؛ لأن هذا يفتن الناس، ويصبح وسيلة من وسائل الشرك.



وَلَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تَذَرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ^(١).

قوله: [وَلَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تَذَرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ].

قلت: وقد وقع هذا في الأمة كثيرًا، كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما لا يخفى على ذوي البصائر، وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور: منها: أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله، وينسون الله.

ومنها: أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله. وجمعوا بين نوعي الشرك: في الإلهية والربوبية، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة، ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله: إن عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع!! فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت، فلقد ذهب عقل هذا وضل، فكفر بما أنزله الله في كتابه؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

(١) أخرجه أحمد (٤٠٥ / ١)، وابن حبان (٦٨٤٧).

فَمَا صَدَّقُوا الْخَبِيرَ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ آهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، بَلْ بِالْغَوَا وَعَانَدُوا فِي رَدِّهِ، وَكَذَّبُوا وَأَلْحَدُوا وَكَابَرُوا الْمَعْقُولَ وَالْمَنْقُولَ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (وَلَا أَحَدَ) أي: الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

❖ قوله: (بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا) يعني: مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس من كلام ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ عَنَّهُ.

❖ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ» شر: أفعل تفضيل، بمعنى أشر، أي: من أشد الناس شرًّا والعياذ بالله «مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ» هذه الفئة الأولى؛ لأن الساعة لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله الله^(١)، إنما تقوم الساعة على الكفار، أما المؤمنون فإنهم لا يحضرون قيام الساعة والحمد لله، إنما تقبض أرواحهم قبل قيام الساعة، فيبقى شرار الناس يتهارجون كتهارج الحمير^(٢)، ثم تقوم عليهم الساعة والعياذ بالله.

❖ قال: «وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» هذه الفئة الثانية من شرار الخلق، في الأمم كلها، في قوم نوح ومن جاء بعدهم إلى هذه الأمة، فهو لاء

(١) كما في حديث أنس رَحِمَهُ اللَّهُ عَنَّهُ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٤٨) أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ، اللَّهُ».

(٢) جاء هذا اللفظ في حديث أشراط الساعة الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤٠)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٦/١٢١٩) من حديث النواس بن سمعان رَحِمَهُ اللَّهُ عَنَّهُ.

الذين يبنون المشاهد الآن على قبور الأولياء بزعمهم: قبر الحسين، وقبر الست نفيسة، وقبر البدوي، وقبر عبد القادر الجيلاني، أو غير ذلك من المساجد التي تُبنى على القبور، وهي بالئات في بلاد المسلمين الآن، فهؤلاء الذين يبنون وهؤلاء الذين يصلون في هذه المساجد هم شرار الخلق بشهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يزعمون أنهم مسلمون، نسأل الله العافية.

يُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: يُستفاد من الحديثين إثبات المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنها صفة من صفاته، وأنه يحب أوليائه ورسله، ويجب عباده المؤمنين، وهذه صفة من صفاته اللائقة بجلاله، كما يُبغض الكافرين والمنافقين، ويكره، ويمقت، ويغضب، ويرضى، ويضحك، كل هذه من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي صفات لائقة به عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون ما جاء في الكتاب والسنة من صفاته الذاتية، ومن صفاته الفعلية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، على ما يليق بجلاله، ومن ذلك: إثبات المحبة، وأنه يحب، وتكرّر ذكر محبته لعباده في آيات كثيرة؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرُصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تثبت أن الله يحب عباده المؤمنين.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على أن الخلّة أعلى درجات المحبة، ولذلك لم تحصل إلّا للخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، أما بقية الأنبياء والصالحين فإن الله يحبهم، لكن لم تصل محبتهم إلى مرتبة الخلّة. وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه؛ فيحب عائشة، ويحب أبا بكر، ويحب عمر، لكنه لم يخالل أحدا منهم؛ لأن الخلّة لا تقبل الاشتراك، فلم تكن إلّا لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى خالصة، فهذا فيه دليل على أن الخلّة أعلى درجات المحبة.

أما قول بعض الصحابة: «خليلي رسول الله» فهذا من قبل الصحابي وليس من قبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المسألة الثالثة: فيه دليل على فضل الخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، حيث نالا هذه المرتبة التي لم ينلها أحد غيرهم.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» فهذا فيه فضيلة أبي بكر، وفيه إشارة إلى استخلافه من بعده.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على تحريم الصلاة عند القبور، وبناء المساجد عليها؛ لأن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» يشمل المعنيين: الصلاة المجردة عن البناء، أو مع البناء على القبر، كله من اتخاذها مساجد، وذلك سدّا لذريعة الشرك. لا كما يقوله من قل فهمه أو أراد التضييل ممن زعم أن العلة هي نجاسة المكان، فهذه علة غير صحيحة؛ لأن المكان ليس فيه نجاسة. أو من قال: المراد لا يصلي فوق القبر.

المسألة السادسة: في الحديث دليل على بطلان الصلاة عند القبور، أو في المساجد المبنية على القبور؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك، والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين، فالذي يصلي عند القبر صلاته غير صحيحة، فعليه أن يعيد الفريضة؛ لأن صلاته عند القبر أو في المسجد المبني على القبر غير صحيحة، لأنها صلاة منهي عنها، والصلاة المنهي عنها غير مشروعة، فهي لا تصح.

المسألة السابعة: في الحديث دليل على أن الذين يتخذون القبور مساجد شرار الخلق، فالذين يفعلون هذا الفعل -سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام- هم شر الخلق، لا أحد شر منهم، والعياذ بالله.

المسألة الثامنة: أن الحديث يدل على أن الساعة لا تقوم على أهل الإيمان، وإنما تقوم على الكفار؛ لأن أهل الإيمان من خير الناس، وليسوا شر الناس، فلا تقوم عليهم الساعة، وإنما يموتون قبل ذلك، تُقبض أرواحهم كما دلت على ذلك الأحاديث الواردة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله يُرسل ريجاً قبل قيام الساعة تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى في الأرض إلا الكفار وشرار الخلق، يتهارجون كما تتهارج الحُمُر، لأنهم ليس عندهم دين، ولا خلق، ولا مروءة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبُدُ اللَّهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَغِلْظُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ، كَيْفَ بَيَّنَّ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنِ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السادسة: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

العاشرة: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشَّرِّ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذِكْرُهُ فِي حُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدُّ عَلَى الطَّاغُوتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا شَرُّ أَهْلِ الْبِدْعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ السَّلَفِ مِنَ الثَّنَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشَّرُّ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مَا يُبْلَى بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.

الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصَّدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ.

الثالثة عشرة: ما أُكْرِمَ به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.



٢٠ - بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ
يُصِيرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

... — الشَّيْخُ — ...

لما ذكر الشيخ رحمه الله في البابين السابقين الغلو في الصالحين، وأن من الغلو في الصالحين الصلاة عند قبورهم والدعاء عند قبورهم، ذكر في هذا الباب أيضًا نوعًا ثالثًا من الغلو، وهو: الغلو في القبور بسبب أن فيها رجالًا صالحًا.

والغلو: سبق لنا معناه، وهو الزيادة عن الحق المشروع في الشخص أو في القبر، والمشروع في القبور الوسط، لا الغلو فيها ولا التساهل في شأنها فالقبور تصان عن الأذى، وعن التخطي، وتحترم، وتسور؛ لئلا تهان أو تدهس، هذا من السنة في القبور أنها لا تهان، ولا تُدهس، ولا يُجلس عليها، ولا تتخذ طرقات، وفي مقابل امتهان القبور الغلو فيها والزيادة في تعظيمها، وذلك يؤول إلى عبادتها من دون الله؛ لأن الغلو فيها يوصل إلى الشرك.

❦ فقوله: (باب ما جاء) أي: من الوعيد (أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها) أي: يجعلها في المستقبل وعلى امتداد الزمان (أوثانًا تُعبد) الأوثان: جمع وثن، والوثن: ما عُبد من دون الله؛ من قبر، أو شجر، أو حجر، أو بقاع،

أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَمَّا الصَّنَمُ فَهُوَ: مَا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهُوَ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانَ، هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَثْنِ وَالصَّنَمِ.

وَقَدْ يُرَادُ بِالصَّنَمِ الْوَثْنُ، وَالْعَكْسُ، فَإِذَا ذُكِرَ الصَّنَمُ فَقَطْ دَخَلَ فِيهِ الْوَثْنُ، وَإِذَا ذُكِرَ الْوَثْنُ فَقَطْ دَخَلَ فِيهِ الصَّنَمُ، فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مُطْلَقٌ، يَجْمَعُهَا أَنَّهَا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.



وَرَوَى مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١).

قوله: [روى مالك في الموطأ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»].

وذلك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف أن يقع من أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله، وسبب ذلك الغلو فيهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وكذلك رغب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، وقد عُبِدَت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى، وتقدم في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (لَوْ لَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً).

وقد استجاب الله دعوة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصان قبره، وأحاطه بثلاثة جدران كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُرَدَانِ

(١) أخرجه مالك (٨٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، والبخاري (١٢/ ٢١٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ١٦٣).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا الحديث رواه الإمام مالك مرسلاً في الموطأ، وهو من مراسيل مالك، ورواه الإمام أحمد وغيره موصولاً مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وموطأ الإمام مالك هو من أول ما أُلِفَ في الحديث والفقه، فهو يجمع بين الأحاديث وأقوال الصحابة وفتاويهم، وهو يمتاز بعلو إسناده على ما جاء بعده من الكتب، وهو كتاب عظيم اعتنى به العلماء، وشرحوه شروحاً كثيرة، أهمها وأعظمها: التمهيد لابن عبد البر، فإنه أعظم شرح لكتاب الموطأ.

والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ هو أحد الأئمة الأربعة، وهو في الترتيب الزمني بعد الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، ومذهبه معروف، هو أحد المذاهب الأربعة الباقية التي دُوت وُشِرت وهُذبت، وبقي لها أتباع.

روى مالك في الموطأ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا ربه فقال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» هذا دعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله: «اللَّهُمَّ» أصله: يا الله، ثم حذفت ياء النداء وعوض عنها الميم في آخر لفظ الجلالة (الله).

❁ قال: «لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»: (تجعل): فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الدعائية، (وثنًا) الوثن: سبق لنا معناه أنه كل ما عبد من دون الله، وهو أعم من الصنم، أما الصنم فهو ما عُبد من دون الله على شكل إنسان أو حيوان، وهو ما يسمى بالتمائيل؛ كما كان عليه قوم إبراهيم، كانوا يعبدون التماثيل.

(١) راجع تخريج الحديث في (٢٨٩/١).

﴿قوله: «وَتَنَا يُعْبَد» من دون الله عَزَّجَلْ؛ لأن العبادة حق لله عَزَّجَلْ، لا يشاركه فيها قبر ولا شجر ولا حجر ولا جن ولا إنس ولا ملائكة ولا أنبياء ولا أولياء، ولا أحد من البشر، بل هي حق لله عَزَّجَلْ بجميع أنواعها.

والشرك هو أعظم الذنوب؛ لأنه لا يغفره الله عَزَّجَلْ، بخلاف ما دونه من الذنوب فإنه تحت المشيئة، قال عَزَّجَلْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. والمشرك حرم الله عليه الجنة، فلا طمع له في دخول الجنة، بل هو خالد مخلد في النار.

فهذا الدعاء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاف أن يُعمل مع قبره ما عُمل مع قبور الأنبياء السابقين، أن يُتخذ مسجداً، أو يُجلس عنده، ويعبد من دون الله عَزَّجَلْ؛ كما حصل في الأمم السابقة، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما دعا بهذا الدعاء إلا من أمر متوقع؛ لأن عبادة القبور متوقعة، وقد وقع ما توقعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعُبدت القبور من دون الله إلا قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله صانه ببركة دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صانه من أن يُعمل معه ما عُمل مع قبور الأنبياء أو قبور الصالحين من قبل، فدفن في بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حماية له، وأحاطت به الجدران فلا يراه أحد، ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَدَعَا بِأَنْ لَا يُجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي ضَمَّهُ وَتَنَا مِنَ الْأَوْثَانِ
فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى اغْتَدَّتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصَيَانٍ^(١)

فحمى الله قبر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستجاب دعاءه.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٣٥٢ / ٢).

لكن قد يُقال: إن بعض الجهال عندما يقف عند قبر الرسول يحصل منه شيء من المخالفات.

فنقول: هذا لا يحدث عند القبر، إنما يكون في الخارج، أي: في مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن القبر محاط بجدران فلا يصل إليه أحد، وأيضاً الله عَزَّوَجَلَّ ييسر من يمنع الناس من ظهور الشرك عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما إذا وقع الشرك من أحد خفية فحسابه على الله عَزَّوَجَلَّ، لكنه لا يستطيع إظهاره عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه الله عَزَّوَجَلَّ سخر له من يحمونه ويحرسونه والله الحمد، ويردون الناس عن حصول شيء من هذه الأمور.

ومن حماية الله لقبره نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يُطاف به، ولا يتيسر الطواف به، بل إنما يمر الزائر ويسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسلم على صاحبيه وينصرف، ولا يتمكن من الطواف به ولا الجلوس عنده، هذا كله من إجابة دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والشاهد من الحديث للترجمة أن التعلق بالقبور والغلو فيها أنه يؤول إلى اتخاذها أوثاناً؛ لأن هذا معنى قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» فقد حصل أن اتخذت القبور أوثاناً تعبد إلا قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمشروع: السلام عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير مكوث عند قبره وطول قيام، ولا تكرار زيارة؛ كما كان الصحابة يفعلون ذلك:

فقد كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقف إذا جاء من سفر مقابل قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: السلام عليك يا رسول الله، ثم يتأخر إلى جهة الشرق

قليلاً فيقول: السلام عليك يا أبا بكر، ثم يتأخر قليلاً فيقول: السلام عليك يا أبت، ثم ينصرف^(١).

وهكذا كان عمل المسلمين عند السلام على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى صاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ما كانوا يمكنون، ولا يكررون الزيارة، حتى إن الصحابة في المدينة لم يكن من شأنهم أن يأتوا قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسلموا عليه وعلى صاحبيه كلما دخلوا إلى المسجد؛ لأن هذا يُعتبر من الغلو، إنما كانوا يسلمون على الرسول إذا جاءوا من سفر - كما فعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنهم عرفوا أن هذا من الغلو الذي حذر منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم الناس وأفقه الناس بمقاصد الرسول.

حتى إن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كان يكره أن يقول الإنسان: زرت قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن زيارة قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرد بها دليل خاص، والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها موضوعة أو ضعيفة شديدة الضعف، لم يثبت منها شيء، وإنما تدخل زيارة قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عموم قوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر بالآخرة»^(٢)، أما أنه ورد لفظ خاص بزيارة قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا لم يثبت أبداً، كما نبه على ذلك الحفاظ؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر، وابن عبد الهادي، وغيرهم من الأئمة الحفاظ.

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٨)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (١٩٧٧) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا».

❦ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» هذا تحذير بعد تحذير، حيث سبق أن لعن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود والنصارى بسبب فعلهم هذا، لعنهم وهو في سياق الموت، ولعنهم قبل أن يموت بخمس، ولعنهم هنا في هذا الحديث بقوله: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ» والغضب صفة من صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله يغضب كما أنه يفرح ويضحك ويجب، كما جاءت بذلك النصوص، وكل هذه الصفات تليق بجلاله، فيغضب ليس كغضب المخلوق، ويفرح ليس كفرح المخلوق، ويضحك ويجب كما يليق بجلاله وعظمته، ليس كضحك لا محبة المخلوق.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، يثبتون لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله من الصفات من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فيثبتون أن الله يغضب، وأنه يشتد غضبه، وأنه يمقت، والمقت أشد الغضب.

فدل ذلك على أن من جعل القبر مسجداً فقد اتخذه وثناً يُعبد. ودلّ على أن هذه الأضرحة المبنية على القبور التي يُطاف بها الآن، وينذر لها، ويُذبح لها، ويُستغاث بها أو ثان، لا فرق بينها وبين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وإن سموها مساجد، أو سموها مقامات للصالحين، فالتسمية لا تغير المعنى، فهي أو ثان كما سماها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَلَا بْنَ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ
الَّلْتَ وَالْعُرَى﴾ [النجم: ١٩]، قَالَ: «كَانَ يَلْتُ هُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى
قَبْرِهِ»^(١).

وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوَزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ،
لِلْحَاجِّ»^(٢).

قوله: [وَلَا بْنَ جَرِيرٍ]: هو أبو جعفر ابن جرير صاحب التفسير الكبير،
وهو أجل التفاسير وأحسنها، وهو من أئمة المسلمين المجتهدين، وله كتاب
«الأحكام» رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (كَانَ يَلْتُ هُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ): فيه شاهد
للترجمة؛ فإنهم غلوا فيه لأجل صلاحه، واتخذوه وثناً بتعظيمه وعبادته، وصار
من أكبر أوثان أهل الجاهلية.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (وَلَا بْنَ جَرِيرٍ): هو الإمام الجليل، إمام المفسرين، مُحَمَّدُ بْنُ
جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ، صاحب كتاب التفسير، الذي أصبح مرجعاً للمفسرين
الذين جاءوا من بعده، فأعظم التفاسير هو تفسير ابن جرير، أما تفاسير
أهل الكلام وأهل المنطق فليس مرجعها كتب أهل السنّة، بل مرجعها قواعد
المنطق وعلم الكلام، مثل: تفسير الرازي، وتفسير الزمخشري، هذه التفاسير

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٨ / ٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٩ / ٢٧).

فيها من الخلط، وفيها من الشر الشيء الكثير، وإن كانت فيها فوائد، فتفسير الزمخشري فيه فوائد لغوية، وأسرار بلاغية، وبيان لتفسير الألفاظ من جهة اللغة، فهو جيد من هذه الناحية، ولكنه من ناحية العقيدة ومن ناحية التأويل يشتمل على كثير من الشر، والقول بخلق القرآن، فهو من هذه الناحية تفسير مختلط لا يصلح أن يطالع فيه إلا طالب العلم المتأصل، من أجل أن يأخذ ما فيه من الفوائد، ويترك ما فيه من الأباطيل، أما المبتدئ والجاهل فلا يصلح أن يطالع في تفسير الزمخشري..

وأما تفسير الرازي، فهو أكثر شرًا من تفسير الزمخشري؛ لأنه كله جدل وافتراضات، وأحيانًا يأتي بإشكالات ولا يُجيب عليها. إنما التفاسير الموثوقة هي التفاسير المبنية على كلام الله عَزَّوَجَلَّ، على قواعد التفسير المعروفة:

* تفسير القرآن بالقرآن.

* أو تفسير القرآن بالسنة.

* أو تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

* أو تفسير القرآن بمقتضى اللغة العربية.

هذه وجوه التفسير، أما أن يُدخل فيها علم الكلام وعلم المنطق، فهذا ليس من التفسير.

فأوثق التفاسير هو: تفسير ابن جرير، وكذلك تفسير ابن كثير، وتفسير البغوي، هذه كتب موثوقة، تنهج منهج السلف، وتفسر القرآن بالوجوه المعروفة التي هي وجوه التفسير الصحيحة، وما عداها ففيه خلط.

وكل مفسر له اتجاه، بعضهم يتجه إلى النحو كأبي حيّان، وبعضهم يتجه إلى البلاغة كالزّمخشري، وبعضهم يتجه إلى الأحكام الفقهية كالقرطبي.

وقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الأثر في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ فجاء في تفسير الآية عند ابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد، وجاء أيضًا من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس، يعني ورد تفسير الآية من طريقين.

❁ قوله: (عَنْ سُفْيَانَ) يحتمل أنه: سفيان بن عيينة، ويحتمل أنه: سفيان الثوري، وهذا الذي رجحه الشارح أنه سفيان الثوري، وهو إمام جليل في علم الحديث وعلم الفقه، وله مذهب مستقل، لكنه انقرض.

❁ قوله: (عَنْ مَنْصُورٍ) هو منصور بن المعتمر، (عَنْ مُجَاهِدٍ): هو مجاهد بن جبر، إمام المفسرين، تابعي جليل، أخذ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

❁ قال: (فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾)، قَالَ: «كَانَ يَلْتُ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَّفُوا عَلَى قَبْرِهِ»، هذا تفسير مجاهد بن جبر إمام المفسرين لهذه الآية، وكذلك جاء تفسيرها عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وأبو الجوزاء: هو سفيان بن عبد الله الربيعي، ممن أخذ عن ابن عباس.

فجاء تفسير هذه الآية من طريقين: بأن (اللات) اسم فاعل من لت السويق يلته إذا خلطه بالسمن ليطعمه للناس من باب الإحسان، وفي رواية أبو جوزاء أنه كان يلت السويق للحاج خاصة، وهذا يدل على أنه رجل

صالح يحسن إلى الناس في حياته، ويصنع لهم الطعام إحساناً منه إليهم، فألفوه وأحبوه لصلاحه ولإحسانه وفضله.

❁ قال: (فَمَاتَ، فَعَكَّفُوا عَلَى قَبْرِهِ) عكفوا أي جلسوا عند قبره؛ لأن العكوف معناه المكث في المكان، فكانوا يعكفون عند قبره يعني يجتمعون عند قبره تبركاً به، فكان مآل الغلو في الصالحين وفي قبورهم إلى أن عبدوهم من دون الله، فصار اللات من أعظم أوثان الجاهلية، فعبدوهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فدل ذلك على أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ كما قال الشيخ في الترجمة.



وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ^(١).

قوله: [وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرُجَ»]. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ: وهذا الحديث صحيح، صححه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ويكفيك في الاحتجاج به رواية أهل السنن له، ولم يذكر أحد منهم له علة، ولا معارض له.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواه أصحاب السنن الأربعة: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ولم يعترضوا عليه في شيء، مما يدل على قوة سنده.

❁ قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ) واللعن: سبق أنه الطرد والإبعاد عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكون إلا على الكبيرة من كبائر الذنوب، فمعنى (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ) أي: دعا باللعنة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجاب الدعوة.

❁ قوله: (زَائِرَاتِ الْقُبُورِ) زائرات: جمع زائرة، أي: النساء اللاتي يزرن القبور؛ لأن المرأة ضعيفة فلا يصلح أن تزور القبور، لأنها إذا رأت قبر قريبها يحصل منها ما يحصل من الجزع والنياحة، وأيضاً: المرأة أسرع إلى التأثر بالشرك من الرجل، فإذا زارت قبور الأنبياء والصالحين فإنها بعاطفتها

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٧، ٣٥٦)، والترمذي (١٠٥٦).

وضعفها أقرب إلى الشرك من الرجال، وأيضًا: المرأة عورة، فإذا ذهبت إلى المقابر واختلطت بالرجال حصل من ذلك فواحش وزنى وشر؛ لأنها فتنة، كما هو الواقع الآن عند الأضرحة من اختلاط النساء بالرجال، وما يحصل من المفساد.

ولذلك لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زائرات القبور، فدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها كبيرة من كبائر الذنوب، وهذا هو مذهب جمهور أهل العلم.

وذهب بعض العلماء إلى جواز زيارة النساء للقبور^(١)، أخذًا من عموم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر بالآخرة»^(٢)، قالوا: هذا لفظ عام يدخل فيه الرجال والنساء.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله: «فزوروها» هذا الخطاب للرجال، وخطاب الرجال لا تدخل فيه النساء.

الوجه الثاني: أنه على فرض أن هذا الخطاب عام للرجال والنساء، فإنه مخصوص بهذا الحديث.

واحتجوا أيضًا بأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها عبد الرحمن.

(١) انظر أقوال أهل العلم في حكم زيارة النساء للقبور في التمهيد لابن عبد البر (٣/٢٣١)، ومجموع الفتاوى (٣٤٣/٢٤، ٣٤٤)، وعمدة القاري (٨/٦٩)، وتحفة الأحوذى (١٣٧/٤).

(٢) سبق تخريجه (٢/٢٢٥).

قالوا: فهذا دليل على جواز زيارة النساء للقبور.
والجواب عن ذلك: أن فعل عائشة هذا محمول على أنها لم يبلغها النهي،
ولو بلغها النهي لم تكن لتخالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والجواب الثاني: وعلى فرض أنها بلغها هذا الحديث، فهذا اجتهاد منها،
ولا شك أن الحجة في حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا في اجتهاد المجتهدين.
فبناءً على ذلك فالقول الصحيح الراجح هو: منع النساء من زيارة
القبور، وإن كان بعض الباحثين في هذا العصر أظهر هذه المسألة وكتب فيها،
وأباح للنساء زيارة القبور، فهذا قول مرجوح، ولم يأت بجديد، وإنما أثار هذه
المسألة فقط، ولا يجوز لطالب العلم أن يتتبع المسائل الغريبة، ويذهب يثرها
من جديد، ويبعثها على الناس من جديد، لما يترتب على ذلك من المفاصد.

❦ قوله: (وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) هذا محل الشاهد
من الحديث، أي: لعن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخذين على القبور المساجد، واتخاذ
المساجد على القبور سبق لنا معناه أنه يُقصد به: الصلاة عندها، وإن لم يبين
عليها مسجد، فإذا بُني عليها مسجد فالأمر أشد، وإن كان المصلي لا يقصد
القبر وإنما يصلي لله، لكن صلاته في هذا المكان محرمة، لأن فعله هذا وسيلة
إلى الشرك، ومن فعله استحق اللعنة، وصلاته على هذه الهيئة غير مشروعة.

الحاصل: أن اتخاذ القبور مصليات يُصلى عندها يؤول إلى عبادتها من
دون الله، وهذا معنى قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة: (أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ
الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ).

❁ قوله: (وَالسُّرَجُ) أي: الذين يضيئون المقابر بالسرج، أيًا كانت هذه السرج مع اختلاف الأزمان، فقد تكون سرج من الودك أو الزيت كما هو معروف عند الأولين، وقد تكون توقد بالجاز، أو تكون سرج من كهرباء، وهي المصابيح المعروفة الآن، فلا يجوز إسراج القبور بأي نوع من أنواع الإسراج، سواء كانت قبرا واحداً أو مقابر؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك، لأن الناس إذا رأوا هذه المقبرة مضاءة بالمصابيح أو هذا القبر قد علقت عليه القناديل والمصابيح تعلقت قلوبهم به، وقالوا: ما فعل معه هذا العمل إلا لأنه ينفع ويضر، ويتعلقون به.

فهذا فيه تحريم إضاءة المقابر بأي نوع من الإضاءة، وأن من فعله فهو ملعون، والذي ينبغي أن تبقى المقابر بدون إضاءة حماية لها من الغلو، كما كانت مقابر الصحابة في البقيع وغيره على عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعهد المتتالية إلى وقتنا هذا عملاً بالسنة.

أما إذا احتاج الناس إلى السراج لأجل دفن الميت فلا بأس أن يأتوا معهم بسراج متنقل بقدر الحاجة، ويدفنوا ميتهم إذا كان في الليل، وهذا ليس إسراجاً للمقابر، إنما هذا مؤقت لأجل الدفن فقط، وقد فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما جاء في بعض الروايات أنه لما دفن في الليل أسرج له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١). هذا أمر عارض، أما الإضاءة الثابتة والباقية في المقابر كما على الأضرحة الآن، وكما

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣١٦٤)، والحاكم في المستدرک (٥٢٣/١) وصححه، والطبراني في الكبير (١٧٤٣)، والبيهقي في الكبرى (٣١/٤) من حديث جابر ابن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: رَأَى نَاسٌ نَارًا فِي الْمَقْبَرَةِ، فَأَتَوْهَا فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَبْرِ، وَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «تَاوَلُونِي صَاحِبُكُمْ»... الحديث.

على مقابر النصارى، فهذا أمر حرمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولعن من فعله؛ لأنه يؤول إلى الشرك.

وقد يرد استشكال من البعض فيقول: أغلب الناس يعرفون التوحيد، فما المانع من إضاءة المقابر بالكهرباء، لأجل التيسير على من يزورها بالليل، ولحاجة الناس إلى الإضاءة أثناء دفن موتاهم ليلاً، وليس هناك شيء يخاف منه؛ لأن الناس يعرفون التوحيد، وتجاوزوا مرحلة السذاجة ومرحلة عبادة القبور، ولا يقع منه شرك الآن.

نقول لصاحب هذا القول: أنت قاصر النظر؛ لأنك تنظر إلى الحالة الراهنة ولا تنظر إلى المستقبل، ولا تنظر إلى عواقب الأمور، فهذا يؤول إلى الشرك ولو على المدى البعيد، ومن حكمة الشارع أنه سد الوسائل المفضية إلى الشرك، ومنع إضاءة القبور من سد الوسائل المفضية إلى الشرك.

بل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاف على صحابته - وهم أفضل القرون - من الوقوع في الشرك بسبب ذلك، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخاف إلا من شيء متوقع، وأنت تقول: هذا مستحيل لأن الناس عرفوا التوحيد، وتنظر إلى جيل حاضر لا تنظر إلى جيل مستقبل.

وأيضاً من يضمن أن هؤلاء لا يفتنون حتى ولو كانوا مثقفين ومتعلمين وقد فهموا التوحيد، وإبراهيم خليل الرحمن دعا ربه فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّاكَ وَنَحْنُ عَالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، خاف على نفسه من الشرك، وخاف على بنيهِ؛ لأن الإنسان عرضة للفتنة، فينبغي عليه أن لا يغتر بعلمه أو فهمه.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا بِمَا يَخَافُ وَقُوعَهُ.

الرَّابِعَةُ: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخَامِسَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ.

السَّادِسَةُ: وَهِيَ مِنْ أَهْمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ النَّبِيِّ هِيَ مِنْ أَكْبَرِ

الْأَوْثَانِ.

السَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التَّاسِعَةُ: لَعْنَةُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ.

الْعَاشِرَةُ: لَعْنَةُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ) ذلك أنها تطلق -أيضاً- على القبور، وليس بلازم أن يكون الوثن صنماً؛ لأن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» دل على أن القبر إذا غُلي فيه صار وثناً، وقد يكون الوثن شجرة أو صخرة، وغير ذلك؛ لأن الوثن: هو ما عُبد من دون الله أيًا كان.

والشاهد منه أن القبر إذا عبد صار وثناً وإن كان قبر نبي، وإن كان قبر رجل صالح. أما عبد القبور فيقولون: الأضرحة ما هي بأوثان، إنما الأوثان كانت في الجاهلية.

نقول: الأوثان موجودة في الجاهلية وفي غيرها، فكل ما عبد من دون الله في أي زمان أو في أي مكان فهو وثن، ولذلك تخوف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُتخذ قبره وثناً بعد موته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولولا أن هذا أمر متوقع لما تخوفه، وقد وقع ما تخوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القبور، فهي أوثان وإن سموها أضرحة، أو سموها مقامات، أو سموها محبة للصالحين، أو إبقاء لذكراهم، ولا فرق بينها وبين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

❁ قوله: (الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ) وذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وثنًا يُعبد) ما معنى يعبد؟ يعني: يرجى ويخاف ويعتقد فيه أنه ينفع ويضر، وأنه يمنح البركة، وهذا من معنى العبادة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فليست عبادة القبر أن يُعتقد أنه يخلق ويرزق وينفع ويضر من دون الله، بل إذا اتخذ شافعاً أو واسطة بينه وبين الله فهذا من عبادته من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما كان أهل الجاهلية يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون: هؤلاء شفائنا عند الله.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا بِمَا يَخَافُ وَقُوعَهُ) دل على إمكانية وقوع هذه الأمور، ولذلك خافها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه رد على

الذين يقولون: لا يمكن أن يقع في أمة محمد شرك، ويغالط في هذا وينسى ما يُعمل الآن عند القبور، ويحدد الواقع.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: قَرْنُهُ بِهَذَا اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ)؛ لأنه لما قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» قرن ذلك بقوله: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» دل على أنه لا يُتخذ القبر مسجدًا، لا قبر النبي، ولا قبر الولي، ولا قبر الصالح، كله سواء، وأنه لو اتخذ لصار وثنًا يعبد من دون الله، والنبي بريء من هذا، وعباد الله الصالحين برآء مما يُفعل عند قبورهم؛ لأنهم كانوا ينهون عن ذلك، ويجاهدون عليه، ويقاتلون عليه، فهم بريئون ممن يعبدهم من دون الله بعد موتهم، ولا يرضون بذلك.

❖ قوله: (الخَامِسَةُ: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ) فيه إثبات شدة الغضب من الله وأن الله يغضب ويشتد غضبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يمقت، والمقت أشد الغضب ﴿لَمَقَّتْ لِّلّٰهِ اَكْبَرُ مِنْ مَّقَّتِكُمْ اَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، فهو سبحانه يغضب ويمقت ويأسف ﴿فَلَمَّآءَاسَفُوْنَا﴾ [الزخرف: ٥٥]؛ يعني: أغضبونا، لكنه غضب ومقت وأسف ليس كغضب المخلوق أو مقته أو أسفه؛ لأن صفات الرب ليست كصفات المخلوقين.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: وَهِيَ مِنْ أَهْمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ) فقد كانوا يعكفون عند قبره، وعكوفهم عند قبره عبادة له؛ لأن الاعتكاف نوع من أنواع العبادة؛ كما يعتكف المسلم في المساجد تقريبًا إلى الله هذا عبادة، فإذا عكف الإنسان عند قبر أو عند شجرة أو صنم فهذه عبادة

لذلك المعتكف عنده، قال عزَّجَلَّ: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، يعكفون عندها رجاء نفعها، فلذلك لا يجوز الجلوس عند القبور وتكرار المجيء إليها، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» أي: لا تجعلوه محل اجتماع تجتمعون عنده، ولذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يجتمعون عند قبر الرسول ولا يترددون عليه خشية من أن يحصل الغلو في قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعلم الناس، والرسول أحب إليهم من كل شيء بعد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (السَّابِغَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ) أن اللات قبر رجل صالح، وهو من أكبر الأصنام، فدل على أن العكوف عند القبور من عبادة الأصنام، أو من عبادة الأوثان.

❁ قوله: (الثَّامِتَةُ: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ) اللات اسم صاحب القبر؛ لأنه كان يلت -اسم فاعل من لت يلت- السويق للناس، وهذا دليل على أنه رجل صالح، وأن الغلو في الصالحين وسيلة من وسائل الشرك.

❁ قوله: (التَّاسِعَةُ: لَعْنَةُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ) وهذا يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها كبيرة من كبائر الذنوب، وهذا مذهب المحققين من أهل العلم، عملاً بهذا الحديث وغيره مما ورد في معناه، وذهب طائفة إلى جواز زيارة القبور للنساء مستدلين بأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها

لما توفي وهي غائبة، ويقول أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «نُهِينَا عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا»^(١)، وبعموم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر بالآخرة»^(٢)، وأن النساء يدخلن في هذا العموم.

والجواب على هذه الشبهات:

أولاً: العموم يخص بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللَّهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ».

ثانياً: أما فعل عائشة وقول أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهذا بحسب اجتهداهما، ولا قول لأحد مع قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا كان الرسول يلعن زوارات القبور فكفى بهذا دليلاً على تحريم زيارة النساء للقبور، ولا ننظر إلى قول أم عطية أو فعل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأن هذا اجتهدا منها، ولعلمها لم يبلغها هذا الحديث وأمثاله.

❁ قوله: (الْعَاشِرَةُ: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا)؛ لأنه مظهر من مظاهر الغلو، ووسيلة إلى عبادتها من دون الله، فالقبور لا يبنى عليها، ولا تضاء بالليل بالمصابيح ونحوها، ولا تعلق عليها الستور كما تستر الكعبة، كل هذا من وسائل الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وقد حدث كل هذا الآن في العصور المتأخرة، فهناك من يبنون المساجد على القبور، يسمونها مساجد وهي مشاهد ومقامات، ويعلقون عليها الستور، ويفرشونها بأفخر الفرش، ويضيئونها بالمصابيح، ويوقفون عليها الأوقاف، وينذرون لها النذور، كل هذا من الغلو في القبور، وهذا محادة لله ولرسوله، وبسبب هذا الغلو حدث الشرك في الأمة.

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨).

(٢) سبق تخريجه (٢/٢٢٥).

وأول من بنى على القبور الشيعة الفاطمية لما استولوا على بلاد المغرب
ومصر واستولوا على بعض الجزيرة بنوا المشاهد على القبور، والشيعة معروف
مذهبهم أنهم يحاربون الإسلام، وإن كانوا يتسمون بالإسلام لأجل القضاء
عليه، ثم قلدهم الصوفية وقلدهم الخرافيون وأخذوا هذا عنهم.



٢١ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابِ التَّوْحِيدِ
وَسَدِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشَّرِكِ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشَّرِكِ]: قد تقدم فيما سلف من الأبواب قبل هذا.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب بالنسبة إلى ما قبله كالعموم بعد الخصوص؛ لأنه ذكر في الأبواب السابقة أنواعاً من سده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوسائل المفضية إلى الشرك؛ من الغلو في الصالحين، والدعاء والصلاة عند قبورهم، والغلو في قبورهم، وهذا الباب فيه تعميم لكل ما جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سد الوسائل التي تفضي إلى الشرك.

ولا عجب من كون الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَرَّرَ هذه الأبواب واحداً بعد الآخر؛ لأن هذه المسألة عظيمة، فالشرك إنما حصل في هذه الأمة بسبب الفتنة في القبور والغلو فيها، وبسبب الغلو في الصالحين، والغلو في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منذ أن بُنيت المساجد على القبور، ومنذ أن ظهر التصوف في هذه الأمة، والشرك يكثر ويتعاضم في هذه الأمة، إلا من رحم الله عَزَّ وَجَلَّ، فالأمر خطير جداً، ولذلك كَرَّرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضوع، وأبدى وأعاد؛ لأنه يريد أن يستأصل المرض الذي أصاب الأمة، وذلك بتنبية العلماء على هذا الخطر الشديد ليقوموا بعلاجه، والدعوة إلى التوحيد، ونفي الشرك من هذه

الأمة، وإلا إن سكت العلماء عن هذا الأمر فإنه يتعاضم، وفي النهاية يكثر الجهل، وتعتبر هذه الأمور من الدين، ويُعتبر مَنْ ينهي عنها من الخارجين عن الدين؛ كما هو حاصل الآن، أن من ينكر هذه الأمور، وينبه الناس إلى خطرها، ويدعو إلى التوحيد، يرمونه بأنه متشدد، وأنه خارج عن الأمة؛ لأن الأمة عندهم هم عباد القبور، ومن أنكر عبادة القبور صار خارجاً عن الأمة، وهذا من قلب الحقائق والعياذ بالله.

فالدين الذي جاءت به الرسل هو إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الدين، أما عبادة القبور فهي دين أبي جهل وأبي لهب ودين المشركين، ليست في دين الرسل عليهم الصلاة والسلام، لكن إذا ظهر الجهل، وظهر اتباع الهوى حصل في الأمة ما حصل من جعل هذه الأمور الشريكية من الدين، وجعل التوحيد هو الخروج عن الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ قوله: (مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى) الحماية معناها: منع الشيء أن يصل إليه ما يؤثر عليه، وجعل حمى عليه وسوراً يحميه، والمصطفى: المختار، وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الله اختاره من بني آدم، والرسل كلهم مصطفىون؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] (يصطفي) أي: يختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قوله: (جَنَابَ التَّوْحِيدِ) الجَنَاب هو: الجانب، فالجَنَاب والجَنَاب بمعنى واحد، أي: حمايته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدود التوحيد من أن يدخل عليه الشرك بسبب وسائل الشرك والتساهل فيها، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى

حدود التّوحيد حمايةً بليغة، حيث نهى عن كل سبب أو وسيلة توصل إلى الشرك، ولو كانت هذه الوسيلة في أصلها مشروعة كالصلاة، فإذا فعلت عند القبور صارت وسيلة إلى الشرك، ولو حسنت نية فاعلها، فالنية لا تبرّر ولا تزكي العمل إذا كان يؤدي إلى محذور، والدعاء مشروع، ولكن إذا دعي عند القبر، صار وسيلة إلى الشرك بهذا القبر.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الصلاة عند القبور، ونهى عن الدعاء عند القبور، ونهى عن البناء على القبور، ونهى عن العكوف عند القبور، واتخاذ القبور عيداً، إلى غير ذلك؛ لأن كل ذلك من الوسائل التي تُفضي إلى الشرك، وهي ليست شركاً في نفسها، بل قد تكون مشروعة في الأصل، ولكنها تؤدي إلى الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك منعها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[التوبة: ١٢٨-١٢٩].

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾]: ووجه الدلالة بالآية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعز عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم، وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم: الشرك بالله، قليله وكثيره، ووسائله، وما يقرب منه من كبائر الذنوب، وقد بالغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى، وقد كانت هذه حال أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في قطعهم الخيوط التي رُقِيَ للمريض فيها، ونحو ذلك من تعليق التهام^(١).

... الشَّيْخُ ...

❁ قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: هذه صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) كما في حديث امرأة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه رأى في عنقها خيطاً، فقال: ما هذا؟ قالت: خيط رُقِيَ لي فيه، فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أَنْتُمْ أَلْ عَبْدُ اللَّهِ لِأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّهَامِ، وَالتَّوَلَّةَ شِرْكٌ». سبق تخريجه (٤٢٢/١).

الصفة الأولى: أنه من أنفسنا، أي من جنسنا، وفي قراءة شاذة: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ»؛ يعني: من خياركم. فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن من الجن، ولا من الملائكة، إنما كان بشراً من جنسنا، نعرفه، ونعرف لغته، ونعرف نسبه، ويجلس معنا، وهذا من رحمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنه جعل الرسل من جنس البشر، ليلغوهم ما أنزل الله إليهم، ولم يجعلهم من الملائكة؛ لأن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة، وكذلك لم يجعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العجم؛ لأن العرب لا يعرفون لسان العجم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، بلسان قومه: يعني بلغتهم. وكذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معروفاً قبل البعثة بأمانته وصدقه، حتى إن أهل مكة كانوا يودعون عنده ودائعهم ويسمون به بالأمين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الصفة الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: يعني ما يتعبكم، من العنت وهو التعب، و﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: يعني شديد عليه، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشق عليه ما يشق عليكم؛ لأنه يريد لكم السهولة، ويريد رفع الحرج عنكم، فلا يرضى لأمته بالمشقة والتعب، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أن يفعل الشيء ثم يتركه خشية أن يشق على الأمة، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»^(١)، وقد خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة من ليالي رمضان في جوف الليل، فصلى في المسجد فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، فتشهد، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعَجَّزُوا عَنْهَا»^(١)، والشواهد على خشيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يشق على أمته شواهد كثيرة.

الصفة الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حريص على ما ينفعكم، وحريص على هدايتكم، حتى قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، أي: لعلك مهلك نفسك من شدة الحرص على إيمانهم، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً على هداية الخلق، ولا يريد لهم الضلال ولا الكفر، وكان يعرض نفسه للأخطار من أجل تبليغ رسالته، وإنقاذ أمته من النار.

الصفة الرابعة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين خاصة، يرفق بهم ويشفق عليهم ويحنو عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بالكفار فكان يغلظ عليهم؛ كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأن الكافر إذا أبدى العناد فإنه لا يصلح معه اللين، أما في أول دعوته إذا لم يبد العناد ولم يبد الامتناع فإنه يُدعى بالحكمة ويُدعى باللين لعله يقبل.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩)، ومسلم (٧٦١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فإذا كانت هذه صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهل يليق به أن يترك الشرك ويترك وسائل الشرك التي تفضي إليه ولا يبينها للأمة؟! الجواب: الذي هذه صفاته لا يليق به أن يترك الوسائل المفضية للشرك ولا يسدها، وهذا هو الشاهد من هذه الآية: أنه إذا كان يتصف بهذه الصفات العظيمة فلا يليق به أن يتساهل في أمر الشرك، وأن لا ينهى عنه، ولا ينهى عن الأسباب التي تفضي إليه.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنِ رَوَاتُهُ ثِقَاتٌ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنِ رَوَاتُهُ ثِقَاتٌ].

قال الحافظ محمد بن عبد الهادي^(٢): (هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة).

نهاهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَهْجَرُوا بُيُوتَهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهَا، كَمَا تَهْجُرُ الْقُبُورَ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَيْهَا، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ بِهَا، وَمَا يَفْضِي إِلَى عِبَادَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ، فَنَهَايَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا بُيُوتَهُمْ كَذَلِكَ. قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»: فِيهِ شَاهِدٌ لِلتَّرْجُمَةِ.

قال شيخ الإسلام: (العِيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك)^(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وابن أبي شيبة (٦٠/٢)، والطبراني في الأوسط (٨١/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢/٦).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة، شمس الدين الحنبلي، مولده سنة خمس وسبعمئة، وتوفي سنة أربع وأربعين وسبعمئة، قال ابن كثير: «كان حافظاً علامة ناقدًا، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ ولا الكبار، وبرع في الفنون، وكان جبلاً في العلل والطرق والرجال، حسن الفهم جدًّا، صحيح الذهن». وقال المزي: «ما لقيته إلا واستفدت منه»، وكذا قال الذهبي أيضًا. انظر: الوافي بالوفيات (١١٣/٢)، ومعجم الذهبي (ص ١٤٧)، والمقصد الأرشد (٣٦٠/٢)، وطبقات الحفاظ (ص ٥٢٥).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٨٩).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتیاد، فإذا كان اسماً للمكان فهو الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيا به للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيداً، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر)^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث من الأمثلة التي سد بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطرق المفضية إلى الشرك، ذكر في هذا الحديث عدة أمور:

الأمر الأول: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا»، هذا نهى منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين أن يجعلوا بيوتهم قبوراً، يعني: لا يُذكر الله فيها، ولا يصلى فيها، ولا يُقرأ القرآن فيها، فتكون مثل القبور؛ لأن القبور ممنوع من التعبد عندها: ممنوع من قراءة القرآن عندها، وممنوع من الصلاة عندها، وممنوع من الدعاء عندها، فهذا فيه دليل على أنه لا يُصلى عند القبور، ولا يُدعى عند القبور، ولا يُتعبد لله أي عبادة عند القبور؛ لأن هذا من وسائل الشرك.

وفيه دليل على مشروعية إحياء البيوت بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك بصلاة النوافل فيها؛ كما جاء بذلك الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ

(١) إغائة اللهفان (١/ ١٩٢).

صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ»^(١)، فصلاة الفريضة تؤدي في المساجد، أما النوافل فالأفضل أن تُصلى في البيوت، حتى يكون للبيوت نصيب من صلاة العبد، ويكون فيها ذكر الله وتلاوة القرآن، ففي رواية لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الإمام أحمد، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْرُ مِنْ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(٢).

فيجعل للبيوت نصيب من ذكر الله عَزَّجَلَّ ومن صلاة النوافل، ولا تجعل البيوت مأوى للشياطين؛ تُعمل فيها المعاصي، وترتفع منها الأغاني وأصوات المزامير، ويُنصب فيها الدش الذي يجلب إليها الأخلاق الفاضحة والتفسخ والعري والسفور وفعل الفواحش، فالواجب ألا تكون بيوت المسلمين مثل بيوت الكفار، بل إن بيوت مسلمين ينبغي أن يشع منها النور، ويشع منها الخير.

أما إذا كانت هذه البيوت خالية من ذكر الله، فإن أهلها يعيشون في جهل وغفلة، ويصيرون مثل الموتى، فماذا يكون حالهم إذا جلبوا إليها وسائل الشر من الأفلام الخليعة، وأجهزة الدش التي تستقبل الفضائيات، بما فيها من فساد وخلاعة ومجون وكفر وإلحاد وشرور عظيمة، كلها تدخل في هذا البيت بواسطة هذا الجهاز الشيطاني الذي يُنصبه صاحب البيت، فماذا تكون هذه البيوت؟ لا تكون مقابر فقط، وإنما تكون مأوى للشياطين والعياذ بالله، ويتخرج منها أشرار من الذرية والنساء، يصاحبهم عدم الحياء،

(١) أخرجه البخاري (٧٣١) واللفظ له، ومسلم (٧٨١) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٨٤).

وعدم الغيرة، وحب الشر، والحرص على تنفيذ ما يروونه في هذه المبتوثات من الشرور، وفساد الأخلاق، وفساد الأمور، سيطبقون هذه الأمور التي يرونها ويشاهدونها، وتؤثر على أخلاقهم وعلى عفتهم، ويتكاسلون عن الصلاة، بل يضيعون الصلاة بسببها، ويقولون: هذه هي الحياة، وهذه الحضارة، وهذا هو الرُّقي، ونحن مشغولون بأمور بعيدة عن الحياة!!

سيقولون هذا شئتم أم أبيتم أيها الآباء، وأنتم السبب في هذا، أنتم المسؤولون أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، والله عَزَّجَلَّ قال لكم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فلا وقيتم أنفسكم، ولا وقيتم أهليكم من النار، بل جلبتم النار إلى بيوتكم، فاتقوا الله في أنفسكم وأهليكم، ولا تجعلوا بيوتكم مأوى للشياطين، وعمروها بالصلاة وقراءة القرآن.

فهذا الحديث فيه العناية بالبيوت المسلمة، وأن لا تُهمل، ولا تُجلب إليها وسائل الشر والتدمير الخلقي، بل يُعتنى بها غاية الاعتناء، ويؤمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر.

كما أن في الحديث الحث على عمارة البيوت بذكر الله فيها.

ويؤخذ من مفهوم الحديث النهي عن الصلاة عند القبور؛ لأن الحديث يقرر أن البيت الذي لا تُصلى فيه نافلة، ولا يُقرأ فيه قرآن، ولا يُدعى فيه، صار مثل القبر، فدل بمفهومه على منع الصلاة أو الدعاء عند القبور.

الأمر الثاني: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ وهذا فيه شاهد للباب، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا في حياته؛ لأنه يعلم أنه سيموت، وأنه سيدفن في قبر كغيره من البشر، لكنه خاف على أمته أن يفعلوا عند قبره مثل ما تفعل الأمم عند قبور أنبيائهم من الغلو ووسائل الشرك.

والعيد: اسم لما يعود ويتكرر في اليوم أو في الأسبوع أو في السنة.

والعيد ينقسم إلى قسمين:

* عيد زماني.

* وعيد مكاني.

والعيد الزماني ينقسم إلى قسمين:

عيد زماني مشروع: كعيد الفطر، وعيد الأضحى

وعيد زماني ممنوع: كأعياد الموالد، وأعياد الجاهلية التي كانوا يعملونها في الجاهلية: النيروز، والمهرجان، وعيد الميلاد النصراني، وكل عيد فعله بعض المسلمين أو المنتسبين للإسلام مما لم يشرعه الله؛ كعيد المولد للرسول، أو المولد للشيخ، أو الموالد للعظماء، أو لغير ذلك، كل هذه أعياد جاهلية، وهي أعياد زمانية جاهلية، لا يجوز عملها؛ لأن الله شرع لنا عيدين: عيد الأضحى، وعيد الفطر، وكل عيد من هذين العيدين بعد أداء ركن من أركان الإسلام، فعيد الفطر بعد أداء ركن الصيام، وعيد الأضحى بعد أداء ركن الحج الأعظم وهو الوقوف بعرفة، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ عيد الأضحى شكرًا لله بعد أداء الركن الأعظم من أركان الحج.

والأعياد المكانية تنقسم أيضاً إلى قسمين:

أعياد الشرعية: مثل الاجتماع في المساجد في اليوم واللييلة خمس مرات، والاجتماع في الأسبوع لصلاة الجمعة، وكذلك من الأعياد المكانية: المشاعر المقدسة - المسجد الحرام، ومنى، وعرفة، ومزدلفة - التي يجتمع فيها المسلمون أيام الحج لأداء المناسك.

أعياد محرمة: كالاتحاد عند القبور، سواء قبر الرسول ﷺ أو قبر غيره، والسفر إلى القبور، والتردد على القبور من أجل الدعاء عندها، والصلاة عندها، ولهذا قال ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا» أي: مكاناً للعبادة، تصلون عنده، وتدعون عنده، وتشدون إليه الرحال، وهذا من حمايته ﷺ لجناب التوحيد.

الأمر الثالث: «وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» هذا أمر بالصلاة عليه ﷺ، وقد أمر الله بذلك في محكم كتابه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، أمرنا الله بالصلاة والسلام على رسوله، وذكر سبحانه أنه هو وملائكته يصلّون عليه.

والصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى.

والصلاة من الملائكة: الاستغفار.

والصلاة من الآدميين: الدعاء.

كما ذكر ذلك الإمام البخاري عن أبي العالية^(١).

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ (ص ٨٩٩).

وقوله: «صَلُّوا عَلَيَّ» هذا أمر يفيد الوجوب، فالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشروعة ومتأكدة، وتجب في بعض المواضع، فتجب في الخطبتين للجمعة والعيد، وخطبة الاستسقاء، وتجب الصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التشهد الأخير في الصلاة، وكذلك تجب الصلاة عليه عند ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتستحب في بقية الأحوال، وكلما أكثر الإنسان من الصلاة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثر أجره؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(١).

قوله: «فَإِنْ صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي» فالله عَزَّوَجَلَّ وكل صلاة المصلين على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يبلغ الرسول إياها وهو في قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي أي مكان صليت عليه فإن صلاتك تبلغه، ولو كنت في المشرق أو في المغرب، وهذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنها تبلغه الصلاة عليه في قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقوله: «فَإِنْ صَلَاتُكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» أي: أينما كنتم في بر، أو في بحر، قريبين أو بعيدين، في المشرق أو المغرب.

ففي هذا الحديث دليل على أنه ليس للصلاة عليه عند قبره خاصية، بل إذا قصد الإنسان القبر لأجل الصلاة عليه فهذا منهي عنه، لكن إذا قصد قبره للسلام عليه ويصلي عليه فهذا مشروع، فتسلم وتصلي على الرسول عند قبره إذا قدمت من سفر، أما أن تقصده من أجل أن تجلس أو تقف وتصلي

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عليه دائماً فهذا غير مشروع؛ لأنه مطلوب منك الصلاة والسلام عليه في أي مكان.

والشاهد من هذا الحديث واضح: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عن اتخاذ قبره عيداً، ونَهَى عن جعل البيوت مقابر، فدل على أنه لا تجوز الصلاة عند المقابر، كما دلت عليه الأحاديث في الأبواب السابقة، ودل على أن الصلاة والسلام على الرسول مشروعة، وأنها تبلغه ممن صلى وسلم عليه في أي مكان، ولا خصوصية بالحضور عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَتَنَاهَا، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عَيْنًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لِي يُلْغِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ^(١).

قوله: [وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَتَنَاهَا،...] الحديث. هذا الحديث رواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء في المختارة^(٢).

قال شيخ الإسلام: (فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط). انتهى^(٣).

قوله: [وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ]: أي ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم، قال الزهري: (ما رأيت قرشيًا أفضل منه)^(٤)، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح.

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٤٩/٢)، وابن أبي شيبه (١٥٠/٢)، وأبو يعلى (٣٦١/١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٦١/١)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (ص ٣٥)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٤٩/٢) وقال: «في إسناده لين»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٤): «فيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحًا، وبقية رجاله ثقات».

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٢٤).

(٤) انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٠٠)، ووفيات الأعيان (٣/٢٦٧).

قوله: (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ): بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوذة ونحوهما.

قوله: (فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَهَاهُ): وهذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام: (ما علمت أحدًا رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذ عيда، ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل ليصلي منهى عنه؛ لأن ذلك لم يشرع^(١)).

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)^(٢).

وكان الصحابة والتابعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يأتون إلى مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا وخرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هو السنة، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء، فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»، فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد، وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٦٦).

(٢) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي (٢/ ٤٢٣).

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب لما كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيها وبعد ذلك، إلى أن بُني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه، لا لسلام، ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث، وأنه قد رد عليهم السلام بصوت يُسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر، ويرونه خارجًا من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تُكلمهم، وأن أرواح الموتى تجسدت لهم فرأوها.

والمقصود أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعل من بعدهم من الخلف.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المسمى زين العابدين، وهو من أئمة التابعين، رواه عن أبيه الحسين بن علي، عن جده علي ابن أبي طالب، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإيا له من سند عظيم، فانظر كيف جاء هذا الحديث عن هذه السلسلة المباركة، الذين هم أقرب الناس للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف بلغوه للناس، هذا من أمانتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وحرصهم على الأمة.

❖ قال: (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)،
 الفرجة: الفتحة التي تكون في الجدار، فقد كان قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في
 حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنه دُفِنَ في المكان الذي توفي فيه، ولما كانت عائشة
 على قيد الحياة كان الباب مفتوحًا، كانت تدخل وتخرج من بيتها، فلما ماتت
 «سُدَّ الباب وبُني، حماية لقبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن كانت في الجدار فرجة،
 وكان هذا الرجل الجاهل يأتي إلى هذه الفرجة فيدخل ويدعو عند قبر الرسول
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رآه علي بن الحسين يفعل ذلك نهاه، وقال: ألا أحدثكم
 حديثًا عن أبي عن جدي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي
 عَيْنًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لِيَبْلُغَنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» هذا
 مثل حديث أبي هريرة السابق، لكن هذا فيه واقعة وحادثة حدثت وحصل
 عندها الإنكار، وهو ما زاد على حديث أبي هريرة، فقد أنكر علي بن الحسين
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على هذا الرجل.

❖ ثم نقل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ما علمت
 أحدًا رخص فيه...) يعني: ما علم أحدًا من أهل العلم المعبرين رخص
 في التعبد عند القبور والاجتماع عند القبور، فهذا الكلام من شيخ الإسلام
 معناه حكاية الإجماع من علماء الأمة المعتد بهم على هذا الأمر.

❖ ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن الصحابة -رضوان الله عليهم- لم يكونوا يأتون
 إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسلام عليه رغم إمكانية الوصول إلى قبره، فقال:
 (وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه، لا لسلام،

ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً؛ لأن الشيطان يتسلط على المتأخرين والخرافيين، فيتصور لهم بصورة الميت، ويخرج لهم من قبره ويكلمهم على أنه هو الميت، هذا عند الخرافيين والمتصوفة يدعون أن الميت يخرج في ليل ويكلمهم، وهو في الحقيقة شيطان تصور لهم وكلمهم على لسان الميت؛ لأجل إضلالهم وإغوائهم حتى إنهم يقولون: إن الرفاعي لما سلم على الرسول أخرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده من القبر وصافح الرفاعي^(١)!! هذا من الكذب المفترى على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخرج يده لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء والصحابة، فكيف يخرجها للرفاعي الخرافي؟! هذا من الكذب المغلوط، لكنهم يقصدون من ذلك الكذب الدعاية لمذهبهم الخبيث.

والشيطان ما استطاع أن يفعل مثل هذا في وقت الصحابة، ولا في عهد التابعين، ولا في القرون المفضلة لعلمهم أن هذا باطل، ما صنع الشيطان هذا لأنه لو صنعه لردوا عليه وأبطلوه، فلما جاء المتأخرون تسلط عليهم الشيطان وصدقوه، وظنوا أن الميت يخرج من قبره، ويكلمهم، وما هو إلا شيطان، لكن لجهلهم وبعدهم عن أدلة الكتاب والسنة واعتمادهم على الخرافات والحكايات الباطلة والأحاديث المكذوبة، تسلط عليهم الشيطان، فصدقوه.

(١) انظر: السنن والمبتدعات (ص ١٩١).

حتى إن بعضهم يظن أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي حفل المولد الذي يقيمونه، ولذلك يقومون أثناء احتفالهم ويقولون: جاء الرسول.. جاء الرسول!! وهذا من الكذب والافتراء، فما جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الصحابة ولا إلى الخلفاء الراشدين إذا اجتمعوا للتشاور، فهل يأتي هؤلاء الخرافيين الكذبة أهل الباطل المكشوف؟!!

فهذا حديث عظيم دل على وجوب إنكار المنكر، لاسيما الشرك، أو وسائل الشرك؛ لأن الرجل ما عمل شركاً، وإنما عمل وسيلة من وسائل الشرك، وهي الدعاء عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه أن الذي ينكر الشيء أو يأمر بشيء يذكر الدليل؛ لأن علي بن الحسين لما أنكر على هذا الرجل ذكر الدليل بسنده عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الحديث أيضاً - كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق - دليل على وجوب سد الوسائل المفضية إلى الشرك.



قال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا عبد العزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: رأي الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند قبر النبي ﷺ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء، قلت: لا أريده. قال: ما لي رأيك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال لي: إن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي، لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء^(١).

قلت: وهو أيضًا له قرب النسب وقرب الدار، فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء عنده، فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة، ولو كان مشروعًا لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين، ولما أنكروا على من فعله، وقولهم هو الحجة وهو الذي دلت عليه الأحاديث؛ كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما؛ لعلم السلف بما أَرَادَهُ النبي ﷺ بنهيه عن الغلو، وخوفه مما وقع ممن غلا

(١) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص ٤٠) من مراسيل الحسن بن علي، وأما سنن سعيد بن منصور فأكثره مفقود، وهذا الحديث لم أجده في المطبوع منه.

وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٢٣) وعزاه إلى سنن سعيد بن منصور، وقال: «فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لاسيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟».

في الدين واتبع غير سبيل المؤمنين، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولما حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة، وتعظيمها وعبادتها، صارت تُشدُّ الرحال إليها لقصد دعائها، والاستغاثة بها، وبذل نفيس المال تقرباً إليها، وتعظيم سدناتها. فيا لها من مصيبة ما أعظمها!! نسأل الله السلامة من هذا الشرك، وما يقرب منه أو يوصل إليه.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا حديث الحسن بن علي بن حسين ذكر فيه ما ذكره أبوه علي بن الحسين في الحديث الذي قبله.

❁ قال: (إذا دخلت المسجد فسلم) هذا في كل مسجد، عندما تدخل تقدم رجلك اليمنى وتقول: بسم الله، أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، اللهم صل وسلم على نبينا محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، هذا في كل مسجد، تصلي وتسلم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجد الرسول وغيره من المساجد، ولا يحتاج أن تذهب للقبور.

❁ قال: (إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيْدًا...»)

فأورد الحديث كالذي قبله من حديث أبيه علي بن الحسين، ثم قال: (ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء) يعني: ليس للقرب من قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميزة

على من بعد عنه، كلهم سواء، كلهم تصل صلاتهم وسلامهم إليه، الذي بالأندلس - التي هي أسبانيا اليوم - في أقصى المغرب، والقريب من القبر، لا فرق بينهما، هذا من باب ضرب المثال.

فمن بلغته هذه الأحاديث ولم يلتفت إليها وأصر على ما يعمله الخرافيون عند القبور، فإنه تنطبق عليه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فليختر الإنسان لنفسه النجاة أو الهلاك.

هذا مصير من يشاقق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما قامت عليه الحجة، وتبين له الهدى ببلوغ هذه الأحاديث الصحيحة المسندة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خصوصاً هذه الأحاديث عن أهل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سلسلة ذهبية تتلأأ بالنور، كلها تنهى عن هذا الفعل، وهو متأهل لهذا الوعيد: ﴿تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يختم على قلبه بسبب إعراضه واتباعه الهوى، فلا يقبل الهدى بعد ذلك، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فيخشى على من بلغه الحجة وقام عليه الدليل ولم يمثل أن يصاب في قلبه بالزيغ والضلال، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

والقلوب بيد الله عَزَّجَلَّ، والعبد لا يأمن على نفسه أن يصاب بالفتنة، وهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، خاف على نفسه وعلى بنيه وهو خليل الرحمن، فكيف لا نخاف على أنفسنا أن نصاب بمثل ما أصيب به هؤلاء؟! فالواجب علينا أن نحذر، وأن نخاف من الوقوع في الشرك، وأن نتعلم التوحيد ونتعلم أمور الشرك ووسائله، حتى نتجنبها ونحذر منها، أما الذي يجهل الشيء فإنه لا يعرفه، فكيف يتجنبه وهو لا يعرفه؟ وقد ينطلي عليه أنه شيء حسن، وأنه عبادة وتقرب إلى الله، ومحبة للصالحين، ومحبة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى آخر ما يموهون به ويخدعون به الجاهل، لاسيما إذا رأى كثرة الناس على هذا الشيء، فلا نجاة ولا خلاص للإنسان إلا باتباع الكتاب والسنة، والرجوع إلى الكتاب والسنة بنية صادقة.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّانِيَةُ: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ حَرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرَّابِعَةُ: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

الخَامِسَةُ: نَهْيُهُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

السَّادِسَةُ: حُثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثَّامِنَةُ: تَعْلِيلُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يُبْلَغُهُ وَإِنْ بَعْدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التَّاسِعَةُ: كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْبَرْزَخِ تُعَرِّضُ أَعْمَالَ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْبَابِ عِدَدٌ مِنَ الْفَوَائِدِ، مِنْهَا:

الفائدة الأولى: امتنان الله على هذه الأمة ببعثه هذا الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي نعمة عظيمة، قال عَرَبَجَلٌ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمْ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿[آل عمران: ١٦٤]، هذه أعظم منّة على الخلق؛ لأن الله عزَّجَلَّ ببعثة هذا الرسول أخرج أتباعه من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن النار إلى الجنة.

الفائدة الثانية: في الآية دليل على صفات عظيمة من صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- الأولى: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.
 - الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.
 - الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾.
 - الرابعة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾.
 - الخامسة: ﴿رَحِيمٌ﴾.
- خمس صفات من صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الفائدة الثالثة: في الحديث دليل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سدَّ الطريق المُفضية إلى الشرك، بمقتضى هذه الصفات العظيمة التي ذكرها الله عزَّجَلَّ فيه، ولهذا جاء في الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه»^(١). ويقول أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً، قال: وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من النار إلا وقد بُين لكم»^(١)، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا يمكن أنه يترك الناس ولا يبين لهم أعظم خطر عليهم وهو الشرك.

الفائدة الرابعة: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ على وجوب عناية المسلمين ببيوتهم، وعمارتها بالعبادة، وإبعاد وسائل الشر عنها، وهذه مسألة عظيمة يجب التنبه لها في هذا الزمان أكثر من غيره.

الفائدة الخامسة: يُفهم من مدلول الحديث أن القبور لا تصلح للصلاة عندها، ولا الدعاء، أو أي نوع من أنواع العبادة، وإنما الصلاة تكون في بيوت المسلمين إذا كانت نافلة، وتكون في المساجد إذا كانت فريضة.

الفائدة السادسة: في حديث أبي هريرة النهي عن التردد على قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقيام أو الجلوس عنده، أو الدعاء أو الصلاة عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا من اتخاذ عيдаً، ووسيلة إلى الشرك، ومن الطرق الموصلة إلى الشرك، ولهذا لم يكن الصحابة -رضوان الله عليهم- كلما دخلوا المسجد يذهبون إلى قبر الرسول ليسلموا عليه أو يصلوا عليه، أبداً، إنما يفعلون هذا إذا جاؤوا من سفر فقط؛ لأن كثرة التردد عليه يصيره عيداً.

الفائدة السابعة: وفيه أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سدَّ الطريق المفضية إلى الشرك، بنهيه عن اتخاذ قبره عيداً.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٤٧).

الفائدة الثامنة: وفيه مشروعية الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أي مكان.

الفائدة التاسعة: وفي حديث علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل؛ لأنه لما رأى هذا الرجل وما يفعل من وسائل الشرك لم يسكت، بل نهاه عن ذلك، وحذّره من ذلك، وكان في ذلك الخير والبركة لهذه الأمة.

الفائدة العاشرة: وفيه دليل على أن من أنكر شيئاً أو أمر بشيء فإنه يُطالب بالدليل؛ لأن علي بن الحسين لما نهى هذا الرجل ذكر له الدليل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأجل إقامة الحجة، ومعرفة الحق بدليله، وهذا منهج من مناهج الدعوة.

الفائدة الحادية عشرة: في عموم الآية والحديثين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سدّ الطرق المفضية إلى الشرك، وهو الشاهد للباب.

الفائدة الثانية عشرة: في الحديثين دليل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبلغه صلوات أمته عليه في أي مكان كانوا من الأرض، وهذا مما يحث المسلمين على الإكثار من الصلاة والسلام عليه.

وفي الصلاة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألُفَّت كتب، من أحسنها: كتاب: (جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام) للإمام ابن القيم، فهو كتاب جيد في هذا الموضوع، حيث جمع فيه الأدلة وفقهها، وما تدل عليه، وبسط الكلام في هذا.

أما الكتب التي أُلِّفت في الصلاة والسلام عليه، والتبرُّك به، والتوسُّل به، مثل كتاب: (دلائل الخيرات)^(١)، وكتب الخرافيين؛ فهذه يجب الحذر منها، وإن سموها كتب الصلاة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم دسوا فيها من الشرور والفتن والشركيات الشيء الكثير والعياذ بالله.



(١) هذا الكتاب لمحمد بن سليمان الجزولي، من مشايخ الصوفية في المغرب العربي، كان مولده في سنة سبع وثمانمائة بجزولة من بلاد المغرب، وتوفي سنة ثلاث وستين وثمانمائة. انظر: النجوم الزاهرة (١٦/٢٠٣).

٢٢ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ]، الوثن: يُطلق على كل من قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله، من صنم، أو قبر، أو غيره؛ لقول الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، مع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفَيْنِ﴾ [الشعراء: ٧١].

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾]: روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جَاءَ حُمَيْدُ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ؟ نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ وَنَنْحَرُ الْكُومَاءَ^(١)، وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُ الْعُنَاءَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَمُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ^(٢) فَطَعَ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سَرَّاقُ الْحَجِيجِ

(١) الكوماء: ناقة عظيمة السنام طويلته، والكومُ: العِظْمُ في كل شيء. انظر: مادة (كوم) في العين للخليل (٤١٨/٥)، ولسان العرب (٥٢٩/١٢).

(٢) قال ابن الأعرابي: «الصُنْبُورُ: الوَحِيدُ، وَالصُّنْبُورُ: الضَّعِيفُ، وَالصُّنْبُورُ: الذي لا ولد له، ولا عشيرة، ولا ناصر من قريب ولا غريب». انظر: مادة (صنبر) في لسان العرب (٤٦٩/٤). وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٥/٣): «وأصل الصنبور: سعفه تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، وقيل: هي النخلة المنفردة التي يدق أسفلها. أرادوا أنه إذا قُلِعَ انقطع ذكره، كما ذهب أثر الصنبور؛ لأنه لا عقب له».

بَنُو غِفَارٍ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُمْ؟ قَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿هَتُولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]^(١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ) أي: من الأدلة على (أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ) وليس كلها؛ لأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة والله الحمد (يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ)، الأوثان: جمع وثن، وهو ما عبد من دون الله عَزَّجَلَّ، فيعم الأصنام والأشجار والأحجار، والقبور، وكل ما عبد من دون الله فهو وثن.

وهذا الباب أراد به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الرد على من زعم أن ما يُفعل عند القبور لا يكون شركاً؛ لأن هذه الأمة -بزعمهم- لا يقع فيها شرك. هذه حجة اتخذوها، وهي حجة باطلة؛ لأن الأدلة دلت على أن هذه الأمة يقع فيها شرك كما وقع في الأمم السابقة، ولا يبقى على التوحيد إلا من ثبتته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾): هذا استفهام تقرير، أي: قد رأيت وعلمت يا مُحَمَّدٌ ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي: الذين أوتوا حظاً من الكتاب، فالنصيب: الحظ؛ والمراد بهم اليهود؛ لأن الله أعطاهم التوراة التي أنزلها على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو كتاب عظيم من عند الله.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤).

وهذا من باب الإنكار عليهم؛ لأن المفروض أن الذي أوتي نصيباً من الكتاب وعلم الحق يجب عليه أن يعمل به، فكونهم يخالفون الحق وعندهم الكتاب، هذا دليل على غلظ كفرهم وعنادهم.

✽ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أي: يصدقون بالجبت، وهو الشرك، أو السحر، أو الساحر، أو الكاهن، أو الشيطان، كل ذلك يسمى جبّاً. والطاغوت في اللغة: مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد؛ والمراد به هنا: ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله.

وسبب نزول الآية: أنه لما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وظهر الإسلام في المدينة، وانتصر المسلمون في غزوة بدر، غاظ ذلك اليهود، فذهب اثنان من زعمائهم - هما: حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف - إلى المشركين في مكة يستنجدونهم على محمد، فسألهم كفار مكة عن حالهم وعن حال محمد أيهم خير؟ قالوا: وما أنتم وما محمد، فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناية، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبر - يعني: مقطوع النسل لا مال له - قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً.

قالوا هذا وهم أهل كتاب، ويعلمون أن محمداً رسول الله، وأن المشركين عباد أوثان، ولكن حملهم الحسد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه أنهم قالوا: أنتم خير من محمد. وهم يعلمون أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحق، وأن

كفار قريش على الباطل. فسمى الله ذلك إيماناً بالجبّ والطاغوت، وسماه كفراً بالله عَزَّوَجَلَّ. فدل على أن من تلفظ بكلام الكفر يكون كافراً ولو كان في قلبه يعتقد بطلان ما يقول؛ لأن هؤلاء كانوا يعتقدون بقلوبهم بطلان هذا القول، لكن قالوه لهدف يريدونه فقط، فسماه الله إيماناً بالجبّ والطاغوت، فدل على أن الإيذان بالجبّ والطاغوت لا يقتصر على تصديق القلب، بل يكون بالقول باللسان، فمن قال كلمة الكفر فإنه يكفر.

وفي هذا رد على المرجئة - خصوصاً مرجئة هذا العصر - الذين يقولون: إن العبد لا يكفر إلا إذا صدّق بقلبه ولو فعل ما فعل، ولو قال ما قال من عظام الكفر، لا يُحكم عليه بالكفر حتى يعتقد بقلبه، مع أن كعب بن الأشرف وحيي ابن أخطب لم يعتقدوا بقلوبهما، بل كانا يعتقدان بطلان هذا القول، ومع هذا حكم الله عَزَّوَجَلَّ عليهما بالكفر، فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبِّ وَالطَّاغُوتِ﴾ سماه إيماناً بالجبّ والطاغوت، وهذا كفر، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المشركين من أهل مكة ﴿هَتُولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أهدى من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٥٢) أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلَكِ؟ بين سبحانه الذي حملهم على هذا ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فبين سبحانه أن الذي حملهم على هذا الحسد وهم لا يعتقدونه بقلوبهم.

والشاهد من الآية للباب: أنه إذا كان في اليهود من يؤمن بالجبّ والطاغوت فسيكون في هذه الأمة من يفعل ذلك تشبهاً بهم؛ لأن الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
 حَيْثُ قَالَ: «لَتَتَّبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَدَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى تَوُ
 دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ:
 «فَمَنْ؟»^(١) أَي: مَنْ غَيْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؟! فَأَخْبَرَ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ أَنَّهُ
 مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمِنْ ذَلِكَ: التَّشَبُّهُ بِهِمْ فِي الْإِيمَانِ
 بِالْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ.

وكَذَلِكَ يَوْجَدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَمَجِّدُ الْكُفْرَ، وَيَتَنَقَّصُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا
 كَانَ الْيَهُودُ يَقُولُونَ: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾، فَمِنْ النَّاسِ
 مَنْ يَثْنِي الْيَوْمَ عَلَى دَوْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَيَصِفُهُمْ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْعِظَمَةِ،
 وَيَتَنَقَّصُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَصِفُهُمْ بِالتَّأَخُّرِ وَالرَّجْعِيَّةِ... إِلَى آخِرِهِ.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَقَعُ فِيهَا مَا وَقَعَ فِي الْيَهُودِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْجَبْتِ
 وَالطَّاغُوتِ، وَمِنْ الشَّرِكِ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَكُلُّ مَا وَقَعَ فِي الْيَهُودِ أَوْ فِي النَّصَارَى فَإِنَّهُ سَيَقَعُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ
 بَعْضِ أَفْرَادِهَا أَوْ طَوَائِفِهَا مَنْ يَفْعَلُهُ تَشَبُّهُهُمْ، فَهِيَ الْأَضْرَحَةُ، وَالْبِنَاءُ
 عَلَى الْقُبُورِ، وَالطَّوَافُ بِهَا، وَإِقَامَةُ الْمَوَالِدِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ بِالْأَمْوَاتِ، وَالذَّبْحُ
 وَالنَّذْرُ لَهُمْ مَوْجُودٌ، كَمَا كَانَ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.



وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية.

قال البغوي في تفسيره: (﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء؛ كقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاء نصب على التفسير ﴿عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾: فالقردة: أصحاب السبت، والخنزير: كفار مائدة عيسى.

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له^(١).

وفي تفسير الطبري: قرأ حمزة «وَعَبُدَ» بِضَمِّ الْبَاءِ وجر التاء، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والأعمش، وأبان بن تغلب: «وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ» بضم العين والباء، وفتح الدال، وخفض التاء^(٢).

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٤٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٩٤، ٢٩٥).

قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة؛ كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، قاله ابن كثير^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

لما كان اليهود والنصارى يسخرون من المسلمين ومن دينهم، ويعيبونهم ويتنقصونهم بما هو الكمال والشرف، وهو الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، والإيمان بالرسول وما أنزل الله على هذه الأمة وما أنزل على من قبلها، كما بينه الله عزَّ وجلَّ في كتابه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨]. لما كان هذا حالهم مع المؤمنين أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه هذه الآيات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ٥٩ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مُتَوَبِّعًا عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ؕ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥٩-٦٠].

فهذه الآيات فيها الرد على المخالفين، وأنه يجب الرد على أهل الزيغ وأهل الباطل ولا يُسكت عنهم، وأنه ينبغي فضحهم وكشف أستارهم.

وفيهما الرد على الذين يقولون: لا تردوا على أهل المقالات الفاسدة، ولا تردوا على أهل الضلال. وهذا من المغالطة؛ لأن السكوت على المنكر، يؤدي

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥).

إلى الهزيمة والذلة للمسلمين، والواجب أن يُرد على أهل الباطل ويدحض قولهم، وتذكر معائبهم، ويفضحون على الملائ حتى يرددوا عما يقولون.

قوله: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ يعني: شر مما تقولونه بزعمك ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ثواباً ومرجعاً ومردّاً ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: الذي لعنه الله، وهم اليهود والنصارى، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ولعن اليهود والنصارى في كتاب الله ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وهم اليهود، والمغضوب عليه هو من ترك الحق بعدما عرفه، وهذه هي صفة اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ أَفْرَدَةً وَالْخَازِيرَ﴾ كما أخبر الله في سورة الأعراف أنهم لما احتالوا على صيد الحيتان يوم السبت وقد نهاهم الله عن ذلك مسخهم الله قردة وخنازير: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فحول الله صورهم إلى صور قردة ومسخهم عقوبة لهم؛ كما في قصة أصحاب السبت^(١)، وهذا في اليهود الذين يعيبون المسلمين ويتنقصونهم.

(١) أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٣٣٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ... كانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها: مدين، فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبين، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً، حتى إذا كان يوم السبت أتين إليهم شرعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبين، فكانوا كذلك حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان، عمد رجلٌ منهم فأخذ حوتاً سرّاً يوم السبت، فخرمه بخيط ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدّاً في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه -أي: إني لم أخذه في يوم السبت- ثم انطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على ما صنع ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وأكلوا سرّاً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم بعقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق، وقالت طائفة منهم من أهل التقية: ويحكم! =

قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية أنهم عبدوا الطاغوت، (عبد) فعل ماضٍ، و(الطاغوت) مفعول، عبدوه من دون الله، والطاغوت: الشيطان، عبدوا الشيطان من دون الله، فإذا كان في اليهود والنصارى من يعبد الطاغوت فسيكون في هذه الأمة من يعبد الطاغوت؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن من هذه الأمة من يتشبه باليهود والنصارى في كل شيء، وأشد ذلك وأعظمه الشرك، فكما وقع الشرك في اليهود والنصارى فسيقع في هذه الأمة من باب التشبه بهم.

وقرئ «وَعُبدُ الطَّاغُوتِ» عُبد: جمع عابد، و(عُبد) مضاف، و(الطاغوت) مضاف إليه مجرور بالإضافة وعلامة جره الكسرة، والمعنى واحد: أن في اليهود من عبد الطاغوت، وسيكون في هذه الأمة من يتشبه بهم، كما في الحديث الآتي.



= اتقوا الله، ونهوه عما كانوا يصنعون، وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ قالوا: معذرة إلى ربكم لسنخطنا أعمالهم ولعلمهم يتقون.

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم، فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً، فانظروا ما هو، فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوا ليلاً، فغلقوها على أنفسهم كما تغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، إنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد.

قال ابن عباس: فلولاً ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء، لقلنا: أهلك الجميع منهم.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِي عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾

[الكهف: ٢١].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى تَوْدَّخُلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى تَوْدَّخُلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟». أَخْرَجَاهُ. وهذا سياق مسلم. فَيَنْصَرَفُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا أَنْ كُلَّ مَا وَقَعَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّا ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهَا لَا بَدَأَ أَنْ يَقَعَ جَمِيعُهُ فِي هَذِهِ الْأَمَّةِ، وَهُوَ الشَّاهِدُ لِلتَّرْجُمَةِ.

قوله: «سَنَنَ» بفتح المهملة، أي: طريق من كان قبلكم.

قوله: «حَذَوِ الْقُدَّةَ»: بنصب حذو على المصدر، والقدة -بضم القاف-: واحدة القذذ، وهو ريش السهم، أي: لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه وتشبهونهم في ذلك، كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى، فوقع كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى). انتهى^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) بنحوه.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/١٩٧)، تفسير ابن كثير (٢/٣٥١).

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: (وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾) هذا في قصة أصحاب الكهف، الفتية المؤمنة التي ذكر الله قصتها، وأن قومهم لما عثروا عليهم أمواتًا في الكهف اختلفوا في شأنهم، قال بعضهم: ﴿فَقَالُوا أَبْنَاءُ اللَّهِ حَبَشَةً نَّسَبْنَاهُ﴾ يعني: سدوا عليهم الغار واتركوهم، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ وهم أهل السلطان وأهل القوة ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ أي: مصلى، فدل هذا على أن في الأمم السابقة من يتخذ المساجد على القبور، وسيكون في هذه الأمة من يتخذ المساجد على القبور، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

هذا هو الشاهد من الآية الكريمة، أنه سيوجد في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، ويتخذ القبور مصليات. وإذا جمعت بين الآيات والأحاديث ظهر لك مطابقتها الترجمة، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ.

❦ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»: هذه قاعدة أن هذه الأمة ستتشبه بالأمم السابقة في جميع ما يفعلون، ومن ذلك الشرك، فسيكون في هذه الأمة شرك وكفر، و(سَنَن) أو (سُنَن) كله سواء، سَنَن: طريق، وسُنَن: طرق.

❦ قوله: «حَذُوا الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ» القُدَّة: الريشة التي تكون في السهم الذي يُرمى به، فقد كانوا من قبل سلاحهم النبل، فيصنعون السهام فيجعلون

رأس السهم حادًا، ويجعلون له ريشتين متعادلتين كالجنحين للطائر، حتى إذا انطلق السهم وطار في الهواء يتعادل ولا يسقط، فلو اختلفت إحدى الريشتين سقط السهم.

والمعنى: أن هذه الأمة ستساوى مع الأمم السابقة كتساوي القذة بالقذة، فيكون فيها من الشرك والكفر وغير ذلك، كما كان في الأمم السابقة.

❦ قوله: «حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» حتى لا تترك من أعمالها شيئًا، حتى الأعمال التي لا قيمة لها كما لو دخلوا جحر ضب - وهو أسوأ الجحور وأعسرها - لكان في هذه الأمة من يقلدهم فيدخل مثلهم، وهذا واقع ومشاهد الآن، أن بعض هذه الأمة أو كثير منها يحرص على أن يفعل مثل ما يفعل اليهود والنصارى، ويعتبرون هذا فخراً لهم، ورقياً وتقدماً وحضارة، وأن تركه تأخر ورجعية، ويسيرون خلف ركب الأمم السابقة ولو في أتفه الأمور التي لا قيمة لها ولا فائدة منها، لا في الدين ولا في الدنيا فيقلدوهم، مصداقاً لما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويزعمون أننا إذا لم نفعل مثلهم تخلفنا عن الركب الحضاري.

ولما كانت الأمم الآن تعظم الآثار وتعتني بها وتنفق عليها الأموال، صار في هذه الأمة من يعظم الآثار ويجمعها ويرتبها ويزينها، لا شيء إلا لأن الكفار يعملون هذا الشيء، ونحن نقلدهم، مع أن ديننا ينهانا عن ذلك،

ولكن لا ينظرون إلى الدين، إنما ينظرون إلى فعل الأمم السابقة، ويقولون: هذا حضارة وتقدم ورقي... إلى آخره.

❖ قوله: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟) تعجب الصحابة أن تتبع هذه الأمة اليهود والنصارى، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ؟» يعني: فمن القوم غير اليهود والنصارى.

❖ قال: (أَخْرَجَاهُ) وهذا أعلى شيء في الصحة؛ لأنه اتفق عليه الشيخان، ومعناه واضح، والواقع يصدقه الآن، وليقولوا ما شاءوا.

فهذا كلام نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، الشاهد منه أن هذه الأمة ستفعل مثل أفعال الأمم السابقة، ومنها -بل أعظمها وأخطرها-: الشرك والكفر، وقد حصل كما أخبر الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بِعَامَةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْنَظَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْنَظَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

قوله: [عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ...»] الحديث. هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه، بالزيادة التي ذكرها المنصف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: [عن ثوبان]: وهو مولى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولازمه، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زَوَى لِي الْأَرْضَ»: قال التوربشتي^(٢): (زويت الشيء: جمعته

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) هو شهاب الدين فضل الله بن حسن التوربشتي، محدث وفقه من أهل شيراز، قال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٣٤٩/٨): «شرح مصابيح البغوي شرحاً حسناً، وروى صحيح البخاري... وأظن هذا الشيخ مات في حدود الستين والستائة، وواقعة التتار أوجبت عدم المعرفة بحاله». وانظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهاب (٣٤/٢).

وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وحاصله: أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة
ينظره.

قال الطيبي^(٢): (جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق
والمغرب منها).

قوله: «وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»: قال القرطبي: (هذا
الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن
ملك أُمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو متهى
عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند
والسند والصين، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك
لم يذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أُرِيه، ولا أخبر أن ملك أُمته يبلغه)^(٣).

قوله: «زُوِيَ لِي مِنْهَا»: يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً
للمفعول.

(١) انظر: تحفة الأحوذى (٦/ ٣٣٢).

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، الإمام المشهور، صاحب شرح المشكاة، وحاشية
الكشاف، وغيرهما، كان كريماً، متواضعاً، حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة
والمبتدعة، مظهر أفضائهم، مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره، توفي سنة ثلاث
وأربعين وسبعمائة. انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١٨٥)، والبدر الطالع (١/ ٢٢٩).

(٣) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٧/ ٢١٧).

قوله: «وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ»: قال القرطبي: يعني به كنز كسرى: وهو ملك الفرس، وقيصر: وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وعَبَّرَ بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجواهر والفضة، ووجد ذلك في خلافة عمر.

قوله: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ»: هكذا ثبت في أصل المصنف بالباء، وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم، وفي بعضها بحذفها. قال القرطبي: (وكانها زائدة؛ لأن «عامّة» صفة السنة)^(٢).
والسنة: الجذب الذي يكون به الهلاك العام.

قوله: «مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ» أي: من غيرهم، من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ.
قوله: «فَيَسْتَبِيحُ بِيَضَتَهُمْ»: قال الجوهري: (بيضة كل شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم)^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: المفهم لما أشكل على صحيح مسلم (٧/ ٢١٧).

(٣) انظر: مادة (بيض) في لسان العرب (٧/ ١٢٧)، ومختار الصحاح (ص ٢٩).

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم: معظمهم وجماعتهم وإن قلوا.

قوله: «وَأَنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»: هذا كما في الحديث: «وَلَا رَادًّا لِمَا قَضَيْتُ»^(١).

قوله: «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»: الظاهر أن (حتى) هنا لانتهاء الغاية، أي: أن أمر أمته ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضًا.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا حديث عظيم من معجزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيه أخبار عظيمة وبشارة لهذه الأمة، وأن هذا الدين سينتشر حتى يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها.

❁ قوله: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى بِي الْأَرْضَ» يعني: جمعها وحوأها وطواها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى صارت صغيرة، فرأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقصاها وأدناها، وهذا من معجزاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا» رأى المشرق والمغرب، وجمعها لكثرة الطالع والغارب من الكواكب.

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٤٠/١٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ١٥٠)، والطبراني في الكبير (١٩٦٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٣/٤) من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قال: «وَأَنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» هذا خبر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو معجزة، وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتسع ملك أمة محمد حتى بلغ المشرق والمغرب بالفتوحات على عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم، حتى وصل الإسلام إلى حدود الصين وإلى السند في أقصى المشرق، ووصل إلى طنجة في أقصى المغرب، بل امتد حتى وصل إلى جبال البرانس على حدود فرنسا مع الأندلس، أما الشمال والجنوب فلم يذكر فيه شيئاً، ولذلك لم تمتد الفتوحات جنوباً وشمالاً؛ لأن معظم سكان الأرض -والله أعلم- في المشرق والمغرب، أما الجنوب والشمال فسكانها قليل، بسبب البرد الشديد، والجليد الذي يغطي مساحات واسعة من الجنوب والشمال، وهذا من علامات نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: «وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ» المراد بالكنزين: الأموال النفيسة، «الْأَحْمَرُ»: الذهب، و«الْأَبْيَضُ»: الفضة، هذا إخبار منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أُمَّته ستستولي على أموال فارس والروم، أموال فارس من الأبيض وهو الفضة والجواهر، وأموال الروم من الأحمر وهو الذهب، وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستولى المسلمون على أموال كسرى وقيصر، وأنفقوها في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

❁ قوله: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي» هذا من شفقتة بأمرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ» قيل: الباء زائدة، والأصل سنة عامة، وفي بعض الروايات: «بِسَنَةِ عَامَةٍ» بدون باء، ومعنى السنة: الجذب والقحط، قال

عَزَّجَلْ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يعني: بالجذب والقحط المتوالي، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دعا على قريش: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(١) دعا عليهم بالجذب والقحط.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا ربه أن لا يهلك الأمة بجذب عام على جميع المسلمين، بل يكون الجذب في بعض البلاد دون بعض؛ لأن هذا أخف من كون الجذب يعم بلاد المسلمين كلها فتهلك أموالهم ومواسيهم.

﴿قوله: «وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ» يعني: أن لا يسلط الله عليهم الكفار «فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ» أي: حوزتهم وقوتهم وجماعتهم وبلادهم، «وَأَنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ» هذا فيه إثبات الكلام لله عَزَّجَلْ «إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ» إذا قضى الله وقدر شيئاً فلا بد أن يقع، فأقدار الله نافذة في جميع خلقه مسلمهم وكافرهم، لا راد لقضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿قال: «وَأَنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأَمَّتِكَ» استجاب الله دعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ» يعني: لا يعمم الجذب على بلاد المسلمين «وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا» يعني: من غيرهم «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» يعني: ما دام المسلمون مجتمعون على كلمة واحدة، وعلى جماعة واحدة، فلن يستطيع أحد من أهل الأرض أن يتسلط عليهم، هذا مما

(١) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أعطاه الله عَزَّجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بهذا الشرط: أن يكونوا أمة واحدة غير مختلفين، متحابين في الله.

فما دام هذا الشرط موجوداً، فلن يتسلط عليهم أحد، ولن يمكنه الله، وهذا وقع في أول هذه الأمة لما كانت أمة واحدة ودولة واحدة وقيادة واحدة تحت طاعة ولي أمرهم منقادين لولي الأمر، ما استطاع الفرس والروم أن يتسلطوا عليهم، بل سقطوا تحت أقدام المسلمين.

ولما اختل هذا الشرط، ووقع بينهم الخلاف والتفرق، وصار بعضهم يقتل بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، سلط الله عليهم أعداءهم، وهذا وقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفة المسلمين وثالث الخلفاء الراشدين، وقع القتال في الأمة، ولا يزال إلى أن تقوم الساعة بسبب أنهم تفرقوا واختلفوا، فمنذ قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والأمة في اختلاف وتناحر وتطاحن وقتال وصراعات عقوبة لهم، وتسلط عليهم العدو، فاقتطع مساحات واسعة من بلاد المسلمين في المشرق والمغرب، وتسلط عليهم، وإن لم يتسلط عليهم بالسلطة السياسية يتسلط عليهم بالاستعمار وبالسلطة الفكرية، فهم تحت سلطة الكفار الآن سياسياً وفكرياً، بسبب أنهم اختلفوا فيما بينهم، واستحل بعضهم دماء بعض، وتقاتلوا وتناحروا، فوقع ما تخوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّجَلَّ وعد أنهم ما داموا مجتمعين فلن يُسلط عليهم عدوهم، أما إذا حصل بينهم اختلاف، وقتل بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، فإنه سبحانه يسلط عليهم عدوهم، فوقع كما أخبر به الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

صحيح أنه بعد ذلك قامت دولة بني أمية ودولة بني العباس، وانتشر الإسلام، ودولة بني العباس، ولكن لم تخل الأمة من اقتتال ومن فتن فيما بينها، إلى أن جاءت الداهية الدهيئة في آخر خلافة بني العباس، فغزا التتار بلاد المسلمين، واستباحوا عاصمة المسلمين بغداد، وقتلوا الخليفة العباسي، وقتلوا من المسلمين مئات الألوف، واحرقوا كتب المسلمين وألقوها في نهر دجلة، حتى تغير الماء بمداد الكتب، وتسَلَّلوا إلى بقية البلاد، وحصل من الحروب الطاحنة ما سجَّله التاريخ.

وكذلك جاء الصليبيون وزحفوا على المسلمين، واستولوا على الأندلس، وزحفوا إلى بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس، وبقي بيت المقدس نحو مائة سنة تحت أيدي الصليبيين، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللهُ، فخلَّص بيت المقدس من أيدي الصليبيين.

ولا يزال الخلاف وتسلط الكفار على المسلمين إلى وقتنا هذا، بل في وقتنا هذا اشتدَّ فيه الأمر، والسبب في هذا هو اختلاف المسلمين فيما بينهم، كما في هذا الحديث: «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» فإذا حصل للمسلمين هذا سلَّط الله عليهم الكفار بسبب الاختلاف، واستباحة حرمة المسلمين فيما بينهم، هذا يقتل هذا، وهذا يسبي هذا، مع أنهم إخوة مسلمون. والواجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرَ بِكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، فالاختلاف
 عذاب، وسبب لتسلط الكفار، والاجتماع رحمة وقوة وعزة للمسلمين، ولن
 يحصل الاجتماع إلا تحت عقيدة التوحيد.



وَرَوَاهُ الْبُرْقَانِي فِي صَحِيحِهِ وَزَادَ: «وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَثِمَةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٍّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تُعْبَدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانِ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١).

قوله: [وَرَوَاهُ الْبُرْقَانِي فِي صَحِيحِهِ]: هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة. قال الخطيب: (كان ثبًا ورعًا، ولم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه، كثير التصانيف، صنف مسندًا ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري، وحديث شعبة، وطائفة)^(٢).

قوله: «وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَثِمَةَ الْمُضِلِّينَ»: أي الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]، وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن.

(١) أخرجه بهذه الزيادة: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥).

(٢) انظر: تاريخ دمشق (١٩٧/٥)، وسير أعلام النبلاء (٤٦٥/١٧)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤٧/٤).

وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ، قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدُمُ الْإِسْلَامَ؟»
قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «يَهْدُمُهُ زَلَّةُ الْعَالَمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ
الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي^(١).

قوله: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»: وقد وقع
ذلك، وما زالت الأمة كذلك، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

وفيه ما هو حق؛ كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله، وجهادهم على
تركهم الشرك، وقد مَنَّ الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة
إلى توحيدِهِ، لكن أهل الشرك بدؤوهم بالقتال، وأظهرهم الله عليهم، كما
لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة.

قوله: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ»: الحي:
واحد الأحياء وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي
بِالْمُشْرِكِينَ». وكم، وكم؟!

قوله: «وَحَتَّى تُعْبَدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ»: والفتن - مهموز - : الجماعات
الكثيرة، قاله أبو السعادات^(٢).

وهذا هو شاهد الترجمة، وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان، حتى
إنه لا يُعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك، حتى أقام
الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، الذي أنكره، ونهى عنه،

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٠٧/٣).

ودعا الناس إلى تركه، وإلى أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فرماه الملوك وأتباعهم بقوس العداوة، فأظهره الله بالحجة، وأعز أنصاره على من ناوأهم، وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها، ولكن من الناس من عرف، ومنهم من أنكر، فانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها، فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله شاكرين.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (رَوَاهُ الْبُرْقَانِي فِي صَحِيحِهِ) الْبُرْقَانِي هُوَ: أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ الْخَوَارِزْمِيُّ الشَّافِعِيُّ، وَكِتَابُهُ يُسَمَّى بِالْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ، جُمِعَ فِيهِ أَحَادِيثُ الصَّحِيحِينَ وَزَادَ عَلَيْهِمَا مَا صَحَّ عَنْهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

❁ قوله: (وَزَادَ) يَعْنِي: عَلَى رِوَايَةِ مُسْلِمٍ.
أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»
هَذَا سَبَبٌ آخَرٌ، السَّبَبُ الْأَوَّلُ: الْاِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ. السَّبَبُ الثَّانِي: وَجُودُ دَعَاةِ الْفِتْنَةِ، وَدَعَاةِ الضَّلَالِ. فَهَؤُلَاءِ سَبَبٌ آخَرٌ لِهَلَاكِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَبَبٌ لَتَفْرُقَ كَلِمَتُهُمْ، وَتَسْلُطَ الْعَدُوُّ عَلَيْهِمْ، بِأَنْ يَكُونَ هُنَاكَ دَعَاةُ ضَلَالٍ، وَدَعَاةُ فِتْنَةٍ، وَدَعَاةُ فُرْقَةٍ، وَتَحْرِيشٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا حَصَلَ مِنَ الدَّاعِيَةِ الْخَبِيثِ الْأَوَّلِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ.

❁ قوله: «الْأَئِمَّةَ»: جَمْعُ: إِمَامٍ، وَالْإِمَامُ هُوَ الْقُدْوَةُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ. فَإِذَا كَانَتِ الْقُدْوَةُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ ضَلَّتْ الْأُمَّةُ، وَحَصَلَ

فيهم الشر، ويراد بهم الأمراء الضالون، والعلماء الضالون، والعُباد الضالون، والدُّعاة الضالون، كل هؤلاء من الأئمة المضلّين، فإذا قاد الأمة هؤلاء قادوها إلى الهلاك، أما إذا قاد الأمة دعاة الحق قادوها إلى الصلاح والسلامة.

❁ فقلوه: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْأَئِمَّةَ الْمُصْلِحِينَ خَيْرٌ لِلأُمَّةِ، يَجْمَعُونَ كَلِمَتَهَا، وَيُصْلِحُونَ عَقِيدَتَهَا، وَيُرَدُّونَهَا إِلَى مَنَهِجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَيَحْصِلُ بِهِمُ الْخَيْرُ. أَمَّا دُعَاةُ الضَّلَالِ فَإِنَّهُمْ يَصُدُّونَهَا عَنِ الْحَقِّ، وَيَدْعُونَهَا إِلَى خِلَافِ مَنَهِجِ السَّلَفِ.

وَالآنَ فِيمَا بَيْنَنَا ظَهَرَ مِنْ يَزْهَدٍ فِي مَنَهِجِ السَّلَفِ، وَيَعْتَبِرُهُ مِنَ الْأُمُورِ الرَّجْعِيَّةِ، وَمِنَ الْأُمُورِ الْقَاصِرَةِ، وَيُرِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْهَجُوا مَنَاجِجَ حَدِيثَةٍ، ابْتَكَرَهَا جَهَّالٌ أَوْ ضَلَّالٌ، يَرِيدُونَ مِنَ الدُّعَاةِ أَنْ يَسِيرُوا عَلَى هَذَا الْمَنَهِجِ الْمُبْتَكَرِ الْمُحْدَثِ، وَيَتْرَكُوا مَنَهِجَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الَّذِي فِيهِ الْخَيْرُ، وَفِيهِ الصَّلَاحُ وَالْفَلَاحُ، فَتَحَقَّقْ بِذَلِكَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ حَزِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكِّرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ

بِأَنسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلَزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»^(١).

فلنحذر من هؤلاء غاية الحذر؛ لأنه لا نجاة لنا إلا باتباع دعاة الصلاح الذين يدعون إلى منهج السلف الصالح وإلى إتيان الكتاب والسنة، هؤلاء هم الخير على الأمة. أما من أراد بالأمة خلاف ذلك، وابتكر لها منهجاً أو خطط لها تخطيطاً جديداً يخالف منهج السلف، فهذا لا يريد للأمة خيراً سواء كان متعمداً أو لم يتعمد.

وأخطر ما على الأمة الآن الدعاة الجهّال الذين لا يعرفون العلم، ويدعون الناس بجهل وضلال، أو الدعاة المغرضون الذين يعرفون الحق لكنهم مغرضون، يريدون صرف الأمة عن جادة الصواب.

الحاصل: أن الأمة على خطر من هؤلاء، فعلينا أن نتنبه لهذا الأمر، وأن نعالج هذا الأمر قبل أن يستفحل.

❁ قوله: «وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» كذلك خاف عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه إذا بدأ القتال بين المسلمين فإنه لا يُرْفَعُ إلى يوم القيامة، وهذه بليّة أخرى.

البليّة الأولى: تسلط الكفار على المسلمين.

والبليّة الثانية: إذا وقع القتال بين المسلمين فإنه لا يُرْفَعُ إلى يوم القيامة عقوبة لهم.

وذلك حصل كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لما قُتِلَ الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لا يزال القتال مستمراً بين المسلمين، وسيستمر إلى أن تقوم الساعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❦ قوله: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» هذا محل الشاهد من الحديث، والحي: المراد به القبيلة، ومعنى يلحق: يتبع، إما بأن يذهبوا إلى المشركين في بلادهم ويساكنوهم، وإما أن يبقوا في بلاد المسلمين ويتبعوا المشركين في عقيدتهم وفي مذهبهم ويرتدوا عن الإسلام.

ووقع هذا كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيهم من ذهب إلى بلاد الكفار ولم يرجع، وصار يوافق الكفار في أمورهم الدينية، وهو مختار للإقامة بينهم، وفيهم من بقي في بلاد المسلمين ويعتنق مذاهب الكفر؛ من شيوعية، وبعثية، وقومية، وغير ذلك، وهؤلاء لحقوا بالمشركين في قلوبهم وعقائدهم كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن لم يلحقوا بهم بأبدانهم.

❦ قوله: «وحتى يعبد فئام من أمتي الأوثان»، فئام: أي جماعات كثيرة من هذه الأمة، وليست قليلة، والأوثان: تشمل كل ما عُبد من دون الله، فيدخل فيها القبور، فعبدت جماعات من هذه الأمة القبور والأضرحة، وصارت عبادة القبور على أشدها في البلاد الممتدة، والمسجد الذي ليس فيه ضريح ليس له قيمة عندهم، إنما يتزاحمون على المسجد الذي فيه ضريح، واعتبروا هذا هو الدين الصحيح، وسموا دين التوحيد الصحيح: دين الخوارج.

وهذا مع ما قبله من هذا الحديث فيه شاهد للترجمة، وفيه رد على من
زعم أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك، مع أن خبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو
الصادق المصدق - صريح في أن جماعات من أمته ستعبد الأوثان.



قوله: «وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ»: قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ وَدَجَالُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ: مِنْهُمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ»^(١). أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حديث غريب. وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الآن، ممن اشتهر بذلك وعرف، واتبعه جماعة على ضلالته، فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتاريخ عرف صحة هذا، وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»: قال الحسن: الخاتم الذي خُتِمَ به، يعني: أنه آخر النبيين؛ كما قال عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وإنما ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مصلياً إلى قبلته، فهو كآحاد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا خبر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيظهر في هذه الأمة كذابون دجالون، وعددهم ثلاثون كذاباً، كلهم يدعي أنه نبي، وقد حصل ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول من ظهر:

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٧٩). وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٦٩)، والطبراني في الكبير (٣٠٢٦) والأوسط (٥/ ٣٢٧) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسيلمة الكذاب في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأسود العنسي باليمن، وقد قُتِلَا، قُتِلَ الأسود العنسي في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقتل مسيلمة الكذاب بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقعة اليمامة، حيث أرسل الصديق جيشاً من المسلمين من المهاجرين والأنصار بقيادة خالد بن الوليد إلى اليمامة، وحصل قتال شديد جداً، قُتِلَ فيه من المسلمين ومن أفاضلهم ومن قُرَاء القرآن العدد الكثير، ولكن في النهاية قتل الله مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب على يد المسلمين، وأراحهم من شرِّه.

ثم ظهر طليحة الأسدي وادّعى النبوة، وظهرت سَجَاح التميمية وادّعت النبوة، ولكن الله منَّ على طليحة فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وجاهد في سبيل الله، وتوفيَّ على الإسلام، وكذلك سَجَاح تابت إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم ظهر مختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ادعى النبوة في خلافة عبد الملك ابن مروان، وقتله الله على أيدي المسلمين.

وفي هذا الزمان ادعى النبوة في باكستان غلام أحمد القادياني، وتبعه طوائف يسمون بالقاديانية^(١)، لهم نشاط الآن حيث يصلون ويجولون في المشارق والمغارب، ويدعون إلى اتباع أحمد القادياني وتصديقه، وبينون

(١) هي حركة نشأت عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في شبه القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، ورأس هذه الفرقة هو ميرزا غلام أحمد القادياني، المولود في قرية قاديان في البنجاب بالهند، كان معروفاً عند أتباعه باختلال المزاج وكثرة الأمراض وإدمان المخدرات، وله أكثر من خمسين كتاباً ونشرة ومقالاً، على هذا المعتقد الخبيث، منها: «إزالة الأوهام»، و«إعجاز أحمدي»، و«براهين أحمدية»، و«أنوار الإسلام»، و«التبليغ»، وغيرها.

مساجد، وينشئون المدارس، والظاهر أن دول الكفر هي التي تمولهم بالأموال وتشجعهم على ذلك؛ لأن دول الكفر تسعى للقضاء على الإسلام، ولكن بحمد الله المسلمون حاصروهم وحذروا منهم، وأصدرت رابطة العالم الإسلام منذ سنوات قرارًا بكفر القاديانية، وإبعادهم عن بلاد المسلمين، وعدم تمكينهم من دخول بلاد المسلمين.

❁ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي» هذا كما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، والخاتم -بفتح التاء-: الذي يختم على الشيء فلا يُزاد فيه، يُقال: ختم الكتاب، يعني: وضع الختم عليه بحيث لا يُزاد فيه، وختم الكيس، بمعنى: أنه أغلقه بحيث لا يُزاد فيه ولا يُنقص، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختم الأنبياء، بمعنى: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخر الأنبياء، فليس بعده نبي.

وأما لفظ (خاتم) - بالكسر - : فهو اسم فاعل، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم النبيين، أي: الذي كملهم وانتهى به عددهم، فلا يُبعث نبي بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة، كما أن شريعته لا تُنسخ إلى أن تقوم

= ويعيش معظم القاديانيين الآن في الهند وباكستان، وقليل منهم في الدولة اليهودية بفلسطين المحتلة وفي العالم العربي، ويسعون بمساعدة الاستعمار للحصول على المراكز الحساسة في كل بلد يستقرون فيه، ومن معتقدهم الخبيث أن الله يصوم ويصلي وينام ويصحو ويكتب ويخطئ ويجامع -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- كما يعتقدون أن النبوة لم تُختم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هي جارية، وأن الله يرسل الرسول حسب الضرورة، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعًا، وكل مسلم عندهم كافر حتى يدخل القاديانية.

وفي شهر ربيع الأول عام أربع وتسعين وثلاثمائة وألف عقدت رابطة العالم الإسلامي مؤتمرًا في مكة المكرمة، أُعلن فيه كفر هذه الطائفة وخرجها عن الإسلام.

الساعة، وأرسله الله إلى العالمين كافة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]،
أرسله الله عَزَّجَلَّ إلى العرب والعجم، والجن والإنس، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وأنزل عليه شريعة
كاملة شاملة لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

فالذي يدعي النبوة بعد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافر؛ لأنه مكذب لله،
لأن الله قال: ﴿وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، ومكذب لرسول الله في قوله: «وَأَنَا خَاتَمُ
النَّبِيِّينَ»، ومكذب لإجماع المسلمين؛ لأن المسلمين أجمعوا على أنه لا نبي بعد
محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن قال قائل: أليس المسيح عيسى بن مريم ينزل في آخر الزمان، كما
تواتر ذلك في الأحاديث؟

قلنا: نعم، ينزل في آخر الزمان، ولكن لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما ينزل
ليعمل بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو يُعتبر مجددًا من المجددين، ومصلحًا
من المصلحين، يحكم بشريعة الإسلام، ويتبع محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزول
عيسى عَلَيْهِ السَّلَام لا يعارض قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»، وقول
الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾؛ لأنه لا ينزل بشريعة جديدة، ولا ينزل على
أنه نبي يُبعث إلى الناس، وإنما ينزل على أنه حاكم بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وتابع له.



قوله: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ»: قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقهه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد واقتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في بلد واحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض منهم أولاً فأولاً إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. انتهى ملخصاً، مع زيادة فيه. قاله الحافظ^(١).

قال المصنف: [وفيه الآية العظيمة: أنهم مع قتلهم لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية].

قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»: الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس.

وقوله: «بَارَكَ وَتَعَالَى»: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (البركة: هي فِعْلُهُ، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها: تبارك، ولهذا لا يُقال لغيره ذلك، ولا يصح إلالة عَزَّجَلَّ، فهو سبحانه المتبارك،

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦٧)، وفتح الباري (١٣/٢٩٥).

وعبدته ورسوله المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به كما أطلقها على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه، مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة؛ كتعالى وتعاضم ونحوه، فجاء بناء «تَبَارَكَ» على بناء «تَعَالَى»، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تَبَارَكَ» دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاضم^(١).

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة^(٢).

... — الشَّبَحُ — ...

قوله: «وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ»: هذه بشارة أيضًا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الأمور العظيمة والحوادث المروعة التي أخبر عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الحق سيبقى، وسيبقى عليه جماعة من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تضرهم هذه الأهوال، وهذه الحوادث، وهذا الابتلاء العظيم، وتسلب الكفار، وقلة أهل الحق، وكثرة أهل الباطل، مع كل هذا ستبقى في هذه الأمة بقية صالحة يدافعون عن الدين ويحملونه مهما تكالبت الأخطار والحوادث إلى أن يأتي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤١٠، ٤١١).

(٢) انظر: تفسير الثعلبي (٧/ ١٢٢)، وتفسير البغوي (٢/ ١٦٥) (٣/ ٣٦٠).

❦ قوله: «طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي» الطائفة: الجماعة، والمراد هنا من كان على الحق ولو كان واحداً، بدليل: قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] وهو واحد.

❦ قوله: «عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ» هذا فيه الحث على أن نكون مع هذه الجماعة وهذه الطائفة المنصورة المتمسكة بالحق التي لا تتزعزع مع الحوادث ومع الصوارف، ولا تزهد في التمسك بالسنة، لكن هذا يحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى ثبات ويحتاج قبل ذلك إلى علم وبصيرة.

وفيه -أيضاً- رد على من ظهر برأي يقول: إن الطائفة المنصورة غير الفرقة الناجية. نقول: بل الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة، فلا تكون منصورة إلا إذا كانت ناجية، ولا تكون ناجية إلا إذا كانت منصورة، فمن فرق بينهما فهذا خطأ وضلال.

❦ قوله: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلْتَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ» لا يضرهم من خذلهم مع قلتهم؛ لأنهم على الحق وخصومهم على الباطل، والباطل لا يغلب الحق، قال عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

❦ قال الشيخ رحمه الله: (قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام) يعني: تُقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة بمدة، ثم يبقى شرار الناس

على وجه الأرض، ليس فيهم من يقول: الله الله، ثم تقوم عليهم الساعة والعياذ بالله، فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ تَدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»^(١).

❖ قوله: (البركة نوعان إحداها بركة هي فعله والفعل منها برك): بركة هي فعل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والفعل منها برك، والذي يبارك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما المخلوق فيقال له: مبارك، اسم مفعول؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا إِنْ مَّا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١].

❖ قوله: (والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك) لا يقال: تبارك علينا يا فلان، هذا لا يجوز؛ لأن هذا الفعل خاص بالله، هو سبحانه الذي يتبارك.

فهذا حديث عظيم يدل على مسائل عظيمة، منها:

المسألة الأولى: في هذا الحديث دلائل من دلائل النبوة، وهي:

أولاً: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا»^(٢).

ثانياً: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيَبْلُغُ مَلِكٌ أُمْتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا».

ثالثاً: إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن هذه الأمة إذا افرقت وتقاتلت يتسلط

عليها العدو. وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) سبق تخريجه (٢/ ٢١٢).

(٢) سبق تخريجه (٢/ ٢٨٥).

رابعاً: إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وقوع الشرك في أمته. وقد وقع ما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

خامساً: إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهور المتنبيين الكذبة. وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يزال المتنبيون الكذبة يظهرون بين الحين والآخر. سادساً: إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببقاء الطائفة المنصورة على الحق.

وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تزال هذه الأمة - والله الحمد - يبقى فيها من أهل الصلاح والإصلاح من يبقى بهم هذا الدين، وتقوم به حجة الله على العالمين، مع اشتداد الغربة، وعظيم الكربة، ولكنهم يصبرون ويثبتون على الحق.

المسألة الثانية: في هذا الحديث كمال شفقتة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمته، حيث دعا لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الدعوات المباركات العظيمة، واستجاب الله له.

المسألة الثالثة: في هذا الحديث أن تفرّق الأمة وتناحرها فيما بينها سبب لتسلط العدو عليها، وأن اجتماعها وتوحيدها على الحق سبب لمنع الكفار من الاستيلاء على شيء من بلادها.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على خطر الأئمة المضللين، أي: القيادات الفاسدة من الأمراء والعلماء والعباد والدعاة الفاسدين، أما الأئمة المصلحون فهؤلاء خير على الأمة وصلاح لها.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنه إذا وقع في هذه الأمة قتال فيما بينهم، فإنه سيستمر إلى أن تقوم الساعة، ولا يُرفع، ولكن يكثر ويقل أحياناً.

المسألة السادسة: في الحديث دليل فيما ترجم له المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من وقوع الشرك والردة في بعض هذه الأمة، فهذا شاهد لقول المصنف: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ).

المسألة السابعة: في الحديث دليل على ختم النبوة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن من ادّعى النبوة بعده فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين ولما علم بالدين بالضرورة.

المسألة الثامنة: في الحديث دليل على بقاء الفرقة الناجية المنصورة، مع كثرة الفتن والمحن والشُرور، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُجْلِي الْأَرْضَ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى الْحَقِّ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْمُصْلِحِينَ.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الرَّابِعَةُ: وَهِيَ أَهْمُهَا: مَا مَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ، أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا؟.

الخَامِسَةُ: قَوْلُهُمْ إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

السَّادِسَةُ: وَهِيَ الْمَقْصُودُ بِالترَّجِمَةِ: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السَّابِعَةُ: التَّضَرُّعُ بِوُقُوعِهَا، أَغْنَى عِبَادَةَ الْأَوْتَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

الثَّامِنَةُ: الْعَجَبُ الْعُجَابُ خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلَ الْمُخْتَارِ، مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَتَضَرُّعِهِ بِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الْوَاضِحِ. وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِتْنَامُ كَثِيرَةٌ.

التَّاسِعَةُ: الْبَشَارَةُ بِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

الْعَاشِرَةُ: الْآيَةُ الْعُظْمَى أَتَتْهُمْ مَعَ قَلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الثَّانِيَّةُ عَشْرَةَ: مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، مِنْهَا: إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللَّهَ رَزَى لَهُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، بِخِلَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْكَزْنَينِ، وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الْاِئْتِنَنِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ، وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ، وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَسَبَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ الْمُضِلِّينَ، وَإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ. وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُقُولِ.

الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: حَصْرُ الْخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.



٢٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي السُّحْرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي السُّحْرِ] أي: والكهانة.

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً»^(١)، وهذا من التشبيه البليغ، شبهه بالسحر لكونه بالبيان يحصل منه ما يحصل من السحر.

قال أبو محمد المقدسي^(٢) في الكافي: (السحر عزائم ورقى، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض، ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَصُورُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، يعني: السواحر اللاتي ينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه)^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦)، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسائة، وهو من أهل جماعيل من قرى نابلس بفلسطين، خرج من بلده صغيراً مع عمه عندما ابتليت بالصليبيين، واستقر بدمشق، واشترك مع صلاح الدين في محاربة الصليبيين، رحل في طلب العلم إلى بغداد أربع سنين ثم عاد إلى دمشق، صنف (الغني) و(الكافي) و(المقنع) و(العمدة) في الفقه، وغيرها الكثير، قال الذهبي: «كان عالم أهل الشام في زمانه». توفي سنة عشرين وستمائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٦٦/٢٢)، وذيل طبقات الحنابلة (ص ١٣٣-١٤٦).

(٣) انظر: الكافي في فقه ابن حنبل (٤/١٦٤).

واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

ومما يدل على أنه كفر قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي السَّحْرِ) يعني: ما جاء في بيان حكمه، وتحريمه، وبطلانه. ومناسبة هذا الباب للأبواب السابقة: أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذكر في الأبواب السابقة أنواعاً من الشرك، ووسائل الشرك. ولما كان السحر نوعاً من أنواع الشرك عقد له المصنف هذا الباب، وذكر في الباب من الآيات والأحاديث ما يبين حكم السحر وحكم الساحر.

والسحر في اللغة: عبارة عما لطف وخفي سببه، ومنه سُمِيَ السَّحَرُ في آخر الليل؛ لأنه خفي، وسمى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البلاغة في الكلام والبيان سحرًا، فقال: «وَأَنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(١)، بمعنى: أن البلاغة والبيان تؤثر في النفوس وتجذبها إلى الكلام البليغ والفصيح، فهو سحر لغوي، إلا أنه ليس حرامًا، وكذلك سُمِيَ النَمِيمَةُ وهي الوشاية بين الناس سحرًا، فقال: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ مَا الْغَضَةُ؟ - يعني: السحر - هِيَ النَّمِيمَةُ النَّقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(٢)؛ لأنها تفسد بين الناس، فهي تعمل عمل السحر.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٩) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأما السحر في الشرع: فهو عبارة عن تمائم ورقى وعقد يعملها الساحر وينفث فيها من ريقه، فتؤثر بإذن الله في بدن المسحور، أو في عقله، أو في قلبه، فالسحر له تأثير إما بالقتل، وإما بما هو دون ذلك، وهو نوعان:

النوع الأول: السحر الحقيقي، وهو الذي يكون ناتجاً عن عمل الساحر من عقد العقد والنفث فيها، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] أي: التي تعقد العقد في الخيوط وتنفث فيها.

والنوع الثاني: سحر تخيلي ليس له حقيقة، وهو ما يأخذ العيون والأبصار، ويظهر لها الأشياء على غير حقيقتها، وهو ما يسمى: القُمرَة عند الناس، وهو خيال ودجل وشعوذة، ومنه سحر آل فرعون؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا سَعَى﴾ [طه: ٦٦]، يعني: العصي والحبال، وهي ليست كذلك، لكن عملوا حيلًا وأشياء خفية تجعلها كأنها حيات، وأنها تتحرك، وهذا هو عمل المشعوذين الآن في السيرك وغيره، وجمهور العلماء على أن السحر له حقيقة، وأنه يؤثر ويقتل ويمرض، أما الحنفية والمعتزلة فإنهم ينكرون السحر الحقيقي، ويقولون: لا يوجد إلا سحر تخيلي فقط، وأما الحقيقي فلا يعترفون به، وهذا لا شك أنه خطأ، فالسحر الحقيقي موجود، ولولا أن له حقيقة ما أثر ولا قتل ولا أمرض، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] فدل على أن السحر يضر، والسحر التخيلي لا يضر البدن ولا يضر العقل، وإنما هو شيء على الأعين فقط، فدل على أن السحر له حقيقة، وأما التخيلي والشعوذة فهذا شيء آخر، فهو ليس حقيقياً وإنما هو تخيل فقط، ومنه ما يستعمله المشعوذون والذين

يَدَّعُونَ الْوَلَايَةَ، يشعُودُونَ عَلَى النَّاسِ بِالْخَوَارِقِ، يَظُنُّ أَنَّهَا كِرَامَاتٌ لِلْأَوْلِيَاءِ، وَمَا هِيَ إِلَّا مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ وَلَيْسَتْ مِنْ كِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، مِثْلُ: الَّذِي يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، أَوْ أَنَّهُ يَدْخُلُ النَّارَ، أَوْ أَنَّهُ يَأْكُلُ الْجَمْرَ، أَوْ أَنَّهُ يَطْعَنُ نَفْسَهُ بِالسَّكِينِ، أَوْ أَنَّهُ يَطْرَحُ نَفْسَهُ تَحْتَ السَّيَّارَةِ وَتَمُرُّ عَلَيْهِ وَلَا تَضُرُّهُ، أَوْ أَنَّهُ يَجْرِي السَّيَّارَةَ بِشَعْرِهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الدَّجْلِ وَالشَّعْوَذَةِ وَالْخَزْعَبَلَاتِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْمُشْعُودُونَ فِي الْأَنْدِيَةِ وَغَيْرِهَا.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ السَّحَرُ عَمَلُ شَيْطَانِي بَنُوْعِيهِ، وَعَمَلٌ بَاطِلٌ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَمْنَعُوا وَقُوعَ السَّحَرِ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ، وَأَنْ يَطْبُقُوا الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ عَلَى السَّحَرَةِ، حَتَّى يَرِيحُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ.

❦ قَوْلُهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى) أَيُّ: وَبَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، هَذَا مِنَ الْعُطْفِ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ، يَعْنِي: تَفْسِيرُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾، هَذِهِ الْآيَةُ فِي آخِرِ سِيَاقِ آيَاتِ السَّحَرِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَنِ الْيَهُودِ:

قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، أَيُّ: طَرَحُوا التَّوْرَةَ وَالْعَمَلَ بِهَا الَّتِي فِيهَا أَوْصَافُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِثْبَاتُ رِسَالَتِهِ، طَرَحُوهَا وَبَذَلُوهَا وَاسْتَبَدَلُوهَا بِالسَّحَرِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَعْمَلُ السَّحَرَ، وَنَسَبُوهُ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ لَا يَلِيقُ بِالْأَنْبِيَاءِ، بَلْ لَا يَلِيقُ

بالمؤمنين عموماً، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ يعني: ما سحر وما استعمل السحر، فعبر عن السحر بالكفر، فدل على أن السحر كفر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فدل على أن تعلم السحر وتعليمه كفر ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ يعني: لا تتعلم السحر، فدل على أن تعلم السحر وتعليمه كفر.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أن اليهود استبدلوا التوراة بالسحر، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: استبدل السحر بالتوراة، والشراء معناه الاستبدال، فاليهود استبدلوا التوراة التي هي كتاب الله بالسحر الذي هو عمل الشيطان، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ يعني: ليس له في الجنة نصيب، فدل على أن السحر كفر؛ لأن الكافر هو الذي ليس له في الجنة نصيب، وأما المؤمن فهو من أهل الجنة، وله نصيب من الجنة، ولا يُحرم من الجنة إلا الكافر، فدل على أن السحر كفر يمنع من دخول الجنة والعياذ بالله، ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ دل على أن السحر ينافي الإيمان، والذي ينافي الإيمان كفر.

✽ قال الشيخ رحمه الله: (واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر) وهذا هو الصحيح، والله سباه كفراً في عدة مواضع من الآيات التي في سورة البقرة.

❁ قال: (وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر) والصحيح أن السحر كفر مطلق لا تفصيل فيه، والسقي والتدخين هذا لا يضر بنفسه، وإنما يضر بعمل الشيطان، فالساحر لا يتوصل إلى السحر ولا عمل السحر إلا بواسطة الشياطين، ما هو بالدخان ولا بسقي شيء ولا مجرد هذه الأمور، وإنما هذه الأمور مظاهر فقط، وأما الحقيقة فهو استعانة بالشياطين فلذلك كان كفرًا.



وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].
 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْجِبْتُ: السَّحَرُ. وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ^(١).
 وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاعِيتُ كَهَّانُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ^(٢) وَاحِدٍ.

وقال عمر في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: الْجِبْتُ: السَّحَرُ.
 وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ.

وتقدم كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَدِّ الطَّاغُوتِ، وَأَنَّ لَهُ أَفْرَادًا، مِنْهَا:
 عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ، فَالْمَعْبُودِ طَّاغُوتٌ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، وَمِنْهُمْ الْكُهَّانُ، وَمَنْ
 يَحْكُمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ، أَوْ يَأْمُرُهُ بِمَا يَخَالِفُ الْحَقَّ، أَوْ يَرْضَى بِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (الطَّوَاعِيتُ كَهَّانُ): أَرَادَ أَنَّ الْكُهَّانَ مِنَ الطَّوَاعِيتِ.

قَوْلُهُ: (كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ): أَرَادَ الْجِنْسَ لَا الشَّيْطَانَ الَّذِي
 هُوَ إِبْلِيسُ خَاصَّةً، بَلْ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَيَخَاطَبُونَهُمْ، وَيُخْبِرُونَهُمْ بِمَا
 يَسْتَرْقُونَهُ مِنَ السَّمْعِ، فَيَصْدُقُونَ مَرَّةً، وَيَكْذِبُونَ مَرَّةً.

... — الشَّبَجُ — ...

هَذَا أَيْضًا فِي الْيَهُودِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ

(١) أَخْرَجَ هَذَا الْأَثَرُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٥ / ١٣١)، وَأَخْرَجَهُ مُقْتَصِرًا عَلَى شَطْرِهِ الْأَوَّلِ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٩٧٤). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا فِي صَحِيحِهِ (ص ٨٣٥)، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، (بَاب: وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١٩)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٩٧٦)، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا فِي صَحِيحِهِ (ص ٨٣٥)، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، (بَاب: وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ).

يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴿ [النساء: ٥١] والجبّت: هو السحر؛ كما قاله عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فمعنى يؤمنون به: أنهم يعملون السحر ويتخذونه ويعملونه ويتعاطونه، فهذا إيمان بالسحر والعياذ بالله، مع أنهم أهل كتاب وعلماء لم ينفعهم علمهم وأخذوا السحر وآمنوا به والعياذ بالله.

❁ قوله: (وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ) الطاغوت من الطغيان، وهو كل ما تجاوز الحد الشرعي، وفاعله طاغوت خارج عن الحق، والطواغيت كثيرون -كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ- ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله^(١).

❁ قوله: (وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ كُفَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ) هذا تفسير آخر للآية، التفسير الأول: أن الطاغوت المراد به الشيطان، يعني: جنس الشياطين وليس هو خاص بإبليس، وكل شيطان فإنه طاغوت سواء كان من الجن أو من الإنس، التفسير الثاني: أن الطواغيت كهان، كانت تنزل عليهم الشياطين، وكان العرب يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطاغوت له أفراد، وليس هو بنوع واحد، وكل من المفسرين يأخذ بنوع، اختلاف المفسرين ليس اختلاف تضاد، وإنما هو اختلاف تنوع، كل منهم يذكر معنى من معاني الآية، فعندما تكون الآية عامة للمعاني يأخذ كل

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

مفسر بمعنى يفسر به الآية، فلا يُقال: إن الآية ليس لها تفسير إلا هذا، بل هذا من تفسير الآية.

فلا تنافي بين تفسير الآية بالشیطان وتفسيرها بالكهان؛ لأن الآية تشمل هذا وهذا، فالطاغوت أنواع كثيرة منها الشيطان وهو رأس الطواغيت، ومنها من حكم بغير ما أنزل الله، ومنها من ادعى علم الغيب، ومنها الكهان الذين كانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

وهؤلاء الكُهان كانت تنزل عليهم الشياطين التي تسترق السمع؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٣١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿ ٣٢ ﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، وكما جاء في الحديث أن الشياطين يسترقون السمع فيسمع أحدهم الكلمة «فيلقيها إلى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاجِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؛ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»^(١) يُصَدِّقُهُ النَّاسُ بسبب هذه الكلمة التي سُمعت من السماء.

فالكاهن هو: الذي يخبر الناس عن المغيّبات، بسبب أنه يسأل الشياطين، ويُخبره الشياطين عن الأشياء الغائبة والمسروقة والمفقودة والبعيدة، فيظن الناس أن هذا الكاهن يعلم الغيب، وهو ليس كذلك، إنما أخبرته الشياطين بذلك؛ لأن الشياطين لهم قدرة على الطيران السريع، والوصول إلى الأماكن

(١) سبق تخريجه (٢/ ٤٥).

البعيدة، حتى إنهم يصعدون إلى السحاب، ويطيرون في الآفاق، فهم يجوبون الآفاق بسرعة، فيأتون بالأخبار ويُنْجِرون الكهَّان، ويرون الأشياء المغيبة في البيوت أو في الأمكنة، لأنهم لديهم مقدرة ليست عند الإنس، فإذا تقرب إليهم الإنسي بما يريدون من الشرك والذبح لغير الله والسجود لهم؛ فإنهم يخدمونه بما يريد، فيظن الناس أن هذا الكاهن عنده خبر من الغيب، وأنه له خاصية، والحقيقة أن هذا كله من الشيطان.

وكانوا يحكِّمونهم في المنازعات والخصومات، وكان عند كل حي كاهن، يعني: عند كل قبيلة كاهن يحكم بينهم. فلما جاء الإسلام أبطل الله ذلك كله، لكن لا يزال عند بعض البوادي والجهال نوع من هذا الشيء، يسألون الكهَّان، ويحكِّمونهم، ويرجعون إليهم، وقد جاء في الحديث: «مَنْ أَتَى عَرَافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ^(١)»، فلا يجوز الذهاب إلى الكهَّان والمشعوذين والدجالين لا للعلاج، ولا للسؤال عن الأشياء الضائعة والغائبة، وهؤلاء الكهان قد كفروا بما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز إقرارهم وتركهم على ما هم عليه، بل يجب القضاء عليهم، وإراحة البلاد والعباد منهم؛ لأنهم دُعاة كفر وشرك، يُفسدون العقائد، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويُحدثون الشر في الأمة، فلا يجوز تركهم وإقرارهم، فضلاً عن الذهاب إليهم وتصديقهم فيما يقولون، إنما هذا من عادات الجاهلية كما قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١).

قوله: [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»]. كذا أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ غير معزو، وقد رواه البخاري ومسلم.

«اجْتَنِبُوا» أي: ابتعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا أو اتركوا؛ لأن النهي عن القربان أبلغ؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأُنعام: ١٥١].

قوله: «الْمُوبِقَاتِ» بموحدة وقاف، أي: المهلكات، وسميت هذه موبقات؛ لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب، وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد مرفوعاً قال: «الْكَبَائِرُ تَسْعُ»، وذكر السبعة المذكورة، «وَالْإِنْحَادُ فِي الْحَرَمِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٧)، والطبري في تفسيره (٣٩ / ٥).

قوله: (قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ): هو أن يجعل لله ندا يدعو أو يرجوه كما يرجو الله، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالشِّرْكُ فَاحْذَرُهُ فَشِرْكُ ظَاهِرٌ ذَا الْقِسْمِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغُضَرَانِ
وَهُوَ اتِّخَاذُ النَّدِّ لِلرَّحْمَةِ مِنْ أَيَّا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانٍ
يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدِّيَانِ^(١)

وبدأ به لأنه أعظم ذنب عصي الله به؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

«وَالسَّحَرُ»: تقدم تعريفه.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا» أي: ابتعدوا، وهذا أبلغ من قول: لا تفعلوا؛ لأن الاجتناب يعني: ترك الشيء وترك الأسباب الموصلة إليه.

✽ قوله: «السَّبْعُ الْمُؤَبَّاتِ» يعني: المهلكات، وهذه السبع هي من أكبر المعاصي.

✽ قال: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟) سأله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه السبع حتى يتجنبوها، ذلك لأن الإنسان لا يمكنه تجنب الشيء إلا بعد أن يعرفه. وفي هذا دليل على أن المسلم يجب عليه أن يسأل عما خفي عليه من الأمور المحرمة والأمور الشركية، حتى يتجنبها.

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٦٣).

❁ قال: «الشرك بالله» الشرك هو أكبر الكبائر وأكبر المعاصي، وهو مخرج من الملة، ومفسد للدين، فما هو الشرك؟

الشرك هو عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بأن يُصرف له شيء من العبادة إما دعاءً أو استغاثة؛ كأن يقول قائلٌ: يا سيدي فلان أغثني، أو اشفني من المرض، أو يذهب إلى القبور والأضرحة ويقول: يا سيدي فلان أنا بحسبك، أغثني، أو اشفني من المرض، أو أعطني ولدًا، أو هب لي زوجة... إلى آخره. وهذا شرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه دعاء لغير الله.

كذلك من الشرك: الذبح لغير الله؛ كأن يذبح للقمر أو الضريح من أجل أن يُعطى ولدًا، أو يُدفع عنه البلاء، أو يُشفى من المرض. فليس الشرك مقصورًا على عبادة الأصنام، بل الشرك في كل ما صُرف لغير الله من العبادة أيًا كان المصروف له، سواء كان صنمًا أو قبرًا أو شجرًا أو حجرًا أو غير ذلك.

والشرك لا يغفره الله عَزَّجَلَّ؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. والمشرِك لا يدخل الجنة أبدًا، ومأواه النار، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] أي: منعه الله من دخول الجنة منعًا باتًا، وجعل النار مقره ومصيره الأبدي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالشِّرْكَ فَاحْذَرُهُ فَشِرْكُ ظَاهِرٌ ذَا الْقِسْمِ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغُضَرَانِ

وَهُوَ اتَّخَذَ النَّدَّ لِلرَّحْمَةِ مِنْ أَيَّا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانٍ
يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدِّيَانِ

❁ (والشِّركُ فاحذره) هذا يسمونه باب الاشتغال، (الشِّركُ) منصوب على الاشتغال؛ لأن العامل (احذره) اشتغل بالضمير، ويكون المعمول به منصوبًا بفعل مقدر من جنس المذكور، أي: احذر الشرك احذره.

والشرك على نوعين:

شرك ظاهر: وهو الشرك الأكبر، وهذا يخرج من الملة؛ كدعاء غير الله، والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، وغير ذلك من أنواع الشرك. وهذا النوع الذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ.

شرك خفي: وهو شرك أصغر لا يخرج من الملة، ولكنه كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب؛ كقول القائل: لولا الله وأنت، أو لولا الله وفلان، أو الرياء في العبادة، كل هذا من أنواع الشرك الأصغر.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالسَّحَرُ» وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب أن السحر من السبع الموبقات، يعني: المهلكات، فدل على ذم السحر، وأنه موبقة من الموبقات، ومهلكة من المهلكات؛ لأنه نوع من أنواع الشرك، لكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصه بالذكر، وعطفه على الشرك من باب عطف الخاص على العام، من أجل الاهتمام بتجنبه.



قوله: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»: أي نفس المسلم المعصوم، وقتل المعاهد؛ كما في الحديث: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا، لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(١).

وذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً متعمداً، وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات^(٢)؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»، وهي نفس المؤمن، بدليل قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وكذلك قتل الكافر المعاهد، الذي أُعطي العهد والأمان من ولي أمر المسلمين أو من أحد من المسلمين، فلا يجوز لأحد أن يتعدى عليه؛ لأنه معصوم الدم حرم الله قتله، بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»، فقتل المعاهد كبيرة من كبائر الذنوب.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٢١٧ - ٢٢١)، وزاد المسير (٢/ ١٦٧).

فلا يحل النفس التي حرم الله إلا بالحق، يعني: بالقصاص؛ كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١)، فهذه أمور ثلاثة يُقتل فيها المؤمن:

* إذا قتل غيره عمداً عدواناً، فإنه يقتص منه وإن كان مؤمناً.

* إذا زنى وهو محصن، فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت.

* إذا ارتد عن دينه، وفارق الجماعة، فإنه يقتل.

❁ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً عمداً) هذا يدل على شدة حرمة قتل النفس المؤمنة، حيث إن ابن عباس وأبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يريان أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، وأنه لا بد أن ينفذ فيه الوعيد، وليس معنى ذلك أنها يحكمان بكفره، لكن يقولان بأنه لا يُغفر له ذلك، ولا تُقبل له توبة، وأنه لا بد أن يُعذب في النار.

ولكن الجمهور على أن القاتل له توبة؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ ٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا ۖ ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ ۖ ٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فاستثنى التائب من الذين يقتلون النفس التي حرم الله، وإذا كان المشرك والكافر تقبل توبته

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقَاتِل من باب أولى؛ لأن القَاتِل مسلم، فهو أولى بقبول التوبة، وهذا هو الصحيح إن شاء الله.

❁ قال: (وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القَاتِل له توبة فيما بينه وبين الله) أما من ناحية الحكم الشرعي فينفذ عليه القصاص، ويجازى في الدنيا، وأما في الآخرة فأمره إلى الله.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الجواب الكافي أن القتل العمد يتعلق به ثلاثة حقوق:

* حق لله عَزَّجَلَّ.

* وحق للقتيل.

* وحق لأولياء القتيل.

فأما حق الله عَزَّجَلَّ فإنه يسقط بالتوبة، وأما حق القتيل فإنه يبقى على القَاتِل إلى يوم القيامة، والله عَزَّجَلَّ يتولى شأنهما، وأما حق الأولياء فيسقط بالعفو أو بأخذ الدية، أو بالقصاص، فلا يبقى عليه إلا حق القتيل فقط، وقد يعوضه الله عَزَّجَلَّ يوم القيامة بما يشاء من فضله.



قوله: «وَأَكُلِ الرِّبَا» أي: تناوله بأي وجه؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^١ الآيات [البقرة: ٢٧٥].

قال ابن دقيق العيد^(١): وهو يجر لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وفي الحديث: «الرِّبَا نِيفٌ وَسَبْعُونَ حُبًّا، أَيْسَرُهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ»^(٢).

قوله: «وَأَكُلِ مَالِ الْيَتِيمِ» يعني: التعدي فيه، وعبرَ بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

... — الشَّبَحُ — ...

✽ قوله: «وَأَكُلِ الرِّبَا»، الربا: هو زيادة في أموال مخصوصة، وهو نوعان - كما هو معلوم في الفقه - ربا فضل، وربا نسيئة.

(١) هو الإمام العلامة الحافظ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري الشافعي المالكي المصري، ولد سنة خمس وعشرين وستمائة بمدينة ينبع بالحجاز، تفقه على والده، ثم على العز بن عبد السلام، وسمع الحديث من جماعة، له العديد من التصانيف، منها: الإمام، وشرح عمدة الأحكام، وشرح الأربعين النووية، وغير ذلك، توفي سنة اثنين وسبعمائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢٠٧/٩)، والوفاء بالوفيات (١٣٧/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٤٨/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٥/٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُبًّا...».



أما ربا الفضل فهو يشمل الأصناف التي نص الرسول ﷺ على تحريم الزيادة فيها، في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيدٍ»^(١). وألحق جمهور العلماء بهذه الستة ما يُقاس عليها بجامع العلة الموجودة فيها.

وأما ربا النسيئة فهو التأجيل؛ كأن يبيع دراهم حاضرة بدراهم غائبة، أو يبيع طعام بطعام مؤجل، أو يبيع تمر بتمر مؤجل، أو يبيع شعير بشعير مؤجل، أو يبيع ذهب بذهب مؤجل، أو فضة بفضة مؤجلة، أو ملح بملح مؤجل، وكذلك ما يُقاس عليها. فإن هذه الأمور لا يجوز التأجيل فيها، بل لا بد أن تكون يدًا بيد قبل التفرق من المجلس.

والربا من أكبر الكبائر بعد الشرك، فالذي يُقدم على أكل الربا يكون مرتكباً لموبقة من الموبقات والعياذ بالله، أي: مهلكة، وقد توعد الله في القرآن أكل الربا أشد الوعيد؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والنبی ﷺ حذر منه في السنة وبينه، وحدده للأمة،

(١) أخرجه مسلم (١٥٨٧).

ولعن أكله وموكله؛ كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هُمْ سَوَاءٌ»^(١). فالربا من أعظم الكبائر بعد الشرك، فيجب على المسلم أن يحذره، ويتجنبه.

والذي يستحل الربا ويقول: الربا حلال. هذا كافر، أما الذي يأكله ولا يستحله فهذا يعتبر فاسقاً؛ لأنه ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وعليه الوعيد الشديد.

❁ وقوله: «وَأَكُلُ الرِّبَا» ليس المراد به خصوص الأكل، بل يدخل فيه كل الاستعمالات، ومنها: الأكل، واللبس، والإهداء... إلى غير ذلك من الاستعمالات التي يدخل فيها الربا، كلها محرمة بنصوص الكتاب والسنة، وإنما ذكر الأكل لأنه الغالب في وجوه الانتفاع.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَكُلُ مَالِ الْيَتِيمِ»، واليتيم: المراد به من مات أبوه وهو دون البلوغ، فإذا كان له مال فإنه يحفظ حتى يبلغ رشيداً ثم يُسلم إليه ماله؛ لأنه قاصر عن مصالح نفسه وعن النظر في شؤون نفسه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فلا يجوز الاعتداء على مال اليتيم واستغلال ضعفه وصغره، بل

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨).

يُحْفَظُ لَهُ مَالُهُ وَيَنْمَى، فَلَا بَأْسَ مِنْ إِنَائِهِ بِالْمُتَاجِرَةِ وَإِخْرَاجِ زَكَاتِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ
 الْيَتِيمَ رَشْدَهُ وَيُسَلِّمَ إِلَيْهِ، قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
 وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]، أَي: سَيَحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى
 وَتَقْصِيرِكُمْ فِيهَا، أَوْ عَنْ وَفَائِكُمْ وَتَسْذِيدِكُمْ لَهَا بِالْوَفَاءِ وَالتَّمَامِ.



قوله: «وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ» أي: الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

قوله: «وَقَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»: وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرهما: الحافظات فروجهن منه، والمراد: الحرائر العفيفات، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية [النور: ٢٣].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قوله: «وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ» يعني: وقت التحام المعركة، فإذا التحمت المعركة بين المسلمين والكفار، فلا يجوز لمن يطيق القتال أن ينصرف وينهزم، بل يجب عليه أن يقاتل في صف المسلمين، فإن انصرف فهذا هو التولي يوم الزحف، الذي توعد الله عَزَّ وَجَلَّ فاعله بسوء المصير يوم القيامة، قال عَزَّ وَجَلَّ في آية سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾ ❶٥ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، فيجب على من حضر القتال وهو يطيق القتال أن يقاتل مع المسلمين، ويدافع عن الإسلام والمسلمين، ولا يجوز له أن يقعد أو أن ينصرف ويترك القتال.

❖ قوله: «وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ»، أي: العفيفات عن الزنا؛ لأن الإحصان له ثلاثة معان: المحصنات بمعنى المزوجات؛ كما في قول الله عَزَّجَلَّ لما ذكر المحرمات من النكاح: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، ويطلق الإحصان ويراد به الحرية؛ كما في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فالمراد بالمحصنات هنا الحرائر، ويطلق الإحصان على العفيفات؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: العفيفات عن الزنا، وكما في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، المراد بهن العفيفات عن الزنا، فيجوز للمسلم أن يتزوج كتابية يهودية أو نصرانية إذا كانت عفيفة عن الزنا.

ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» المراد بالقذف: رميهن بالفاحشة، من زنا، أو سفاح، والمراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا من الحرائر، ومثلهن الرجال العفيفين.

والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، ولا يرمي أحداً بزنا، أو لواط، وإذا قذفه ولم يُقم البيّنة فإنه يُجلد ثمانين جلدة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ❷ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❖

والشاهد من هذا الحديث: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدَّ السحر من السبع الموبقات، وجعله بعد الشرك بالله لعظم أمره وخطورته على عقيدة المسلم، فدل ذلك على تحريم تعلّم السحر، وتعليمه، والعمل به، وأنه من الإيمان بالجبّ، وأنه كفر يخرج من الملة.



وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدَّثَ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.
وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ^(١).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِةَ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ
اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ»^(٢).

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقتَلَتْ^(٣)،
وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: [عَنْ جُنْدُبٍ]: رواه الطبراني في ترجمة جندب بن عبد الله
البجلي^(٤).

قال الحافظ: (والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان
من وجهين عن الحسن عن جندب الخير: أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف
حتى مات، وقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ... فذكره)^(٥).

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والدارقطني (٤/١٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى
(٨/٢٣٤)، والطبراني في الكبير (٢/١٦١)، و عبد الرزاق في المصنف (١٠/١٨٤)،
والحاكم (٤/٤٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد في المسند (١/١٩٠)، والشافعي في مسنده (ص ٣٨٣).
وأخرجه البخاري بغير هذا اللفظ، ولم يذكر قتل السواحر (٣١٥٦).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٧٨١)، والشافعي في مسنده (ص ٣٨٣)، وابن أبي شيبة في
مصنفه (٥/٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (٨/١٣٦).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٦٥، ١٦٦٦).

(٥) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/٥١٢).

قوله: «حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»: روي بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح. وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة، فقالوا: يُقتل الساحر. ورُوي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب ابن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز. ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر، إلا إن عمل في سحر ما يبلغ الكفر به^(١). قال ابن المنذر: وهو رواية عن أحمد.

والأول أولى؛ للحديث والأثر عن عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير تكبر.

قوله: [وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ: هَذَا الْأَثَرُ رواه البخاري كما قال المصنف، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: [عَنْ بَجَالَةَ]: بفتح الموحدة بعدها جيم [ابن عَبْدِ] بفتحتين، التميمي العنبري بصري ثقة.

قوله: (كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ): وظاهره أنه يُقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد: يستتاب، فإن تاب قبلت توبته، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرک يستتاب وتقبل توبته، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

(١) انظر: الاستذكار (٨/ ١٦٠، ١٦١)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٤٨)، وفتح الباري (٢٢٤/ ١٠).

قوله: [وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ]:
هذا الأثر رواه مالك في الموطأ.

وحفصة: هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد حُنين بن حذافة، وماتت سنة خمس وأربعين.

وقوله: [وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ]: أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر، كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي، قال: كَانَ عِنْدَ الْوَلِيدِ رَجُلٌ يَلْعَبُ، فَذَبَحَ إِنْسَانًا، وَأَبَانَ رَأْسَهُ، فَعَجَبْنَا، فَأَعَادَ رَأْسَهُ، فَجَاءَ جُنْدُبُ الْأَزْدِيُّ، فَقَتَلَهُ^(١).

ورواه البيهقي في الدلائل مطولاً، وفيه: فأمر به الوليد فسجن، فذكر القصة بتمامها، ولها طرق كثيرة.

قوله: [قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]: أحمد هو: الإمام أحمد بن حنبل، أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❦ قوله: (وَعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»)، هذا الحديث رواه الترمذي موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال عقبه: الصحيح أنه موقوف، يعني: على جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والموقوف: ما كان من كلام الصحابي، والمراد بجندب هنا: جندب الخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس هو جندب ابن عبد الله البجلي كما في رواية الطبراني.

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٢٢).

❁ قال: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ» بالهاء أو ضربة بالتاء «بِالسَّيْفِ»، أي: أن حكم الساحر وجوب قتله؛ لأنه يُفسد في الأرض، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، فدل هذا على حكم الساحر، وأنه يُقتل قتل كافر وقتل ردة، ولا يستتاب؛ لأنه وإن أظهر التوبة فإنه لا يكون صادقاً؛ لأنه زنديق والزنديق لا تقبل له توبة، بل يُقتل على كل حال، فإن كان صادقاً في توبته فهذا عند الله، يعني: نحن ننفذ عليه الحد في الدنيا، وأما إذا كان تائباً توبة صحيحة فأمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي حديث بجاله بن عبدة قال: (كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ) هذا قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أمر بقتل والسواحر، فهذا فيه بيان حكم الساحر وأنه يقتل، وأن هذا ما عمم به عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أمرائه في أن يقتلوا السحرة، فدل على وجوب قتل الساحر.

❁ قال: (فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ) يعني: طبقنا خطاب عمر وقتلنا ثلاث سواحر، هذا فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢)، والدارمي في سننه (٩٥)، وأحمد في المسند (١٢٦/٤) من حديث العرياض ابن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ قوله: (وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ) وحفصة: هي بنت عمر بن الخطاب، أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صحابية جليلة، أمرت بقتل جارياتها لما فعلت السحر، فهذا دليل آخر على وجوب قتل الساحر.

❁ قوله: (وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ) كذلك صح عن جندب الأزدى أنه قتل الساحر، وذلك عندما كان أحد أمراء بني أمية عنده ساحر يلعب، ويظهر للناس أنه يقتل شخصاً، فيُظهر للناس أنه قطع رقبتة وفصل رأسه عن جسده، ثم يرجع رأسه جسده فيقوم الشخص حياً، يعني: هذا من باب القمرة والتخييل، فدنا منه جندب الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشتملاً على السيف فقتله، وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، فقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحضرة الأمير إنكاراً للمنكر، وإظهاراً للحكم الشرعي. فدل هذا على قتل الساحر؛ لأن جندب صحابي.

❁ قوله: (قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعني: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث كتب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، وابنته حفصة أم المؤمنين، حيث أمرت بقتل جارياتها، وجندب الأزدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث قتل هذا الساحر الذي كان يلعب عند الأمير، فهؤلاء ثلاثة من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صح عنهم قتل الساحر، وهذا هو مذهب جمهور أهل

العلم والأئمة الثلاثة، أبي حنيفة ومالك وأحمد على أن الساحر يُقتل، عملاً بهذه الأدلة.

وأما الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فإنه يرى التفصيل بأن يُنظر في نوع السحر الذي يستعمله، فإن كان يقتضي الكفر فإنه يقتل، وإلا فإنه يؤدب بغير القتل، ولكن هذا في الحقيقة مذهب مرجوح، ومخالف لما عليه عمل الصحابة.

ويُستفاد من هذه الآثار فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: كُفر الساحر؛ لأن الصحابة قتلوه، وما قتلوه إلا لكفره. هذا مع الآيات التي تدل على كفره؛ كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ يعني: ما استعمل السحر كما يظن اليهود، فدلّ على أن استعمال السحر كفر، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، يعني: سبب كفرهم أنهم ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فدلّ على أن تعليم السحر كفر.

وقال الله عَزَّجَلَّ في الملكين: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا ۖ﴾ ينصحهانه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ يعني: نحن امتحان واختبار، فمن قبل السحر فهو كافر، فلا تكفر بتعلّم السحر.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ يعني: من الملكين، ﴿مَا يَقْرِءُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يؤثر ويفرق بين المرء وزوجه بإحداث البغضاء، فهو دليل لمذهب أهل السنة على أن السحر له حقيقة يؤثر، ولو لم يكن له حقيقة لم يؤثر البغضاء.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: القدري الكوني؛ لأن الإذن على نوعين:

النوع الأول: القدري الكوني، الذي تنتج عنه المقدرات، خيرها وشرها.

والنوع الثاني: الإذن الشرعي المذكور في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: بشره.

وهذا فيه: أن الإنسان يتوكل على الله، ومن توكل على الله كفاه شر السحرة وغيرهم، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به من السحرة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، أي: من شر السواحر.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَنَعَلُمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، دل على أن تعلم السحر ضرر محض، ليس فيه مصلحة؛ لأن الأمور على خمسة أقسام: الأول: ما كان ضررًا محضًا، ومنه السحر، والكفر، والمعاصي.

الثاني: ما كان مصلحة محضة، وهو ما ليس فيه ضرر البتة كالطاعات.

الثالث: ما كان فيه مضرّة ومصلحة، لكن مضرّته أكثر من مصلحته.

الرابع: ما كان مصلحته أكثر من ضرره، كالجهاد في سبيل الله على ما فيه من القتل والجراح.

الخامس: ما تساوى ضرره ومصلحته.

ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: قد علم اليهود أن من تعلم السحر وعلمه ما له نصيب في الجنة، وهذا هو الكافر.

﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمُتُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾، أي: تركوا السحر، وهذا دليل على أن السحر كفر ينافي الإيمان، لكنهم لم يتركوا السحر، بل اتخذوه بدل الإيمان فكفروا.

فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على كفر الساحر، مع عمل الصحابة، وقتلهم للسحرة.

وفي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، دليل على كفر الساحر، حيث نفى فلاحه، والمؤمن يفلح ولو كان إيمانه ضعيفاً، ولو لم يكن عنده إلا ذرة من الإيمان فإنه يُفْلِحُ، وإن عُدْبَ، والله نفى عن الساحر الفلاح مطلقاً، فدلّ على أنه كافر، والعياذ بالله.

وكفر الساحر مطلقاً - كما ذكر الشارح - هو مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة، ومالك، وأحمد، وسبقهم جمع من الصحابة. والإمام الشافعي يرى التفصيل فيما إذا كان سحره يُقتضى الكفر فيقتل، وإلا فلا، ولكن هذا المذهب مرجوح؛ لأنه لا يتم السحر إلا بالتعاون مع الشياطين، والخضوع لهم، وحينئذ يكون كافراً.

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على وجوب قتل الساحر قتل ردة؛ لأنه صحّ عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عمر وحفصة وجندب - ولم يظهر لهم مخالف من الصحابة، فدلّ على وجوب قتله؛ لأنه مرتدّ، والمرتدّ يجب قتله؛ للنصوص الدالة على ذلك.

الفائدة الثالثة: في هذه الآثار دليل على أن الساحر يُقتل ولا يُستتاب؛ لأنه لم يُذكر في هذه الآثار أن الصحابة قتلوه بعدما استتابوه.

وأيضًا إذا تاب في الظاهر فعلم السحر لا يزول من قلبه، فهو وإن أظهر التوبة فإنه يُقتل في كل حال، لأن التوبة لا تزيل السحر من قلبه بعدما تعلّمه، ومن أجل دفع فساد؛ لأنه قد يُظهر التوبة وهو غير صادق، لأجل أن يتّقي القتل.

❁ قال الشارح: (على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك)، أي: يُقتل من غير استتابة، والقول الثاني - وهو رواية عن أحمد، وبه قال الشافعي -: أنه يُستتاب كغيره من المرتدّين؛ لأنّ المشرك يُستتاب، فالساحر أيضًا يُستتاب.

ولكن الرأي الأول أرجح، فيُقتل ولا يُستتاب لِغِلْظِ رَدِّهِ، ولأجل كَفِّ شَرِّهِ عن المسلمين، ولأنّهُ قد يُظهر التوبة ويخدع النَّاسَ. لكن إن كان صادقًا في توبته فهذا فيما بينه وبين الله، أما الحد فلا يسقط عنه، وهذا حكمه في الدنيا.

وعلى كل حال؛ أمر السحر أمرٌ خطير، وفي هذا الزمان كثر شرّ السحرة، وصاروا يستعملون السحر من أجل ابتزاز أموال الناس، واللعب عليهم،

وأمر الأموال أخف من أمر العقيدة، وإن كانت الأموال شيئاً مهماً يجب الحفاظ عليه، ولكن العقيدة أهم، ووجود السحرة في المجتمعات الإسلامية وباء خطير فتاك، يجب علاجه، ويجب القضاء عليه. فالسحرة في العالم في هذا الزمان يقيمون نوادي يجتمعون فيها، ويعقدون مؤتمرات من أجل إهلاك البشر، وتعظم شرهم وخطرهم، فيجب على المسلمين أن يحذروا منهم غاية الحذر، ويجب على من علم بوجود ساحر في البلد أن يبلغ ولاية الأمور عنه.

ولا يجوز الذهاب إلى السحرة وتصديق السحرة، فالسحرة مثل الكُهَّان أو شر من الكُهَّان، وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما مر معنا في الأبواب السابقة - عن إتيان الكهان والعرافين، والسحر شر من الكهانة؛ لأنه من الجبت والطاغوت، ولأن السحرة والمشعوذين قد يأمرؤن من يذهب إليهم بالشرك، فيأمرؤنه بالذبح لغير الله، أو يأمرؤنه بإهانة كتاب الله، إرضاءً لشیاطينهم، فالأمر خطير جداً.

فيجب على المسلمين أن يحذروا من هذا البلاء، ومن هذا الوباء، وهذا الخطر؛ أن لا يتفشى بين المسلمين.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ الْجُبَّتِ وَالطَّاعُوتِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الطَّاعُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجَنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

الخَامِسَةُ: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمُبِيقَاتِ الْمُخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

الثَّامِنَةُ: وُجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟



٢٤ - بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحَرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ، حَدَّثَنِي قَطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْغِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ»، قَالَ عَوْفٌ: الْغِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ، قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ^(١). إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حَبَّانٍ فِي (صَحِيحِهِ) الْمُسْنَدِ مِنْهُ^(٢).

قوله: [قَالَ أَحْمَدُ]: هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغندر، الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومائتين.

وعوف: هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدى البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء - بالتحية - ويقال: حيان بن مخارق، أبو العلاء البصري، مقبول.

وقطن - بفتحيتين -: أبو سهلة البصري، صدوق.

قوله: (عَنْ أَبِيهِ): هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالي، صحابي نزل البصرة.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/٢٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٢/١٣).

قوله: «(إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ)». قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ: التَّفَاوُلُ بِأَسْمَائِهَا وَأَصْوَاتِهَا وَمَمَرُهَا، وَهُوَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ، وَكَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ. يُقَالُ: عَافَ يَعِيفُ، إِذَا زَجَرَ وَحَدَسَ وَظَنَ^(١).

قوله: (وَالطَّرْقُ: الْحُطُّ يُحْطُّ فِي الْأَرْضِ): هَكَذَا فَسَرَهُ عَوْفٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ. قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ: هُوَ الضَّرْبُ بِالْحَصَى الَّذِي يَفْعَلُهُ النِّسَاءُ^(٢).
قوله: (وَالْجِبْتُ) أَي: السَّحَرُ.

قوله: (قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ): قُلْتُ: ذَكَرَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَفْلَحٍ أَنَّ فِي «تَفْسِيرِ بَقِي بْنِ مَخْلَدٍ» أَنَّ إِبْلِيسَ رَنَّ أَرْبَعَ رَنَاتٍ: رَنَةً حِينَ لَعَنَ، وَرَنَةً حِينَ أَهْبَطَ، وَرَنَةً حِينَ وَلَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَنَةً حِينَ أَنْزَلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ^(٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ الضِّيَاءُ فِي «الْمَخْتَارَةِ»: الرنين: الصوت^(٤).

وَقَدْ رَنَّ يَرَنَّ رَنِينًا، وَهَذَا يَظْهَرُ مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (المسند منه): لَمْ يَذْكُرُوا قَوْلَ عَوْفٍ.

(١) انظر: مادة (عيف) في: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٣٠)، ولسان العرب (٩/ ٢٦١).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢١).

(٣) انظر: الروض الأنف للسهيلى (١/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١/ ١٠٩)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٦٦).

(٤) أخرج الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٦/ ١٨٨) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ: صَوْتُ مِزْمَارٍ عِنْدَ نِعْمَةٍ وَصَوْتُ رَنَّةٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ». وانظر: النهاية في غريب الأثر (٢/ ٢٧١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ)، لما ذكر في الباب الأول حكم السحر وحكم الساحر، ناسب أن يذكر في هذا الباب أنواع السحر كما جاءت في الكتاب والسنة؛ لأن من نهى عن شيء يجب عليه أن يبينه للناس حتى يتجنبوه، وأما كون الإنسان ينهى عن الشيء وهو لا يبينه ولا يوضحه للناس فهذا من القصور في العلم والتعليم، فمن نهى عن الشرك يبين ما هو الشرك وما هي أنواعه، ومن نهى عن الربا يبين ما هو الربا وما هي أنواعه، ومن نهى عن السحر يبين ما هو السحر وما هي أنواعه، حتى يكون الناس على بصيرة وعلى بينة، وهذا ما صنعه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب، فإنه تفسير للباب الذي قبله وتوضيح له.

ومما حمل المصنّف -أيضاً- على عقد هذا الباب: أن هناك خوارق تجري على أيدي بعض الناس خارجة عن الأسباب المعروفة، مثل: المشي على الماء، والطيران في الهواء، والإخبار عن الأشياء الغائبة، وإحضار الشيء البعيد. وهذه الخوارق إن جرت على أيدي الصالحين فهي كرامات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والكرامات ثابتة عند أهل السنة والجماعة، تجري على أيدي الصالحين إكراماً لهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد تجري على أيدي الكفرة، والفسّاق، والمنافقين، فتكون هذه الخوارق شيطانية، يفتنون بها الناس، ويلبسون بها على الناس، وهي إما سحر يستخدم خلاله هؤلاء الفسّاق الشياطين، فتخدمهم الشياطين بهذه الأمور التي ليست من مقدور بني آدم، وإما أن لها أسباباً خفية لم تظهر للناس من حيل، يعملونها.

فمن أجل التباس الحق بالباطل في هذه الخوارق أراد الشيخ أن يعقد هذا الباب؛ لبيان أن هذه الخوارق من السحر، وليست من الكرامات.

فيجب أن نعرف الفرق بين الكرامات وخوارق الشيطان، لئلا يلتبس الأمر، ولئلا يتخذ المخرفون والمنحرفون الخوارق الشيطانية دليلاً على الولاية لله عزَّ وجلَّ، فيعبدون هؤلاء من دون الله عزَّ وجلَّ.

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ» أي: أنواع من السحر، وهذا الحديث رواه أحمد رحمه الله في مسنده بسنده إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، موثقاً بالرجال الثقات.

والجبت: هو السحر؛ كما سبق في الباب الذي قبل هذا أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾: الجبت هو السحر، والجبت كلمة عامة تشمل أشياء منها السحر، بل السحر أعظم أنواع الجبت.

والعيافة: فسرّها الراوي، وهو عوف بن أبي جميلة البصري المعروف بعوف الأعرابي، قال: (الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ) يعني: التطير، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بأنواع من الطيور إذا رأوها، أو سمعوا أصواتها؛ كالغراب، والبومة وهي الهامة، فإذا رأوا الطيور تطير على صفة معينة عندهم، أو سمعوا صوت بعضها، كرهوا ذلك، وتراجعوا عما عزموا عليه من سفر وغيره.

❁ قال: (وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُحْطُّ فِي الْأَرْضِ)، وهو من عمل السحرة، فهم يخطون على الأرض، ثم يثرون على هذه الخطوط الودع، وأغلب من

يفعل هذا النساء، ويقولون: سيحدث كذا أو سيحصل كذا، وهذا من عمل الشيطان؛ لأنه من ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فهذا الذي يخطط يستخدم الشياطين ويخضع لهم، فيخبرونهم بأشياء غائبة عن الناس، وهذا نوع من السحر.

فهذه أنواع من السحر، ولا تزال باقية عند بعض الجهلة، أو بعض المنحرفين، وبعض المخرفين، يستخدمونها ويستعملونها، فلا يزال بعض الناس يتطيرون بالأشخاص، ويتطيرون بالطيور، ويتطيرون بالأصوات، ويتشاءمون بها، ولا يزال بعضهم يخط الخطوط في الأرض وينثر عليها الودع، ويدعي أنه يعلم الغيب.

والجبت: تقدم في تفسير عمر أنه السحر، وفي تفسير الحسن البصري هنا: أنه رنة الشيطان، يعني: صوت الشيطان عند الجزع، ذلك أن الشيطان عندما يرى الخير يجزع ويصوت، فتجتمع إليه جنوده من الشياطين، ويدبرون المكر والحيل لبني آدم. وقد جاء أنه رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنه حين أهبط إلى الأرض، وذلك في عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَام، ورنه حين ولد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورنه حين نزلت فاتحة الكتاب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلما حدث خير للمسلمين جزع وتسخط؛ لأنه لا يريد الخير بني آدم، فيجتمع إليه جنوده فيتدارسون المكر والكيد لبني آدم.



وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ^(١).

قوله: [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ]: وكذا صححه النووي والذهبي، ورواه أحمد وابن ماجه^(٢).

قوله: «مَنْ اقْتَبَسَ»: قال أبو السعادات: قبست العلم، واقتبست: إذا علمته. انتهى^(٣).

قوله: «شُعْبَةً» أي: طائفة من علم النجوم، والشعبة: الطائفة، ومنه الحديث: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٤)، أي: جزء منه.

قوله: «فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ»: المحرم تعلمه. قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد في المسند (٢٢٧/١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد في المسند (٢٢٧/١).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٤).

(٤) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٩٣/٣٥).

قوله: «زَادَ مَا زَادَ» أي: كلما زاد من تعلم النجوم زاد في السحر، وفي الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، فإن ما يعتقدونه في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل، والله أعلم.

... — الشَّيْخُ — ...

وهذا أيضا نوع آخر من أنواع السحر: التنجيم، وهو نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية، فيقولون: حدث كذا بسبب طلوع النجم الفلاني أو غروب النجم الفلاني، فينسبون الحظوظ والنحوس إلى النجوم، ويقولون: فلان نجمه منحوس، أو فلان نجمه محظوظ، أو غير ذلك من نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية.

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً» يعني: تعلم، والشعبة: الطائفة أو القطعة «مِنَ النُّجُومِ» يعني تعلم شيئا من التنجيم «فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ»، دل على أن التنجيم نوع من أنواع السحر، وإذا كان نوعا من أنواع السحر فإنه حرام وشرك، ويجب أن تُنسب الأمور إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يدبر الكون بما فيه من نجوم وأفلاك، وهو الذي يُجري الحوادث في الأرض.

فالواجب أن تنسب الأمور إلى قضاء الله وقدره لا إلى غيره، هذا هو التوحيد، وأما نسبة الأمور إلى غير الله، فهذا شرك، ومن ذلك نسبة الأمور إلى النجوم، والنجوم ليس لها تدبير، وليس لها أي عمل، إنما هي مسخرات

❁ وقوله: «زَادَ مَا زَادَ» أي: كلما زاد من تعلم هذا التنجيم، فإنه يزيد إثمه وكفره وشركه، فمقل ومستكثر.

فلا يجوز تعلم التنجيم الذي عليه المشركون؛ لأنه شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وادعاء لعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.



وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِيهِ»^(١).

قوله: [وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِيهِ»]:
هذا الحديث ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث أبي هريرة، وعزاه للنسائي، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وحسنه ابن مفلح^(٢).

قوله: [وَلِلنَّسَائِيِّ]: هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن، صاحب السنن الكبرى والمجتبى وغيرهما، روى عن محمد بن المثنى، وابن بشار، وقتيبة، وخلق، وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وله ثمانون سنة.

قوله: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ»: قال عَرَبَجَلٌ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث: هو دون التفل.

وقوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِيهِ» أي: من علق قلبه بشيء، بحيث يرجوه ويخافه، وكله الله إلى ذلك الشيء، ومن قصر تعلقه على الله وحده كفاه ووقاه؛ كما قال عَرَبَجَلٌ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٠٧/٢) والمجتبى (١١٢/٧)، والطبراني في الأوسط (١٢٨/٢).

(٢) انظر: الآداب الشرعية (٦٨/٣، ٦٩).

عَزَّجَلْ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ومن تعلق قلبه بغير الله في رجاء نفع أو دفع ضرر فقد أشرك.

... — الشَّبَحُ — ...

وهذا نوع خامس من أنواع السحر، وهو: النفث في العقد، وهذا من عمل السحرة، وهذا هو السحر الحقيقي بأن يعقد الساحر العقد ثم ينفث فيها من ريقه مستعيناً بالشیطان، ثم يحصل ما يحصل من تأثير السحر بإذن الله الكوني القدري، فالله عَزَّجَلْ خلق كل شيء، ومنها الخير والشر، فإذا عمل الساحر هذا العمل بأن عقد العقد ونفث فيها بنية خبيثة واستعانة بالشیطان حصل ما يحصل من تأثير السحر بإذن الله؛ كما قال عَزَّجَلْ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: قدره ومشيتته سبحانه، لا بإذنه الشرعي فإن الله لا يشرع السحر، بل قد نهى عنه، ولكن هذا الإذن القدري الكوني.

والله عَزَّجَلْ أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستعيذ بالله من شر النفاثات في العقد، والنفاثات جمع نفاثة، وهي المرأة التي تعقد عقد من الخيوط، ثم تنفخ فيها بقصد الإساءة إلى الغير وإيصال الشر إليه، وهذا اصطلاح بينهم وبين الشياطين، فهم يخضعون للشياطين ويستعينون بهم، ثم يحصل ما يحصل بقضاء الله عَزَّجَلْ وقدره، والذي يعصم من هذا هو الاستعاذة، كما في سورة الفلق، ففيها رقية وفيها استعاذة من السحر وأهله، وفيها استعاذة من الحسد ومنه العين، فهي سورة عظيمة، حصن لكل مسلم، ولهذا تُشرع قراءة آية

الكرسي وسورتي الإخلاص والمعوذتين بعد كل فريضة، وبعد الفجر ثلاث مرات وبعد المغرب ثلاث مرات، هذا من أجل التحصن بالله من شرور الخلق ومن شرور السحر وغيره.

❁ فقلوه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ» هذا فيه بيان نوع من أنواع السحر، بل هذا أشد أنواع السحر، وهو النفث في العقد، وقوله: «عَقَدَ عُقْدَةً، ثُمَّ نَفَثَ» فيه مجموع أمرين: العقد لأجل تتعدد الأمور، ثم ينفث فيها من ريقه الخبيث مستعيناً بالشیطان، فيحصل بذلك الضرر على ذلك الغير الذي لم يتحصن بالله.

فهذه عقوبة لمن لم يتحصن بالله عَزَّجَلَّ، ولم يستعذ به، ولم يقرأ هذه السور وهذه الآية العظيمة، فالإنسان إذا برز لعدوه ولم يتخذ الوقاية أصيب، لكن إذا اتخذ الوقاية وتحصن فإنه لا يضره العدو، والتحصن من السحر والحسد إنما يكون بذكر الله عَزَّجَلَّ، فلا يُنجي من شياطين الجن والإنس إلا ذكر الله، وذلك بالورد الشرعي في الصباح والمساء.

❁ قوله: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ»: (من) لفظة عموم، أي: كل من سحر فقد أشرك، فدل على أن السحر كله شرك، وفي هذا ردُّ على الذين يقولون: إن السحر ينقسم إلى قسمين: منه ما هو شرك، ومنه ما هو محرم وليس بشرك - كما نُسب إلى الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ - فالحديث هذا رد على هذا القول؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستثن شيئاً، بل قال: «مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ» وهذا عام لكل أنواع السحر.

❁ قوله: «فَقَدْ أَشْرَكَ» لأن السحرة يستعينون بالشياطين، ويعبدونهم من دون الله، ويخضعون لهم، فعند ذلك يحصل ما يحصل بإذن الله.

❁ قوله: «وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ» هذه الجملة الأخيرة في الحديث تعني أن من علق قلبه بشيء وخافه ورجاه وكل إليه، فإن علق قلبه بالله، وتوكل على الله، يرجو رحمته ويخاف عذابه، فإن الله يحميه ويقيه ويكفيه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن توكل على غير الله، واعتمد على غير الله، وعلق قلبه بغير الله، وُكل إلى ذلك الغير، وتخلى الله عَزَّجَلَّ عنه وخذله؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

فالذين يتعلقون على القبور والأموات، ويتعلقون بالمشعوذين والمخرفين، ويتعلقون بالسحرة ويخافون منهم ويرجونهم، يكلهم الله إلى هؤلاء والعياذ بالله، فيصابون بالأمراض والأوهام، ويصابون بالهموم والأحزان، والخوف من كل شيء والقلق من كل شيء، عقوبة لهم، أما من توكل على الله وتعلق قلبه بالله فإن الله يكفيه كل شيء.

فهذا فيه التحذير من التعلق بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، فلا تعلق قلبك إلا بالله خوفاً وخشية ورجاء ورغبة وأبشر بالخير، ولا تلتفت إلى غير الله فيكلك الله إلى غيره، ويسلط عليك شياطين الإنس والجن فتذل وتخوفك، قال عَزَّجَلَّ:

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٧٥].

فهذا أصل عظيم، وهو أن من تعلق شيئاً وكل إليه، فإن تعلقت بالله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْمِيكَ وَيَكْفِيكَ، وإن تعلقت بغير الله خُذَلْتَ وخسرت، ولا أحد يقدر أن ينجيك مما تقع فيه، فتبقى في حيرتك ومرضك وفي فساد عقلك ودينك، حتى تتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتستعِذ بالله من شر كل ذي شر من الخلق.



وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قوله: [وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ].
قوله: «أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»: بفتح المهملة وسكون المعجمة، ثم فسرنا بقوله: «هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»، فأطلق عليها العضة؛ لأن النمام يعمل عمل الساحر.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: (يُفْسِدُ النَّمَامُ وَالْكَذَّابُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي سَنَةٍ)^(٢).

وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: (وَمِنْ السَّخْرِ السَّعْيُ بِالنَّمِيمَةِ وَالْإِفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ)^(٣).

قال ابن حزم: (وَاتَّقُوا عَلَى تَحْرِيمِ الْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ فِي غَيْرِ النَّصِيحَةِ الْوَأْجِبَةِ)^(٤).

وفيه دليل على أنها من الكبائر.

قوله: «النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»: ومنه الحديث: «فَضَّيْتُ الْقَالَةَ بَيْنَ النَّاسِ»^(٥)، أي: كثرة القول، وإيقاع الخصومة.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

(٢) انظر: حلية الأولياء (٧٠ / ٣).

(٣) انظر: الفروع (١٧٠ / ٦)، والإنصاف للمرداوي (٣٥٢ / ١٠)،

(٤) انظر: مراتب الإجماع (ص ١٥٦).

(٥) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٠٥، ٢٥٠٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ =

... — الشَّيْخُ — ...

العضة - بإسكان الضاد والهاء^(١) -: السحر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أي: جعلوه سحرًا.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أراد أن يبين لأصحابه خطر النميمة، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بصيغة السؤال والاستفهام من أجل أن ينتبهوا؛ لأن الأمور المهمة ينبغي أن تلقى على الطلاب بصيغة السؤال حتى ينتبهوا لجوابها، أما أن يُذكر الشيء لهم بدون سؤال، فقد لا ينتبه كثير منهم، فهذا فيه التعليم على طريقة السؤال والجواب خصوصًا في الأمور المهمة.

❦ قال: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ مَا الْعُضَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ»، أي: هل أنبئكم ما هو السحر؟ هو النميمة، والنميمة: هي الوشاية بين الناس، أي: نقل الحديث بين الناس على وجه الإفساد، فيذهب إلى فلان ويقول: إن فلانًا يقول فيك كذا وكذا، ويضرك، ويتكلم فيك، حتى يملأ صدره بالحق على أخيه، ثم يذهب إلى الآخر ويقول له مثل ذلك، حتى يفسد بين الاثنين، فيفسد بين الزوج وزوجه، ويفسد بين الأخ وأخيه، ويفسد بين الوالد وولده، ويفسد

= صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ صُبْحَ رَابِعَةٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ مُهَلِّينَ بِالْحَجِّ، لَا يَخْلُطُهُمْ شَيْءٌ، فَلَمَّا قَدِمْنَا أَمَرْنَا، فَجَعَلْنَا عُمْرَةً وَأَنْ نَحِلَّ إِلَى نِسَائِنَا، فَفَشَتْ فِي ذَلِكَ الْقَالَةُ... الحديث.

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥٩/١٦): «هذه اللفظة رويها على وجهين: أحدهما: العضة بكسر العين وفتح الضاد المعجمة، على وزن العدة والزنة، والثاني: العضة بفتح العين وإسكان الضاد، على وزن الوجه، وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا، والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه، والأول أشهر في كتب اللغة».

بين العلماء وبين عامة الناس، حتى يخلخل المجتمع ويوقع بينهم العداوة بنميمته والعياذ بالله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّهِينَ﴾ [القلم: ١٠]، يعني: يمشي بالنميمة.

فالنميمة كبيرة من كبائر الذنوب، وهي نوع من السحر، لماذا؟ لأنها تعمل عمل السحر، فكما أن السحر يفرق بين الناس ويفرق بين الأحبة ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فكذلك النميمة أشد من السحر، تحدث من الفرقة والعداوة ما هو أشد من السحر، ولذلك قيل في الأثر: (يُفْسِدُ التَّمَامُ وَالْكَذَّابُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي سَنَةٍ)؛ لأن النميمة أشد فسادًا من السحر، والنامون مجرمون ومفسدون في المجتمع، والنميمة حرفة أهل النفاق، وحرفة أهل الشر، وما أكثرهم! لا أكثرهم الله، يفسدون بين الناس بالنميمة ونقل الحديث، والواجب على المسلم ألا ينقل الكلام بين الناس، حتى لو سمع من أحد أنه يتكلم في فلان فلا يجوز له أن ينقل هذا إلى المتكلم فيه، فكيف إذا كان كاذبًا؟ لا شك أن الأمر أشد.

وقد مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١)، فالنميمة من أسباب عذاب القبر والعياذ بالله.

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهنا فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّمِمة فقال: «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» أي: الذين ينقلون الأقوال بين، فيقولون: فلان قال فيك كذا، وكذا، وفلان قال فيك كذا وكذا، حتى تمتلئ الصدور بالعداوة والحقد والبغضاء.

والواجب على من سمع شيئاً من الكلام أن يكتمه، وأن ينصح للمتكلم وينهاه عن الغيبة، ويبين له حرمة أعراض المسلمين، أما أن ينقل ما سمع ويبلغه للمقول فيه، فهذا هو النِّمِمة الخسيسة والعياذ بالله. فهذا فيه بيان نوع من أنواع السحر وهي النِّمِمة التي يتساهل فيها الناس، ويتفكهون بها في مجالسهم.

أما الغيبة إذا كان المقصود منها النصيحة؛ كأن تحذر من فلان من أجل أن لا يغتر به الناس، أو استشارك أحد الناس فيمن يريد مشاركته، أو يريد أن يزوجه، فيجب أن تبين له ما فيه من العيوب من باب النصيحة، وليس هذا من باب الغيبة. كذلك قد تشتكي على ولي الأمر ظالماً ظلمك، وتذكر من صفاته أنه ظالم، وأنه كذاب، وأنه كذا وكذا، من أجل إنصافك منه وأخذ الحق منه، فهذا ليس من الغيبة، إنما هذا من أجل إظهار الحق، أما إذا تكلمت في حقه، وبيّنت عيوبه لغير مصلحة، فهذه هي الغيبة المحرمة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [الحجرات: ١٢].

كذلك من النصيحة بيان الجرح والتعديل في الرواة، هذا لا شك أن فيه ذكر معائبهم، ولكن هذا لمصلحة الأمة؛ لأجل حفظ الشريعة فلا يدخل فيها

كذب، أو يكذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالواجب تبين حالة الراوي، وما فيه من الاتهام والبدعة، وغير ذلك، من أجل أن لا يُغتر بروايته، وذلك من باب النصيحة.



وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(١).

قوله: [وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»]، البيان: الفصاحة والبلاغة.

قال ابن عبد البر: تأوله طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ مدح البيان. قال: وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله: (هَذَا وَاللَّهِ السَّحْرُ الْحَلَالُ). انتهى^(٢).

والأول أصح، والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس؛ كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيينٌ لباطله والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغييرٍ

مأخوذ من قول الآخر:

تقولُ هذا مجاجُ النحلِ تمدحه وإن تشا قلتَ ذا قِيءُ الزُّنابيرِ

مدحًا وذمًّا وما جاوزتَ وصفهما والحقُّ قد يفتريه سوءُ تَغْيِيرِ^(٣)

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه مسلم

(٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١٧٤/٥).

(٣) نظم ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، الشاعر المشهور، في ديوانه (ص ٢٢٦٩)، أبياتاً تشبه هذه الأبيات، فقال:

في زخرف القول ترجيح لقائله والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغييرٍ

تقول هذا مجاجُ النحلِ تمدحه وإن تعِب قلتَ ذا قِيءُ الزُّنابيرِ

مدحًا وذمًّا وما جاوزتَ وصفهما سحرُ البيانِ يُري الظلماءُ كالنورِ

وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص ٢٢٥).

قوله: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»: هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، فيستميل به قلوب الجاهل، حتى يُقبل الباطل وينكر الحق، وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه، فهذا هو الممدوح، وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل، وعظمت حسناتهم.

... — الشَّيْخُ — ...

وهذا أيضًا نوع من أنواع السحر وهو البيان، والمراد بالبيان هنا: البلاغة والفصاحة في الكلام، فالبلاغة والفصاحة نوع من أنواع السحر؛ لأنها تؤثر في عقول المستمعين، فإذا كان المتكلم بليغًا في كلامه فإنه يؤثر على المستمعين ويجذبهم، فإذا استخدم البيان في الحق والدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ كان محمودًا، ويسميه بعضهم: (السحر الحلال)، وهذا من باب التشبيه بالسحر في تأثيره، وإلا فهو في الحقيقة ليس سحرًا، وهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِطِيهِ من يشاء من عباده، ومن ذلك ما أعطاه عَزَّجَلَّ لرسله وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - من البلاغة والفصاحة في الكلام؛ لأجل الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، وإقامة الحجة على العباد.

كذلك إذا وهب الله عَزَّجَلَّ الخطيب أو المتحدث أو المحاضر في الإذاعة أو في أي مجال فصاحة وبلاغة، واستخدمها في نشر الحق والدعوة إلى الله، كان ذلك عملًا محمودًا، فهو خير خصه الله به، واستعمله في طاعة الله عَزَّجَلَّ،

بخلاف الثرثار الذي لا يحسن الكلام، فهذا ينفر الناس منه ولا يستمعون إلى كلامه؛ لأن كلامه يثقل عليهم فلا يتلذذون به.

أما إذا استخدم البلاغة والفصاحة للشر والدعاية للباطل والتحذير من الخير، فهذا - والعياذ بالله - السحر المحرم؛ لأن السحر يقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، وكذلك الفصاحة والبلاغة قد يستخدمها الإنسان في تنفير الناس من الخير وترغيبهم في الشر، فيصغون إليه لحسن كلامه وفصاحة منطقه، فيؤثر فيهم، فيزهدون في الخير ويرغبون في الشر، وهذا هو شأن دعاة الضلال، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وما أحسن قول الشاعر:

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِّبَاطِلِهِ وَالْحَقُّ قَدْ يَغْتَرِيهِ سَوْءُ تَغْيِيرِ

فالفصيح إذا استعمل فصاحته في نشر الشر، كان مذموماً، وعمله هذا هو من السحر المحرم، أما إذا استخدمه في الخير ونشر الدعوة إلى الله، فهذا هو المحمود من البيان، فالبيان والفصاحة لا يُذمان مطلقاً، ولا يُمدحان مطلقاً، بل يُذم منهما ما كان يستعمل في الشر، ويمدح ما كان يستعمل في الخير.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَقْدَ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (الأُولَى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ) يعني: من السحر، ففيه بيان نوعين من أنواع السحر، وهما: الطيرة، والطرق وهو الخط في الأرض.

❁ قوله: (الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ)؛ لأن عوف -أحد رواة الحديث- فسر العيافة بأنها زجر الطير، والطرق الخط في الأرض، فعرفنا إذاً ما هي العيافة وما هو الطرق، وهذه فائدة عظيمة.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ)؛ فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ» المراد به التنجيم المحرم، الذي فيه نسبة الأمور إلى الكواكب، أما التنجيم الذي هو معرفة الحساب فهذا لا بأس به.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَقْدَ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ)، يعني: أن العقد مع النفث في الخيوط بقصد الشر من السحر، بل هو أصل السحر، قال عَزَّجَلَّ: ❁ وَمِنْ شَرِّ النَّفْثَاتِ فِي الْعُقَدِ ❁ [الفلق: ٤].

❁ قوله: (الْحَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ) أي: من السحر، سُميت سحرًا لأنها تفسد بين الناس، فهي تعمل عمل الساحر، بل هي أشد من عمل الساحر.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ)، فالفصاحة التي تستخدم لنشر الشر والدعاية للباطل هي من السحر؛ لأنها تعمل عمل السحر، فتصور الحق باطلاً، والباطل حقاً، كما هو حال كثير من الكتاب في الصحف والمجلات، وحال كثير من مقدمي البرامج في الإذاعة والتلفاز، الذين يزينون الباطل والعري والسفور، ويرغبون المرأة في التمرد على أخلاقها وعلى دينها، بحجة أن هذا من المدنية والتقدم، فيصيغون العبارات وينمقونها، لتجذب من يستمع إليهم، فتؤثر فيه عباراتهم بسبب فصاحتها وبلاغتها، كل هذا من البيان الباطل الذي يُقصد به الدعاية للشر ونشر الفساد.



٢٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ]، الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرًا، وأما بعد المبعث فإنهم قلّوا؛ لأن الله حرس السماء بالشهب.

وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يُخبر به الجنُّ مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس، يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن وليًا لله، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٨].

... — الشَّيْخُ — ...

مناسبة هذا الباب لما قبله: أن ما قبله في بيان السحر وحكم الساحر، وبيان بعض أنواع السحر، وهذا في حكم الكُهَّان، وذلك للتشابه بين الكُهَّان والسحرة؛ لأن كلا من السحر والكهانة عمل شيطاني يُنافي العقيدة ويضادها.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب يبيِّن العقيدة الصحيحة، ويبيِّن ما يضادها من الشركيات والكفريات أو ينقصها من البدع والمحدثات. وهذه هي الطريقة الصحيحة المتمشّية مع الكتاب والسنة؛ أنه يبيِّن الخير ويوضّحه،

ثمَّ يبيِّن ما هو ضده من الشر، من أجل أن يكون المسلم على حذر، فلا يكفي أن يعرف الإنسان الخير فقط، بل لابد مع معرفته للخير أن يعرف الشر؛ من أجل أن يتجنبه، وإلا إذا لم يعرف الشر فإنه حريٌّ به أن يقع فيه وهو لا يدري، بل قد يظنه خيراً.

❁ قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُفَّانِ وَنَحْوِهِمْ) يعني: ما جاء من الأدلة من الكتاب والسنة على أنه لا يجوز الذهاب إلى الكهان، ولا تصديقهم، ولا العمل بقولهم، وقوله: (وَنَحْوِهِمْ) يعني: ومن كان مثلهم من العرافين والمنجمين والمشعوذين؛ لأن هذا الباب يشمل كل ما هو من نوع الكهانة، من الذين يفسدون العقيدة، ويشوشون على المسلمين عقيدتهم. فهؤلاء جميعاً يجب الابتعاد عنهم والإنكار عليهم، ويجب منعهم من مزاوله هذه الأباطيل التي يأكلون بها أموال الناس بالباطل، ويفسدون على الناس عقائدهم، ولو تسموا بالمعالجين، أو تسموا بالأطباء الشعبيين، أو غير ذلك من الأسماء، فهذا لا يغير الحقيقة في أنهم كذبة دجالون، وأنهم يستخدمون الجن ويستعينون بالشياطين، فلا يجوز الركون إليهم، ولا يجوز تسميتهم بالفنانين أو أصحاب الفن أو غير ذلك من التستر عليهم، أو إفساح المجال لهم في مجتمع المسلمين، بل تجب محاربتهم ومحاصرتهم، ومن ثبت عليه تعاظم هذه الأمور يؤخذ ويقدم إلى المحكمة الشرعية للحكم عليه بما يناسبه؛ لردعه ومنعه وكف شره عن المسلمين.

فلا يجوز التساهل في هذه الأمور، فإنه في عصرنا الحاضر قد راجت سوقهم، وانتشر باطلهم باسم المعالجين، وباسم الرقية، وأنهم يرقون المريض، وصاروا يعلنون عن أنفسهم ليروجوا باطلهم، فهم يجعلون لهم عناوين وأرقام الهواتف للاتصال عليهم في داخل المملكة وخارجها، بل يتشبهون بالأطباء ويفتحون لهم عيادات طبية، ويصير لهم ناس ينظمون المراجعين عليهم مثل ما يكون الناس عند الطبيب، وهم في الحقيقة كذبة خونة، عملاء للشياطين وعملاء للجن، فيجب الحذر منهم، وعدم الاغترار بأساليبهم وأباطيلهم.

والكهان: جمع كاهن، والكاهن هو الذي يدعي علم الغيب، وذلك أنه يأخذ عن الشياطين، ثم يخبر الناس بما تخبره به الشياطين، ولا يحصل له ذلك إلا إذا كفر بالله واستجاب للشياطين بما يريدونه منه يخدمونه، فيخبرونه بأشياء لا يعرفها، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

هؤلاء هم الكهان، ويظن بعض الناس أنهم مهرة، وأنهم أطباء، والبعض الآخر يظن أنهم أولياء الله، وأن هذه كرامات ظهرت على أيديهم، وهم في الحقيقة أولياء للشيطان؛ لأنهم خضعوا للشيطان وعصوا الله، فالشياطين تخدمهم بما يريدون في مقابل كفرهم بالله؛ لأجل تضليل الناس وإفساد عقائدهم، وهذا ما يريده الشيطان.

وأما العراف: فهو الذي يدعي علم الغيب، لا باستخدام الجن وإنما بأمور يعملها؛ كالحسد والظن والتخمين، وهو كذاب، فيدعي معرفة المرض، ويدعي معرفة مكان الشيء المسروق، وأين يوجد، فيظنه الناس صادقاً فيما يقول.

وأما المنجم: فقد سبق لنا أنه الذي يعتقد أن النجوم لها تأثير في الحوادث، فينسب الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية، ويزعم أن النجوم هي التي تسبب أو تؤثر في الحوادث، ويعلق بها الحظوظ والنحوس، ويقول: النجم الفلاني طيب، والنجم الفلاني منحوس.

كل هؤلاء متآمرون على عقيدة التوحيد، ويجب الحذر منهم، والبعد عنهم، وتكذيبهم وعدم الذهاب إليهم.



رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١).

قوله: [عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي؛ لأنه ذكر هذا الحديث في «الأطراف» في مسندها. قال البغوي: (العَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدَّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ)^(٢). (وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ)، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وَقِيلَ: الذي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ. وقال شيخ الإسلام: (العَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنْجِمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ)^(٣). وقال أيضًا: (والمُنْجِمُ يدخل في اسم العراف)^(٤). وقال ابن القيم: (من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه: عائفًا وعرافًا)^(٥).

قوله: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»: قال النووي وغيره ما معناه: أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزية بسقوط الفرض عنه. ولا بد من هذا

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠) من طريق نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس فيه: «فَصَدَّقَهُ».

(٢) انظر: شرح السنة (١٨٢/١٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٧٣/٣٥).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٩٣/٣٥).

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة (٢٢٩/٢).

التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. انتهى ملخصاً^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث في صحيح مسلم لكن دون قوله: «فَصَدَّقَهُ»، وقد رواه الإمام أحمد وغيره بهذه اللفظة «فَصَدَّقَهُ»^(٢).

والحديث يدل على تحريم الذهاب إلى العرافين، وسبق لنا تعريف العراف: أنه الذي يدعي معرفة علم الغيب، أو يخبر عن الأمور الغائبة بواسطة الحدس والتخمين وأعمال يعملها، فهذا هو العراف، كما بينه البغوي فيما يأتي. أما شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: (الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمَنْجَمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ)، فهو اسم أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره.

❁ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» هذا وعيد يدل على تحريم الذهاب إلى العرافين، فإذا ذهب الإنسان إلى عراف ليسأله عن شيء فإنه لا تقبل له صلاة مدة أربعين يومًا، وهذا عقوبة عظيمة، بمعنى أنه ليس له ثواب في صلاته، يصلي أربعين يومًا وليس له عليها أجر ولا ثواب، وهذا وعيد شديد، فكيف إذا صدقه؟ فإن صدقه كان الأمر أشد، وسيأتي في حديث أبي هريرة الذي بعده أنه يكفر بها أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٠).

❖ قوله: (عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المبهمة هنا: أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١).

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢) وَلَا بِيَّاعٍ يَبْلُغُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مُوقُوفًا^(٣).

قوله: [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: وفي رواية أبي داود: «أو امرأة - قال مسدد: امرأته - حائضًا، أو أتى امرأة - قال مسدد: امرأته - في دبرها، فقد بريء مما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قوله: [وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»]: هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي، وقد رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا.

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والدارمي (١١٣٦).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٤٢٩/٢)، والحاكم في المستدرک (٤٩/١) وصححه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٣٢٣/٥)، والدارمي في سننه (١١٣٦). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢١٧/١٠): (وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندين جيدين).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٢٨٠/٩).

قوله: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: قال القرطبي: (المراد بالمنزل: الكتاب والسنة).

قوله: [وَلَأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مُوقُوفًا]: أبو يعلى اسمه: أحمد بن علي بن المثني الموصلي، الإمام صاحب التصانيف، كالمسند وغيره. روى عن يحيى بن معين، وأبي خيثمة، وأبي بكر بن أبي شيبة، وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمائة.

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا، ولفظه: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

وفي هذه الأحاديث التصريح بكفره.

... — الشَّبَحُ — ...

تبين لنا فيما سبق أن الكاهن هو الذي يدعي علم الغيب بواسطة الشياطين الذين يسترقون السمع، فيتعامل معهم بطاعتهم فيما يأمرونه به من الكفر والشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم يخبرونه عن الأشياء التي تخفى عليه مقابل كفره بالله وإفساده لدينه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، هؤلاء هم الكهان، فمن ذهب إلى الكاهن وسأله عن شيء من أموره ثم صدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القرآن والسنة، فلا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن، هما ضدان لا يجتمعان؛ لأن

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٥٦/٥).

القرآن حرم الكهانة وحذر من الكهان، فلو كان مصداقاً للقرآن لامتنع من الذهاب إلى الكهان، فلا يجتمع هذا وهذا.

وليس شرطاً أن يذهب إليهم بنفسه، بل لو اتصل عليهم بالهاتف، أو كتب لهم خطاباً وأرسلهم إليهم، وجاءه الجواب وصدق، فالحكم واحد، سواء ذهب بنفسه، أو سألهم بواسطة الهاتف، أو بواسطة الكتابة، أو بواسطة شخص يرسله إليهم، فالمهم إنه يسألهم ويصدقهم، فإذا سألهم وصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا وعيد شديد يدل على أنه لا يجتمع الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بما يقوله الكاهن.

وفي رواية لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الحاكم وأصحاب السنن، قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ...» الحديث، هذا مثل الحديث الذي قبله إلا أنه جمع بين الاثنين: العراف والكاهن، فجعل حكمهما سواء، وأن من أتاهما وسألها وصدقها فإنه يكون قد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

❁ قوله: (وَلَا يَبِيْعَلِي بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا) والموقوف: ما كان من كلام الصحابي، والمرسل: ما كان من كلام التابعي، أو ما رواه التابعي عن الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذا يؤيد ما سبق.



وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تَكْهَنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سَحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رَوَاهُ الْبَزَارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ^(١)، وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا....» إِلَى آخِرِهِ^(٢).

قوله: «[لَيْسَ مِنَّا]» دليل على نفي الإيمان الواجب، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر.

قوله: [رَوَاهُ الْبَزَارُ]: هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار البصري، صاحب المسند الكبير، روى عن ابن المشي، وخلق، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث أيضًا مثل الأحاديث التي قبله، بل فيه زيادة وعيد، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا» فيه البراءة ممن فعل تلك الأمور التي جاء النهي عنها في هذا الحديث، وهذا يدل على شدة الوعيد؛ لأن الرسول إذا تبرأ من شيء دل ذلك على أن هذا الشيء كبيرة من كبائر الذنوب، والكبائر قد تكون شركًا، وقد تكون كفرًا، وقد تكون فسقًا، فالكبيرة في التوحيد والعقائد تكون شركًا أو كفرًا، أما الكبيرة في المعاصي التي دون العقيدة فهذه تعتبر فسقًا.

(١) أخرجه البزار (٥٢/٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٢/٤).

❁ قوله: «مَنْ تَكْهَنَ» يعني: فعل الكهانة، «أَوْ تُكْهَنَ لَهُ» يعني: ذهب إلى الكاهن وطلب منه أن يتكهن له؛ ليخبره عن شيء أو يحببه عن سؤال، فسوى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين مَنْ فَعَلَ الكهانة وَمَنْ فُعِلَتْ لَهُ الكهانة.

❁ قوله: «أَوْ تُطَيَّرَ» أصل التطير التشاؤم بالطيور، لكنه يشمل التشاؤم في كل شيء، فالذي يتشاءم بالأشياء، ويعتقد فيها أنها تضره، ويترك ما عزم عليه من أجل الطيرة، فقد أشرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه خاف من غير الله عَزَّجَلَّ أن يضره، كمن يعتقد أنه سيصيبه شيء، أو أنه لن ينجح في عمله إذا رأى نوعاً من الطيور تطير على هيئة معينة، أو رأى الغراب أو البومة، أو سمع صوت الغراب، أو سمع صوت بعض الطيور، فيترك ما عزم عليه لأجل ذلك، كذلك إذا رأى بعض الأشخاص أو بعض الدواب تشاءم وترك ما عزم على فعله، هذا هو التطير، وهو شرك بالله؛ لأنه خاف من غير الله أن يضره، ولم يتوكل على الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: «أَوْ تُطَيَّرَ لَهُ» يعني فُعِلَتْ الطيرة من أجله؛ كمن يقول: يا فلان انظر في الطيور، انظر في كذا، علمني إذا حصل شيء، أنا أريد أن أتزوج، أو أريد أن أسافر، أو أريد أن أشتري البضاعة الفلانية، تطير لي وانظر الطيور وأعلمني بما كان على خلاف عاداتها، مما يدل على الشؤم، ويدل على توقع الضرر.

فهو لا يُحسن الطيرة بنفسه، لكنه يسأل المتطير، ويطلب منه أن يتطير له، فالحكم سواء، مَنْ فَعَلَ الطيرة وَمَنْ فُعِلَتْ لَهُ.

❁ قوله: «أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ» السحر: سبق لنا في باب السحر أنه كفر بالله عَزَّجَلَّ، كذلك من سُحر له، كمن يقول: يا فلان أريدك أن تسحر لي فلانًا، أو سُحر له دون أن يطلب من الساحر ورضي به؛ لأن رضاه بالسحر معناه أنه رضي بالكفر، أو قال: يا فلان أنا مسحور، اعمل لي سحر يرفع عني هذا السحر الذي عندي، أي: طلب منه أن ينجيه من سحر أصابه، وهذا يأتي بيان حكمه في باب النشرة.

فدل هذا الحديث على أن السحر حرام، وأن الإنسان لا يجوز له أن يتعالج بالسحر؛ لأنه إذا تعالج بالسحر فقد أقر السحر، والسحر كفر بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه من عمل الشيطان، ويكون رضاه به وطلبه له مشاركة منه في هذا الكفر والعياذ بالله، فلا يجوز الذهاب إلى السحرة لعمل السحر، ولا أن يُطلب منهم فك السحر؛ لأن هذا طلب للكفر، وموافقة على الكفر.

❁ قال: «وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» هذا مثل الأحاديث السابقة يدل على تحريم الذهاب إلى الكهان، وسؤالهم وطلب المعلومات منهم؛ لأن هذا رضي بالكفر واستعمال للكفر، والمسلم لا يجوز له أن يرضى بالكفر، ولا أن يشارك الكفرة في أعمالهم، فليس للإسلام معنى ولا للتوحيد معنى إذا كان المسلم يتلبس بهذه الأعمال ويرضى بها.



قَالَ الْبَغَوِيُّ: (الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدَّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) ^(١).

وَقِيلَ: (هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُنْغِيَّاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ).

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنْجِمِ، وَالرَّمَالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ) ^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ» ^(٣).

قوله: [قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ»]: هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف.

قوله: (مَا أَرَى): يجوز فتح الهمزة، بمعنى: لا أعلم، ويجوز ضمها، بمعنى: لا أظن، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يُسمى علم الحروف، وهو الذي فيه الوعيد، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

(١) انظر: شرح السنة (١٢/ ١٨٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧٣/ ٣٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦/ ١١)، والبيهقي في الكبرى (١٣٩/ ٨) وشعب الإيمان (٣٠٦/ ٤)، وابن أبي شيبة (٢٤٠/ ٥).

قوله: (وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ) أي: ويعتقدون أن لها تأثيرًا في باب التنجيم.

وفيه: الحذر من كل علم لا تعلم صحته من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ورد النهي عنها، والتحذير من قرب أهلها وسؤالهم وتصديقهم فيما أخبروا به من باطلهم، فما أكثر من يغتر بهذه الأمور!

... — الشَّيْخُ — ...

ثم نقل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كلام أهل العلم في تعريف الكاهن والعراف، قال: (قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ...) يدعي: أي من باب الفراسة، وهو كذب وتدجيل؛ لأنه ما يعلم الغيب ولا يعلم مكان الضالة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا جالس في مكانه، ويعمل أعمالًا، ثم يقول: ضالتك التي تسأل عنها في مكان كذا وكذا، أو هي عند فلان، وهو ما راح ولا جاء، وإنما يعتمد على حدسه وتخمينه.

❁ قال: (وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ) أي: لا فرق بينهما، وهذا قريب جدًا، فالكاهن والعراف سواء؛ لأن كلاّ منهما يخبر عن الأشياء الغائبة بواسطة الشياطين، فكلاهما يعملان لحساب الشياطين وإن اختلفا في الاسم.

❁ قال: (وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ) يعني: ما في النفس، فيقول: أنت نويت أن تفعل كذا وكذا، أنت تفكر في كذا وكذا، وهذا لأنه يتعامل مع الشياطين، والشياطين لها مقدرة غير مقدرة الإنسان، فتستطيع أن تعلم شيئًا

من هو اجس الإنسان؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد يكون الشيطان هو الذي وسوس للإنسان ودس عليه هذه الهواجس، ثم يخبر عميله من الإنس بها، وعميله من الإنس يخبره، ويقول: أنت في نفسك كذا وكذا، أنت في خاطرك كذا وكذا. وهذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، هو سبحانه الذي يعلم ما في الصدور، وهذا العلم من اختصاص الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يجريه معجزة على يد أنبيائه ورسله صلوات الله عليهم، من باب المعجزة والدلالة على صدقهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرَضَيْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧]﴾، أما غير الرسل فلا يمكن أن يعرفوا ما في ضمائر الناس وما في نفوسهم، لكن لأن الشيطان هو الذي يوسوس للإنسان، ثم يخبر عميله من الإنس أن فلاناً لديه هاجس في كذا وكذا، ثم عميله من الإنس يقول له: أنت في نفسك كذا، أنت وتفكر في كذا. من أجل أن يروج على الناس أن هذا عنده خبرة وعنده معرفة، أو أن هذه كرامة له؛ لأنه ولي من أولياء الله.

❁ قال: (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلكَاهِنِ، وَالْمُنْجِمِ، وَالرَّمَالِ) يعني: العراف كلمة عامة تشمل العراف والكاهن، وتشمل المنجم الذي يتعامل مع علم النجوم، وتشمل الرمال الذي يخطط في الأرض وينثر الودع، ويدعي أنه سيحدث كذا وكذا من أمور الغيب، فاسم العراف شامل هؤلاء كلهم؛ لأنهم جميعاً يدعون معرفة أمور الغيب.

❖ قال: (وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ) وكذلك كل من يدعي علم الغيب يشمله اسم العراف؛ لأنه يدعي المعرفة بالأمر الخفية التي لا يعلمها إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

❖ قال: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ») وهذا في باب التنجيم سيأتي في باب خاص، والمنجم - كما سبق - هو الذي ينسب الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية والنجوم، فيقول: إذا طلع النجم الفلاني يحصل غلاء في الأسعار، أو تنتشر أمراض وأوبئة، أو إذا غاب النجم الفلاني ترخص الأسعار، أو ينزل المطر، أو غير ذلك، فنسبة ما يجري في الكون إلى طلوع النجوم أو غروبها، وأنها تؤثر في الكون هذا كفر بالله عَزَّجَلَّ؛ لأن الذي يتصرف في الكون هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس للنجوم تصرف في الكون، ولا لأحد تصرف في الكون إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا شرك في الربوبية.

والمنجمون لهم طرق عديدة، ومن طرقهم: عمل الطلاسم، حيث يكتبون حروفاً مقطعة بترتيب معين، ويقولون: الحرف هذا يدل على كذا، والحرف هذا يدل على كذا. هذا أيضاً يدخل في باب ادعاء علم الغيب.

❖ قوله: (يَكْتُبُونَ: أَبَا جَادٍ) وهي الحروف التي يعرفها الناس بأبجد هوز، فمن استعمل هذه الحروف من أجل ادعاء علم الغيب فهو منجم، ومن استعملها لأجل ربط الجمل فقط، فقرة ألف، فقرة باء، فقرة جيم، فقرة دال، فقرة هاء، كما هو عمل الناس اليوم، يعني يميزون الجمل والفقرات

بعضها عن بعض بحروف الجمل هذه، هذا لا بأس به؛ لأن هذا لم يدع علم الغيب، ولم يستعملها في العقيدة، وإنما استعملها فقط لربط الجمل، مثلما تقول: أولاً، وثانياً، وثالثاً، ورابعاً، يجوز أن تستبدل ذلك بقولك: ألف، باء، جيم، دال، هاء... إلى آخره، هذا ليس فيه شيء.

❁ قوله: (مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ) أي: ليس له نصيبٌ من الجنة عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومعناه: أنه كافر؛ لأن الذي ليس له عند الله مِنْ خَلْقٍ هو الكافر؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ فِي السَّحَرَةِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فهذا حكم عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على أصحاب الطلاس، الذين يكتبون الحروف المقطعة، وينظرون في النجوم، ويقولون: سيحدث كذا.

وهذا من ادعاء علم الغيب، وهو طريقة من طرق الكهانة أو العرافة أو التنجيم أو السحر، سَمَّيَاهَا شَيْئاً، لا يَهْمُنَا الْأَسْمَاءُ، الذي يَهْمُنَا النَتِيجَةُ والحكم الشرعي.

والحاصل: أن هذا بابٌ عظيم؛ لأنه يعالج أمراضاً واقعة في العالم اليوم، لا أقول في العالم الكافر، لأنه ليس بعد الكفر ذنب، لكن في العالم الإسلامي، وربما يسمونه أعمالاً رياضية وفنوناً تشكيلية، أو يسمونه بأسماء تدلُّ على تبجيلهم، وعلى أنهم أصحاب علم، وأصحاب خبرة، أو أشد من ذلك يدعون أنهم أولياء الله، وأن هذه كرامات تدلُّ على أنهم من أولياء الله، وهذه ليست كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية؛ لأن الكرامات هي التي تجري على أيدي الصالحين المستقيمين على الكتاب والسنة، وليس لهم فيها

تصُرّف منهم، وإنما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الخوارق الشيطانية فهي تجري على أيدي كفر مشعوذين.

وأيضًا الكرامات لا صنع للآدمي فيها، وإنما يجريها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بخلاف هذه الخوارق الشيطانية، فهي حِيلٌ وَمَهَنٌ وَحِرَفٌ وتدجيل يعملونه هم، ويتظاهرون أمام الناس أنه بسبب هذه الأشياء حصل ما حصل، وهو في الحقيقة إنما هو من عمل الشياطين الذين لا يراهم الناس.

فهذا الباب إذا تأملته وجدت أن الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ لم يكتبه من فراغ، وإنما كتبه ليعالج به أمراضًا متفشية، وازدادت الآن بحكم تأخر الزمان، وبحكم فُشُوُّ الجهل، وبحكم تقارب العالم وارتباط بعضه ببعض، وسريان الشرور في العالم بسرعة.

فيجب على طلبة العلم أن ينتبهوا لهذه الأمور، ويقوموا بالتحذير منها وإنكارها؛ لأن أكثر الناس سُذَّجٌ لا يعرفون هذه الأمور، فيغترون بأصحابها، وأيضًا هم محتاجون للعلاج من الأمراض، فيقولون: هذه فيها منافع، وفيها علاج، ولا يدرون أن المضار التي فيها أكبر من المنافع، إن كان فيها منافع، أو يدخلونها في قسم الفنون والمهارات.

فيجب على طلبة العلم أن يهتموا بهذا الأمر، وأن يتفهموا هذا الأمر، ويتفقهوا فيه، ويعالجوا هذه الأمراض المتفشية التي تقضي على العقيدة، وتقضي على الدين، والعياذ بالله.



فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: لَا يَجْتَمِعُ تَصَدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.
 الثانية: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.
 الثالثة: ذِكْرُ مَنْ تُكْهِنَ لَهُ.
 الرابعة: ذِكْرُ مَنْ تُطَيَّرُ لَهُ.
 الخامسة: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.
 السادسة: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادَ.
 السابعة: ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: لَا يَجْتَمِعُ تَصَدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ)
 لا يجتمع تصديق الكاهن وتصديق القرآن؛ لأن القرآن كذب الكهان وحذر
 منهم، فالذي يصدقهم يكون معارضا للقرآن، فهما ضدان لا يجتمعان أبداً.
 ❖ قوله: (الثانية: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ)؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... فَقَدْ كَفَرَ
 بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فإذا صدقه وأقره على ذلك، واعتقد أن
 عمله هذا صحيح، صار كافراً مثله.

❖ قوله: (الثالثة: ذِكْرُ مَنْ تُكْهِنَ لَهُ) أن الحكم أيضاً يشمل من طلب
 أن تُفعل له هذه الأشياء، وكذلك يشاركه في هذا الحكم من فُعلت له ورضي
 بها.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ مَنْ تُطَيَّرُ لَهُ) وهو من لا يجيد التطير ولا يحسنه، ولكن طلب ممن يحسنه أن يفعله له، وأقره على ذلك، فهذه له نفس الحكم أن يكفر بتصديقه وتكذيب القرآن.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ) يعني: عُمِلَ له السحر بطلبه؛ كأن يطلب من الساحر أن يعمل له سحراً يسحر به فلاناً، أو يطلب منه عمل سحر لينقض به ما أُصيب به من السحر، وهو ما يُعرف بحل السحر بسحر مثله، وهذا أيضاً لا يجوز؛ لأنه رضى بالسحر وإقرار له.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ) إذا تعلمها من باب الاعتقاد بها فهذا هو المحذور، أما من تعلمها من أجل معرفة حروف الهجاء، أو من أجل ضبط الجمل، فلا بأس بذلك، هذا أمر مباح.

❁ قوله: (السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ) على تفسير البغوي أن هناك فرقاً بين الكاهن والعراف، الكاهن: من يدعي علم الغيب بواسطة الجن والشياطين، وأما العراف: فهو من يدعي علم الغيب بواسطة الحدس والتخمين والمقدمات التي يعملها، وهو لا يستخدم للجن، ولكن على تفسير شيخ الإسلام أن الحكم واحد، وأن العراف أشمل من الكاهن والمنجم، العراف اسم لكل من يدعي علم الغيب بأي وسيلة؛ لأن علم الغيب لا أحد يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو من أطلعه الله على شيء منه معجزة له، وهم



الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أما من عداهم فليس لأحد أن
 يدعي أنه يعرف علم الغيب، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].



٢٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»^(١).

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ]: بضم النون، كما في القاموس^(٢).

قال أبو السعادات: (النشرة ضرب من العلاج والرقية يعالج به من كان يظن أن به مسًا من الجن، سميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويُزال)^(٣).

قال ابن الجوزي: (النشرة: حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر)^(٤).

قوله: [عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»]. رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»].

هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في سننه، وحسن الحافظ إسناده^(٥).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود (٣٨٦٨).

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١٤/ ٢١٧).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٥٣).

(٤) انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٤٠٨).

(٥) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

قوله: (سُئِلَ عَنِ النَّشْرَةِ): الألف واللام في النشرة للعهد، أي: النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، وهي من عمل الشيطان.

... — الشَّيْخُ — ...

قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّشْرَةِ) أي: من الحديث وأقوال أهل العلم، والنشرة: بضم النون المشددة مأخوذة من النشر وهو التفريق، فيقال: نشر الشيء إذا فرقه، وأما في الشرع فهي كما قال ابن القيم: (حل السحر عن المسحور). هذه هي النشرة، سُميت نشرة لأن فيها تفريق للسحر عن المسحور.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأنه لما ذكر في الأبواب السابقة السحر، وذكر شيئاً من أنواع السحر، أراد أن يبين في هذا الباب كيف يُعالج المسحور؛ لأن السحر إصابة وله أثر يعاني منه المسحور، فيحتاج إلى علاج، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ»^(١)، والناس سيطلبون العلاج، فلا بد أن يُبين لهم العلاج المباح من العلاج المحرم، وقد تقدم لنا أن السحر كفر، وأن الساحر يجب قتله، فيما إذا يُعالج السحر؟ لا بد من معرفة ذلك؛ لئلا يذهب الناس إلى الأمور المحرمة.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/٣٧٧، ٤١٣)، وأبو يعلى في مسنده (٩/١١٣)، والطبراني في الكبير (١٠٣٣١)، والحاكم في المستدرک (٤/٢١٨) وصححه، والبيهقي في الكبرى (٩/٣٤٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا الباب لبيان ما يباح وما يحرم في هذا طلب العلاج من السحر؛ لأن الناس في أشد الحاجة إلى معرفة هذا، ولكن ليس كل إصابة تصيب الإنسان تسمى سحراً، فكثير من الناس يتوهمون أن كل ما أصاب الإنسان في عقله أو في تفكيره يكون سحراً، وليس كذلك، فقد يكون سحراً، وقد يكون وسوسة، وقد يكون مرضاً عصبياً، وقد يكون جنوناً.

فما كان مرضاً عصبياً فهو يعالج عند الطب النفسي، وما كان وسوسة وتخيل من الشيطان، فهو يعالج بالذكر والورد والاستعاذة بالله من الشيطان، وما كان جنوناً وصرعاً فهذا يُعالج بما يُعالج به المصاب بمس الجن.

فالْحَاصِلُ أن ليس كل ما يحصل من هذه الأمور يكون سحراً، وهناك دجالون ومحتالون يستغلون مثل هذه المناسبات لابتزاز أموال الناس بالباطل، ويقولون لكل من جاءهم: إن فيك سحراً، والذي سحرك فلان، قد ربط فيك السحر، وربط فيك الجن. ويدجلون على الناس من هذا الكلام الباطل، فأرعبوا الناس وأرهبوهم وأخافوهم، بل أوقعوا الفتنة بينهم؛ لأنه لما يقول للشخص: فلان سحرك، أو فلان فعل فيك كذا، أو ربط فيك الجن، فإنه سيغضب على هذا الشخص، وسيكون بينهما عداوة، وربما يحصل قتل ويحصل شرور.

فهم في الحقيقة مشعوذون ودجالون وكذبة يريدون أكل أموال الناس بالباطل، ويدعون أنهم يعالجون الناس.

فالحاصل أن هذا الأمر يجب العناية به، ويجب التثبت فيه، ويجب الحذر من هؤلاء الدجالين المحتالين الذين أوقعوا في الناس الرهبة والخوف، وأكلوا أموال الناس بالباطل.

أما إذا صح أنه مصاب بالسحر فهذا هو موضع البحث الآن، والسحر سبق بيان أن منه ما هو حقيقة، ومنه ما هو تخيل ومن عمل الشيطان، فهو واقع وموجود في الناس من قديم، لكن لا بد من التحري ولا بد من التأكد. فإذا تأكد الإنسان أن ما أصابه سحر فإنه حينئذ يطلب العلاج على أيدي أهل الحذق والمعرفة والعقيدة الصحيحة ومعرفة التوحيد، ولا يذهب إلى المشعوذين والدجالين، الذين يحتالون على الناس ويأكلون أموالهم بالباطل.

ولذلك ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي هذا الباب حديثاً عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر أجوبة لأهل العلم من أئمة السلف؛ كالإمام أحمد، والحسن البصري، وابن القيم، فالأمر مهم جداً.

❁ قال: (عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النَّشْرَةِ)،
النشرة: حل السحر عن المسحور - كما سيأتي - والألف واللام في النشرة للعهد، أي: النشرة المعهودة في الجاهلية، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»، وإذا كانت من عمل الشيطان فهي محرمة، ولا يجوز تعاطيها ولا العمل بها.

فهذا الحديث دليل على تحريم النشرة التي هي من عمل الشيطان؛ لأن الناشر والمنتشر - كما سيأتي في كلام ابن القيم - كل منهم يتقرب إلى الشيطان

بما يجب، فالشيطان يرفع عنهم ما أوقع فيهم من عمله وكيدته ومكره، وسبق لنا أن السحر من عمل الشياطين، يؤذي به عباد الله، فإذا تقربوا إليه وخضعوا له وأطاعوه فإنه يرفع عنهم ما عمله فيهم، فيغتر الناس بذلك، فحل السحر بسحر مثله هذا لا يجوز؛ لأنه من عمل الشيطان، وهو كفر بالله عزَّ وجلَّ.

❦ قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ)، هذا الحديث في مسند أحمد وهو بسند جيد ورواه أبو داود في سننه أيضًا، فالحديث موجود في المسند والسنن، وقال أبو داود: (سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ) لأن أبا داود من تلاميذ الإمام أحمد، وقد روى عنه أحاديث، وروى عنه مسائل وأجوبة، وله كتاب مطبوع اسمه: «مسائل أبي داود»، يتضمن أجوبة للإمام أحمد، وقد كان تلاميذ الإمام أحمد يدونون إجاباته ويسمونها مسائل، مثل: مسائل أبي داود، مسائل حنبل، مسائل عبد الله بن الإمام أحمد، مسائل المروزي تلميذ الإمام أحمد، ثم جاء الخلال فجمع أجوبة الإمام أحمد وفتاويه التي أفتى بها في جامع واحد يُسمى «جامع الخلال»، وهو سفر ضخمة يتكون من أربعين مجلدًا أو أكثر، لكنه ضاع ولا يوجد منه إلا بعض قطع وبعض المجلدات، ولو وجد هذا الجامع لكان فيه علم غزير، ولكن الحمد لله أغلب فقه الإمام أحمد موجود في كتب المذهب الحنبلي.

وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يكره أن يُكتب عنه شيء، وإنما روى أصحابه مذهبه عنه مشافهة، من الدروس التي كان يلقيها، ومن الأمالي التي كان يملئها، والأجوبة التي يجيب بها، فهم تلقوه عنه تلقياً، وليس للإمام

أحمد كتاب في الحديث سوى المسند، وله في العقيدة: الرد على الجهمية، أما الفقه فلم يكتب فيه الإمام أحمد كتاباً، مثل ما كتب الشافعي «الأم»، ومثل ما كتب الإمام مالك «الموطأ»، إنما كان أصحابه يروون عنه مذهبه تلقياً منه.

الحاصل: أن الإمام أحمد سُئل عن النشرة فأجاب بقوله: (ابْنُ مَسْعُودٍ) أي: الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ) أي: يكره حل السحر عن الساحر الذي كان معهوداً في الجاهلية، ومعنى يكرهه: يحرمه؛ لأن الكراهة في عرف السلف معناها التحريم، وأما الكراهة في عرف المتأخرين، فمعناها: كراهة التنزيه، فقوله: (ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ) أي: يُحرم (هَذَا كُلَّهُ) وهو النشرة، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا الْجَوَابَ، وهو تحريم النشرة التي هي حل السحر عن المسحور، وهذا محمول على النشرة بالسحر، مثل ما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»، فهذا هو المحرم، وهذا هو الذي من عمل الشيطان.



وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، أَوْ يُؤَخَّذُ عَنْ امْرَأَتِهِ، أَيْحُلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُّ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ». انتهى^(١).

قوله: [عَنْ قَتَادَةَ]: هو ابن دعامه - بكسر الدال - الدوسي، ثقة فقيه حافظ، من أحفظ التابعين وأئمة التفسير، قالوا: إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: (رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ) - بكسر الطاء - أي: سحر، يُقال: طُبَّ الرجل - بالضم - إذا سحر.

قوله: (يُؤَخَّذُ عَنْ امْرَأَتِهِ) - بفتح الواو مهموزاً، وتشديد الحاء المعجمة، وبعدها ذال معجمة - أي: يُحبس عن امرأته لا يصل إلى جماعها، والأخذه - بضم الهمزة -: الكلام الذي قاله الساحر.

قوله: (أَيْحُلُّ): بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

قوله: (أَوْ يُنْشَرُّ) بتشديد المعجمة.

قوله: (لَا بَأْسَ بِهِ) يعني: أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يُحمل على نوع من النشرة لا يُعلم أنه سحر.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (وَفِي الْبُخَارِيِّ) يعني: في صحيح البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

❖ قوله: (عَنْ قَتَادَةَ) هو: قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِي، نسبةً إلى جده

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب: هل يستخرج السحر؟ (ص ١٠٨٨). ووصله الطبري في التهذيب، والأثر في السنن؛ كما في تعليق التعليق (٤٩/٥).

سدوس، وكان من أكبر علماء التابعين، ويُقال: إنه وُلد أكمه، يعني: ليس له عيان. وكان نادرًا في الحفظ والذكاء والفقه رَحِمَهُ اللهُ، حتى كان من كبار التابعين.

❁ قال: (قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ) هو: سعيد بن المسيَّب، أحد أعلام التابعين، وأحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى في زمانهم، وهو عالم المدينة وفتيها.

❁ قال: (رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ) يعني: أن قتادة بن دِعامَة سأل شيخه سعيد ابن المسيَّب عن رجل به طِب. والطِبُّ معناه: السحر، يقال: مطبوب يعني: مسحور. وهذا من باب التَّفَاوُل؛ لأنَّ الطِبَّ معناه العلاج، كما يقولون للديغ: سليم، من باب التَّفَاوُل بالشفاء.

❁ قوله: (أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ) أي: يُمنع عن جماع امرأته، فلا يستطيع جماعها بسبب السحر.

❁ قوله: (أَيُحْلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ) يُحْلُّ وينشَّرُ بمعنى واحد، يعني: هل يجوز أن يُعمل لهذا المطبوب أو هذا المؤخَذ ما يرفع عنه ما أصابه؟ فأجابه ابن المسيَّب رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (لَا بَأْسَ) أي: لا بأس أن يُحْلَّ عنه أو يُنَشَّر.

❁ وقوله: (إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ) أي: أن حلَّ السحر يراد به الإِصْلَاح وإزالة المرض عن الإنسان، بخلاف السحر نفسه فإنَّها يُراد به الضَّرر.

❁ قال: (فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَلَمْ يَنْفَعْهُ) أي: أن الشارع جاء بإباحة ما ينفع وتحريم ما يضر، والنُّشْرَةُ من القسم الثاني، أي: من الشيء النافع.



وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السَّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»^(١).
 قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: النَّشْرَةُ: حُلُّ السَّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: حُلُّ
 سِحْرِ بَمَثَلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ
 النَّاسُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ فَيَبْطُلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.
 وَالثَّانِي: النَّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالْأَذْوِيَةِ، وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا
 جَائِزٌ^(٢).

قوله: [وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السَّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ»]: هذا
 الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد.
 والحسن: هو ابن أبي الحسن، واسمه يسار بالتحية والمهملة، البصري
 الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه إمام من خيار التابعين، مات سنة عشر ومائة
 وقد قارب التسعين.

ومما جاء في صفة النشرة الجائزة ما روى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن
 ليث بن أبي سليم، قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله
 عَزَّوَجَلَّ، تُقْرَأُ فِي إِنْاءٍ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الْمَسْحُورِ: الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ
 يُونُسَ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾
 إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار. ذكر ذلك ابن حجر في تعليق التعليق (٥/٤٩). وانظر:
 فتح الباري (١٠/٢٣٣)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/٦٤).
 (٢) انظر: إعلام الموقعين (٤/٣٩٦)، وزاد المعاد (٤/١٢٤-١٨١).

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ [الأعراف: ١١٨-١٢١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَحَرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] ^(١).

وقال ابن بطال: (في كتاب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله) ^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

لما سُئِلَ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ عن النشرة قال: (لَا يَحُلُّ السَّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ). فهذه أجوبة الأئمة، بعضهم أجاز، وبعضهم منع، فابن مسعود يُحْرِمُ وسعيد بن المسيب يبيح، والحسن البصري يُحْرِمُ، اختلفت أجوبة الأئمة عنها، ولكن هذا الاختلاف ليس من باب التضاد والتناقض، وإنما كُلُّ يقصد معنى غير ما يقصده الآخر، يبين هذا كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث فَصَّلَ القول في هذا، وبين مقاصد هؤلاء الأئمة بأجوبتهم، وجمع بين كلامهم الذي ظاهره الاختلاف. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (النَّشْرَةُ: حَلُّ السَّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ) هذا تعريفها، ثم قال: (وَهِيَ نَوْعَانِ: حَلُّ سِحْرِ بَمِثْلِهِ، وهو النشرة التي كانت في الجاهلية، كانوا يذهبون إلى السحرة ويطلبون منهم حل السحر، فيعمل لهم السحرة السحر بإذنهم وطلبهم).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٧٤). وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨١) وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٢) انظر: مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٣)، وفتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

❁ قال: (فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ) الناصر: وهو الذي يعمل السحر، والمنتشر: وهو الذي يطلب ذلك، (إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ) من الكفر بالله والشرك بالله وطاعة الشيطان، (فَيُطْلَعُ عَمَلُهُ) فيرفع الشيطان عمله عن الإنسان؛ لأن السحر من عمل الشيطان، فإذا تقرب إليه بنو آدم طلباً لرفع السحر فإنه يرفعه؛ لأنه من عمله، وهذا الذي جاء فيه النهي، إذا ذهب الناس إلى الساحر ليحل عنهم السحر فهذا هو المحرم، وهذا هو الذي من عمل الشيطان، وهذا الذي يُحمل عليه قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يَحُلُّ السَّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ)، وهذه النشرة التي من عمل الشيطان كما في الحديث الذي في أول الباب.

وفي هذا رد على الذين يطلبون العلاج المحرم من الكهان أو المشعوذين ويقولون: وجدنا عندهم فائدة، وشفى المريض والحمد لله.

فوجود الفائدة ليس دليلاً على الإباحة؛ لأن الأصل تحريم الذهاب إلى هؤلاء الكهان والدجالين والمشعوذين، فما كل ما يفيد يباح حتى لا يكون معه ضرر راجح، وقد يكون في الشيء نفع من وجه، وضرر من وجه آخر، فإذا كان الضرر راجحاً أو مساوياً فهذا حرام، أما إذا كانت المصلحة أرجح والضرر مرجوح فهذا مباح، فكونهم يجدون عند ذهابهم إلى الساحر شفاء، هذا لا يدل على الإباحة؛ لأن هذا ابتلاء وامتحان، والضرر الذي يحصل عليهم من الشرك والكفر أعظم من الفائدة التي يجدونها.

فيستفاد من حديث الباب وأقوال الأمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنه لا يجوز الذهاب إلى السحرة، ولا أن يُطلب منهم عمل سحر يطلوا به سحرًا آخر أصاب المسحور؛ لأن هذا لا يحصل إلا بالكفر والشرك بالله عَزَّجَلَّ، والتقرب للشيطان بما يجب.

❁ قال: (وَالثَّانِي: النَّشْرَةُ بِالرُّقِيَّةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالْأَدْوِيَّةِ، وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ) وهذا النوع الذي يُحمل عليه كلام سعيد بن المسيب، حيث قال: (لَا بَأْسَ بِهِ) يحمل على الرقية التي ليس فيها سحر، كالرقية بالقرآن، بأن يُقرأ على المطبوب سورًا من القرآن، فتُقرأ عليه فاتحة الكتاب وتكرر لأنها رقية عظيمة، وتقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتان، وتقرأ عليه آيات السحر التي جاءت في القرآن، مثل قوله عَزَّجَلَّ في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ۝١١٩ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١١٦-١٢٢]، وكذلك الآيات التي في سورة يونس: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُ بِالسَّحْرِ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ [يونس: ٨١-٨٢]، والآيات التي في سورة طه وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۝﴾ [طه: ٦٩]. تُقرأ هذه الآيات على المصاب، أو تقرأ في ماء، وينفث القارئ في الماء،

ثم يشرب منه المصاب، ويصب على جسمه منه، ويشفى بإذن الله، وذلك مع صدق النية والإخلاص لله، واعتقاد أن الشفاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا حصلت هذه الدعوات المباركات، وهذه الرقية من كتاب الله، مع عقيدة سليمة، ومع نية صادقة وحسن ظن بالله، فإن الله يشفي المريض؛ لأن هذا توحيد لله عَزَّوَجَلَّ، ودعاء لله، والله سبحانه وعد أن يستجيب لمن دعاه، وجعل في القرآن شفاء ورحمة، لكن الشأن في صدق النية والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الراقي والمراقي.

أما إذا لم يكن هناك نية صادقة، ولم يكن هناك ثقة وحسن ظن بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذه الرقية لا تنفع، فقد يقول قائل: لقد قرأنا القرآن وفعلنا ما قلتم، ولا حصل شيء. نقول لمثل هذا: الخلل في نيتكم أصلاً وليس في القرآن، عاجلوا نيتكم وأصلحوا عقيدتكم أولاً، وأحسنوا ظنكم بالله عَزَّوَجَلَّ ولا تيأسوا، وإلا فإن وعد الله لا يتخلف إن كنتم صادقين ومنيبين إلى الله.

ومما يُعالج به السحر -أيضاً-: الأدعية التي وردت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها:

«أُعِيدُكَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»^(١).

«أُعِيدُكَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَآمَةٍ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية «، وبرقم (٢٧٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«أُعِيدُكَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ اللَّائِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَشَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَشَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»^(١).

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(٢).

«بِاسْمِ اللَّهِ، أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبِّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(٣).

«رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا التَّوَجُّعِ»^(٤).

وهناك -أيضاً- أدوية مباحة يُذهب الله عَزَّجَلَّ بها السَّحر، يعرفها الخُذَّاق وأهل التجربة وأهل العقيدة السليمة، تنفع بإذن الله في إزالة السحر، تُستخدم مع ذكر الله، ومع التعوُّذ، ومع الرقية، ومع قراءة القرآن، فإذا اجتمعت هذه

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٣٧/٦)، والطبراني في الأوسط (١٨/١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أحمد في المسند (٤١٩/٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥١/٥) من حديث عبد الرحمن بن خنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي الباب عن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه (٤٢٣/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (٢٥٧/٦)، والحاكم في المستدرک (٤٩٤/١) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أحمد في المسند (٢٠/٦)، والحاكم في المستدرک (٢٤٣/٤) وصححه، من حديث فضالة بن عبيد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الأمور المباحة نفع الله بها، لكن بشرط حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، واعتقاد أن الشّفاء من الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل: أنّ النشرة - كما ذكر ابن القيم - منها شيء محرّم، وهي النشرة التي كانت تُعمل في الجاهليّة، وهي ما يعمل السحرة، ومنها شيء مباح، وهي النشرة الشرعية، لكن يشترط لها أن يتولاها من يوثق بعلمه ودينه، لا أن يتولاها أصحاب المطامع الدنيوية، أو المشعوذين الذين يفسدون عقائد الناس، ويرهبونهم بالكذب والتدجيل.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأُولَى: النَّهْيُ عَنِ النَّشْرِ.

الثَّانِيَّةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرْخَصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْأَشْكَالَ.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (الأُولَى: النَّهْيُ عَنِ النَّشْرِ) التي من السحر، وأنه لا يُفْتَى بها، ولا يجوز الإفتاء بها، ولا يُقال هذا من باب الضرورة؛ لأن الله لم يضطرنا إليها، بل أغنانا بالعلاج المباح.

❁ قوله: (الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرْخَصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْأَشْكَالَ) كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فكلام ابن القيم فيه إزالة للإشكال الذي حصل من اختلاف أقوال الإمام أحمد، وما رواه عن ابن مسعود من التحريم، وما روي عن سعيد بن المسيب من الإباحة، وما روي عن الحسن من التحريم، ومع الحديث الذي في أول الباب، حيث أزال الإشكال رَحِمَهُ اللَّهُ، وحمل الحديث وكلام ابن مسعود وكلام الحسن البصري على الرقية التي هي السحر، والتي هي من عمل الشيطان، وحمل كلام سعيد بن المسيب على ما كان بالرقية الشرعية بالأدعية والأدوية المباحة.



٢٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ] أي: من النهي عنه والوعيد.

والطيرة - بكسر الطاء، وفتح الياء، وقد تسكن - اسم مصدر من تطير طيرة، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك التطير يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ودفع ضرر.

قال المدائني^(١): سألت رؤية بن العجاج^(٢) قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه، قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، والذي يجيء من أمامك

(١) هو علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف أبو الحسن المعروف بالمدائني، وهو بصري سكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، فلم يزل بها إلى حين وفاته سنة أربع وعشرين أو خمس وعشرين ومائتين، قال الذهبي: «كان عجباً في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب، مصداقاً فيما ينقله، عالي الإسناد، ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائة». انظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٥٤)، والوافي بالوفيات (٢٢/ ٢٩)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٠٠).

(٢) هو رؤية بن عبد الله بن رؤية بن ليبد بن صخر، روى عن أبي الشعثاء عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من رجاز الإسلام وفصحائهم المقدمين، وهو بدوي سكن البصرة، ومدح بني أمية وبني العباس، وتوفي في أيام المنصور، وقد أخذ عنه وجوه أهل اللغة، واحتجوا بشعره. انظر: تاريخ دمشق (١٨/ ٢١٢)، والمنتظم (٨/ ١٨٨)، والوافي بالوفيات (١٤/ ٩٩)، ومعجم الأدباء (٣/ ٣٤١).

هو الناطح والنطیح، والذي یحییء من خلفك هو القاعدة والقعيد^(١).

قوله: [وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَغَرْتُم مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾]: ذكر عَزَّجَلَّ هذه الآية في سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ سَطِئَتْ بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ﴾ الآية، والمعنى: أن آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة، أي: الخصب والسعة والعافية - كما فسرهم مجاهد وغيره^(٢) ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾؛ أي: نحن الجديرون والحقيقون به ونحن أهلها، ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء وقحط ﴿يَطِئُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ﴾، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا بشؤمهم. فقال عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَغَرْتُم مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: (طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم). وفي رواية: (شؤمهم عند الله ومن قبله)^(٣). أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا العلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبع قوله.

(١) انظر: تهذيب اللغة (٤/ ١٨٧)، والأمل في لغة العرب (٢/ ٢٤٤)، ومفتاح دار السعادة (٢٢٩/ ٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٠).

وقوله: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الآية: المعنى -والله أعلم-: حظكم وما نالكم من شر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل يبيغكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله.

قوله: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ [يس: ١٩] أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ) أي: من الأدلة على تحريمه، وأنه شرك، ومناسبة هذا الباب لما قبله أنه في بيان نوع من أنواع الشرك وهو التطير، والشرك ضد التوحيد، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا كله في بيان التوحيد وبيان ما يضاده وينافيه وهو الشرك الأكبر، أو ينقصه وهو الشرك الأصغر، وهذا الباب فيه بيان نوع من أنواع الشرك وهو التطير والطيرة.

والتطير: مصدر تطير، وأما الطيرة: فهي اسم مصدر للتطير؛ لأن المفعول المطلق إذا نقصت حروفه عن حروف فعله يسمى اسم مصدر، أما إذا وافقت حروفه حروف الفعل فإنه يسمى مصدرًا، ومعنى الطيرة: التشاؤم بالأشياء والاعتقاد أنها تؤثر مكروها، وكان من عادة أهل الجاهلية أنهم يتطيرون بالأشياء، ويعتقدون فيها تأثير الضرر ويخافون منها، وهذا نوع

من أنواع الشرك؛ لأنه خوف من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتقاد في غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يضر أو ينفع، والتطير كان موجودًا في الأمم السابقة، ذكره الله عن قوم فرعون أنهم تطيروا بـموسى ومن معه، وذكره الله عن قوم صالح -وهم ثمود- أنهم تطيروا بصالح ومن معه، كما في سورة النمل، وذكره الله عن المشركين في سورة يس أنهم تطيروا بالرسل الذين جاؤوهم يندرونهم عن الشرك: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وتطير المشركون بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، أي: من عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقد اتفق الكفرة في مختلف الأزمان والقرون على التطير بالصالحين من الرسل وأتباعهم، وظنوا أن الشر إنما يأتي منهم وبسببهم، وهذا انتكاس في الفطر؛ لأن الرسل وأتباعهم يأتون بالخير ولا يأتون بالشر، وهم سبب للخير في الأرض، وسبب لصلاح الأرض وصلاح أهلها، وأما الكفر والكفرة فهم سبب للشر وفساد الأرض وفساد أهلها، هذا هو الواقع.

والأمر من قبل ومن بعد راجع كله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو ينزل الشر بمن يستحقه بسبب فعله السيئ جزاء له، وينزل الخير على من يستحقه بسبب فعله الطيب جزاء له، والجزاء من جنس العمل، فيضع سبحانه الشر فيمن يستحقه وسببه من قبل العبد، ويضع الخير فيمن يستحقه وسببه من قبل العبد وهو الطاعة، فالأسباب من قبل العباد، وأما خلق الخير والشر والإيجاد

فهو من الله عَزَّوَجَلَّ. هذا هو الاعتقاد السليم، وهذا هو الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأصل التطير: التشاؤم بالطيور في نوعها وفي كيفية طيرانها، كانوا ينظرون في نوعها وينظرون في طيرانها وتوجهاتها ويتشائمون في أمورهم، ثم صار عامًّا في كل ما يُتشاء به، من الطيور والحيوانات والأدميين وغيرهم، فكل من تشاء بشيء وتأثر به فقد تطير به.

❁ قوله: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]) هذا في قوم فرعون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ والمراد بالحسنة هنا: الخصب، ونزول الغيث، ورخص الأسعار ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ يعني: نحن نستحق هذا، فينسبون هذا إلى أفعالهم وإلى أنهم يستحقون هذا الشيء، ولا يعترفون أنه فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا جحود لنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿وَلِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهي الجذب، وانحباس الأمطار، وغلاء الأسعار ﴿يَطَّيِّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، فيقولون: هذا بسبب موسى وبسبب من معه من المؤمنين، هم الذين يسببون لنا هذه الشدة، فيتشائمون بأهل الخير.

❁ وقوله: ﴿يَطَّيِّرُوا﴾ أصله يتطيروا، ثم أبدلت التاء طاء وأدغمت الطاء في الطاء فصار يطَّيِّروا، يعني: يتشائمون بموسى ومن معه من المؤمنين، وينسبون ما أصابهم من السيئة إلى موسى وأتباعه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا إنما يجري عليهم من الشر هو من قضاء الله وقدره بسبب

ذنوبهم وكفرهم ومعاصيهم، وليس من موسى ولا من أتباعه، فما أصابهم من الشر ومن الشدائد من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَالسَّبَبُ مِنْ قِبَلِهِمْ، وَأَمَّا الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ فَهُوَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولا تزال هذه العادة الكفرية في الناس إلى اليوم، يتشاءمون بأهل الخير، ويقولون: هؤلاء رجعيون، أخرونا عن التقدم، هؤلاء صاروا حجر عثرة دون الرقي والتقدم والحضارة!! لأن أهل الخير ينهونهم عن المعاصي وعن السيئات التي يزعمون أنها تقدم وحضارة ورقية بزعمهم، فيقولون: عوقونا هؤلاء العلماء وهؤلاء الصالحون، ووقفوا حجر عثرة دوننا ودون التقدم والحضارة والرقي والسير في ركاب الأمم المتحضرة!! ولا يزالون يقولونها في أهل الصلاح وأهل الخير، فهي وإن كانت عادة قديمة إلا أنها مستمرة في الناس إلى اليوم. ينسبون إلى أهل الخير كل شر وكل محذور يقعوا فيه، وما علموا أن هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وأن أهل الخير هم سبب للهداية، وصلاح الأرض، وصلاح الأنفس، وصلاح الأمور، فلو أنهم اتبعوا أهل الخير لأزال الله ما بهم من الشدة، ولرزقهم من واسع فضله، ولجعلهم خير أهل الأرض.

❁ قوله: ﴿قَالُوا طَهِّرْكُمْ مَعَكُمْ﴾: لما جاءت رسل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ

الذين أرسلهم للدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، تطهير بهم أهل القرية، يُقَالُ: إنها أنطاكية بالشام، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣)

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤)

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴿[يس: ١٣- ١٥]، هذه مقالة الكفار مع الرسل دائماً وأبداً، يقولون: لا يمكن أن يكون الرسول من البشر، لابد أن يكون من الملائكة، فهم يستغربون الرسالة في البشر ويستنكرونها، ولا يستغربون عبادة الأصنام والأحجار، هذا من غرائبهم ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ [يس: ١٥] هذا جحود للوحي ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ يكذبون الرسل ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس: ١٦- ١٧] هذه مقالة الرسل ﴿ إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاء منا بكم وما جئتمونا إلا بشر، ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا ﴾ عن قولكم ودعوتكم إلى الله وأمركم بالتوحيد ونهيكم عن الشرك ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا تهديد من الكفار للرسل، وهذا في أمم الكفر مضطرد يقابلون الرسل بمثل هذه المقالات الشنيعة وهذه القسوة، فقد هددوا نوحاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرجم أيضاً، وأوعزوا إلى سفهائهم فرجموا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أدموا عقبه حين خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قالت لهم الرسل: ﴿ قَالُوا طَئِزُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ أي: أن ما حصل بكم من العقوبات إنما هو بسببكم وبكفركم، وليس السبب ما دعوناكم إليه وما أمرناكم به من الخير والتوحيد والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ ﴾ تقولون هذا بسبب أننا ذكرناكم ودعوناكم إلى الله، وكان الواجب عليكم الاستجابة والقبول والتذكر ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

فهذه مقالة الكفار متطابقة في كل زمان، وهذا مثل ما قال الكفار لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنْ نُصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨] إن يأتهم المطر والخصب والخير قالوا: هذه من عند الله. هذا صحيح أنها من عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن انحس عنهم المطر وجاءهم الجذب وهلكت الزروع والضروع، قالوا هذه من عندك يا محمد، ما جاءنا هذا إلا بسببك!! يتشاءمون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الحسنة والسيئة كلها من عند الله عَزَّجَلَّ بقضائه وقدره، وليست من عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما الرسول إلا مبلغ وداعية إلى الله عَزَّجَلَّ، ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي: بفضلته وإحسانه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والسبب من قبل العبد، وهو العمل الصالح والطاعة، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي: بسبب فعلك وذنوبك أيها العبد، وهي من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فمن حيث التسبب هذا من العباد، الطاعات تسبب الخير والمعاصي تسبب الشر، ومن حيث القضاء والقدر والإيجاد والخلق فهو كله من الله عَزَّجَلَّ، يفعله سبحانه لحكمة، فيضع الخير فيمن يستحقه، ويضع الشر فيمن يستحقه.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا عَدُوَّ، وَلَا طَيْرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ^(١)، زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»^(٢).

قوله: «لَا عَدُوَّ»: قال أبو السعادات: (العدوى اسم من الإعداء، كالرعوى، يُقال: أعداه يُعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما يصاحب الداء)^(٣).

قوله: «وَلَا طَيْرَةَ»: قال ابن القيم: (يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً، أي: لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: «لَا عَدُوَّ وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ» يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه).

قال عكرمة: كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر^(٤).

فبادره بالإنكار عليه؛ لثلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير! فقال طاووس: وأي خير عند هذا؟! لا تصحبني^(٥). انتهى ملخصاً^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢٢) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١٩٢/٣).

(٤) أورده ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٠٨) بلا إسناد، وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٩٤/٢٤) فقال: «روينا عن عكرمة»، وأورده ابن حجر في الفتح (٢١٥/١٠)، وعزاه إلى الطبري.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٠٦/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٤، ٥)، أورده ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣٦٦/٣) وعزاه إلى الخلال.

(٦) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/٢٣٤، ٢٣٥).

قوله: «وَلَا هَامَةَ»: بتخفيف الميم على الصحيح^(١).

قال الفراء: الهامة طير من طير الليل، كان يعني البومة. قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلي نفسي أو أحداً من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله^(٢).

وقوله: «وَلَا صَفَرَ»: بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤية أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب^(٣).

وعلى هذا فالمراد بنفيه: ما كانوا يعتقدونه من العدوى. ومن قال بهذا: سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير^(٤).

وقال: المراد به شهر صفر. والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يُحِلُّون المحرم، ويُحَرِّمون صفر مكانه^(٥). وهذا قول مالك^(٦).

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشائمون بصفر ويقولون إنه شهر مشئوم، فأبطل ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٧).

(١) قال ابن حجر في الفتح (١٠/٢٤١): «قال أبو زيد: هي بالتشديد، وخالفه الجميع فخففوها، وهو المحفوظ في الرواية، وكأن من شددها ذهب إلى واحدة الهوام».

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/٢٤١).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٥، ٢٦).

(٤) انظر: فتح الباري (١٠/١٧١)، وتحفة الأحوذى (٦/٢٩٦).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٦).

(٦) أخرج نحوه أبو داود في سننه (٣٩١٤)، وانظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/١٩٩)، ومشارك الأنوار للقاضي عياض (٢/٤٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٢١٤، ٢١٥).

(٧) أخرجه أبو داود (٣٩١٥).

قال ابن رجب: ولعل هذا أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر كتشاؤم أهل الجاهلية بشوال بالنكاح فيه خاصة^(١).

قوله: «وَلَا نَوْءَ»: سيأتي الكلام عليه في بابه.

قوله: «وَلَا غُولَ»: هو بالضم: اسم، وجمعه: أغوال وغيلان، وهو المراد هنا، والمعنى بقوله: «لَا غُولَ»: أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه، ومنه الحديث: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلَانُ، فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ»^(٢)، أي: ادفعوا شرها بذكر الله عَزَّوَجَلَّ^(٣).

... — الشَّيْخُ — ...

نفى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث بروايته ستة أشياء يعتقدها أهل الجاهلية:

الأول: «لَا عَدَوَى»، والمراد بالعدوى: انتقال المرض من المصاب إلى غيره من الأصحاء، وفي قوله: «لَا عَدَوَى» نفى للعدوى، فهل المراد أنه لا يوجد عدوى؟ وأن مجاورة الصحيح للمريض لا تسبب عدوى؟

الجواب: ليس هذا هو المراد، بل العدوى موجودة، ومخالطة المريض بمرض معدي يسبب انتقال المرض بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، وليس مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفى هذا، وإنما مراده: لا عدوى على ما كان يعتقد أهل

(١) انظر: لطائف المعارف (ص ١٤٧).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٢٣٦/٦)، وأحمد في المسند (٣٠٥/٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٣/٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٣/٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٧/١٤).

الجاهلية، وهي: أن المرض يتعدى بنفسه بدون تقدير الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا الذي كان يعتقدُه أهل الجاهلية، ومن اعتقد أن المرض يتعدى بنفسه ويتنقل بنفسه بدون تقدير الله وقضائه، هذا مشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: «وَلَا طِيْرَةَ»، الطيرة: هي التشاؤم بالأشياء، واعتقاد أنها تسبب الشر. والنفي هنا معناه: النهي، يعني: لا تتطيروا، وإن كان الإنسان يجد في نفسه شيئاً فلا يمنعه ما يجد في نفسه من المضي والعزم؛ لأن إيمانه يسوقه، بخلاف ضعيف الإيمان فإن التشاؤم يتغلب عليه فيتراجع، ويكون هذا من الخلل في العقيدة، وضعف التوكل على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا وجدت في نفسك تشاؤماً أو كراهية توكل على الله وأقدم.

والطيرة ليس لها أصل، بخلاف العدوى، وإنما هي تخيُّل من الإنسان بسبب وسوسة الشيطان، ومن وجد في نفسه شيئاً من الكراهية فليتوكل على الله وليعزم، ولا ترده الطيرة عن مقصوده.

الثالث: «وَلَا هَامَةَ»، الهامة: هي الطائر المعروف بالبومة، وكانوا يتشاءمون بها في الجاهلية، ولا يزال كثير من الناس يتشاءمون بها إلى الآن، فإذا وقعت على منزل أحد تشاءم بها وقال: إنه سيموت أو سيموت أحد من أقاربه أو من أهل بيته، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفى هذا، وقال: «لَا هَامَةَ» أي ليس لهذا الطائر تدخل فيما يصيب الناس من موت أو مرض أو خراب الديار، إنما هو طائر كسائر الطيور. فنفي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانت تعتقده الجاهلية في هذا الطائر من أنه يسبب الشر.

الرابع: «وَلَا صَفَرَ»، الصفر: قيل: المراد به شهر صفر؛ لأنهم كانوا يتشاءمون بهذا الشهر، فلا يتزوجون فيه، ولا يعملون فيه أي عمل؛ لأنه شهر مشؤوم عندهم، وقيل: المراد به نوع من المرض يصيب المعدة، ويظنون أنه يعدي بنفسه، فمن أصابه هذا المرض وجاء أحد عنده فإنه يصاب العدوى، فيكون قوله: «وَلَا صَفَرَ» فردًا من قوله في أول الحديث: «لَا عَدْوَى»، لكن نص عليه لأن أهل الجاهلية يتشاءمون به، فإذا أصيب أحد بهذا المرض ابتعدوا عنه، وظنوا أنهم سيصابون به إذا اقتربوا منه، فينفرون منه.

الخامس: «وَلَا نَوْءَ» وهو النجم، وهذا يأتي في باب التنجيم أنهم كانوا يعتقدون أنه إذا طلع النجم الفلاني تنزل الأمطار، وتهب الرياح، ويحصل كذا وكذا، فكانوا ينسبون حدوث الأشياء إلى النجوم، وهذا هو ما يسمى بالتنجيم، وهو نوع من الشرك.

فالاستسقاء بالنجوم، واعتقاد أنها تنزل المطر، أو أنها تسبب كذا أو كذا عند طلوعها أو غروبها هذا من اعتقاد أهل الجاهلية، والنجوم مخلوقة ليس لها من الأمر شيء وليس لها تأثير في الحوادث، إنما تحدث الحوادث بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وسيأتي تمام الكلام في هذا في باب التنجيم إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

السادس: «وَلَا غُولَ»، الغول - بضم الغين -: هو ما يوجد في الفلوات والبراري، إذا سار الإنسان في الطريق وحده واستوحش يترأى من أعمال الجن إما نارًا تتوقد أمامه، وإما أصواتًا تناديه لتزعجه وتكدر عليه وتوحشه، فهم يعتقدون أن هذا الغول يصيبهم بشر، وأنه إذا وجد كان علامة شر

عليهم. فنفى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا كله، وقال: «لا غول»، أي: ليس للغيلان تدخل فيما تنسبونه إليها من الشر والإضلال والهلاك وغير ذلك، إنما هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلاج ذلك ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَقَوَّيْتَ الْغِيلَانَ، فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ»، فإذا أحس العبد بشيء من هذه الغيلان فإنه يبادر بالتسبيح والتهليل والتكبير، أو الأذان، أو تلاوة القرآن، فيذهب عنه هذا بإذن الله، ويأنس بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما الغول -بفتح الغين-: فهو السكر الذي يكون في الخمر، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] يعني: ليس فيها سكر.



وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»^(١).

قوله: [وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»].

قال أبو السعادات: (الفأل - مهموز - فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تستعمل إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر)^(٢).

قوله: (قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»): بين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم: (ليس الإعجاب بالفأل ومحبه بشيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمه، والله عَزَّوَجَلَّ جعل في غرائز الناس من الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبه وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح، والاستبشار، والسرور باسم الفلاح، والسلام، والنجاح، والتهنئة، والبشرى، والفوز، والظفر، ونحو ذلك. فإذا سمعت الأسماع أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال فأحزنتها، وأثار ذلك لها خوفاً، وتطيراً، وانكماشاً، وانقباضاً عما قصدته وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا، ونقصاً في الإيمان، ومقارفة للشرك)^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٠٥).

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

... — الشَّجْحُ — ...

هذا مثل الحديث الذي قبله ينفي العدوى على ما كان يعتقد أهل الجاهلية، من أن المرض ينتقل بنفسه بدون تقدير الله عَزَّوَجَلَّ، وأما أن ينتقل المرض بقضاء الله وقدره فهذا شيء معروف، فقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا يُورَدُ مُمَرِّضٌ عَلَى مُصِحٍّ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطاعون: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»^(٢)، وهذا من باب تجنب الأسباب التي تؤدي إلى الإصابة، ومن باب الوقاية وتعاطي الأسباب الواقعة بإذن الله، مع التوكل والاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا ليس تطهيراً، إنما هو من باب تعاطي الأسباب الواقعة فقط، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِرٌّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ»^(٣)، وهذا من باب الوقاية، وليس من باب التطهير والتشاؤم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ»، الفأل: هو إحسان الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد الخير، فإذا سمع كلمة طيبة تفاعل بها خيراً وانشرح صدره، كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والفرق بين الطيرة والفأل: أن الطيرة توقع للشر، وأما الفأل فهو توقع للخير، والفأل حسن ظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، والطيرة سوء ظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالفأل لا يدخل في الطيرة وهو محمود، وكون الإنسان إذا سمع كلامًا طيبًا استبشر به وفرح، وانشرح له صدره، وتفاءل به خيرا، هذا لا بأس به، وهو محمود؛ لأنه من إحسان الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ. فدل هذا الحديث على الفرق بين الطيرة والفأل أو التفاؤل.



وَلَأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

قوله: [عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ] هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر القرشي، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكى اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره الجهني، واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين^(٢). وقال المزي: لا صحبة له تصح^(٣).

قال ابن القيم: (أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْفَأَلَ مِنَ الطَّيْرِ، وَهُوَ خَيْرُهَا، فَأَبْطَلَ الطَّيْرَةَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَأَلَ مِنْهَا، فَفَصَلَ بَيْنَ الْفَأْلِ وَالطَّيْرِ؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِمْتِيَازِ وَالتَّضَادِّ، وَنَفَعَ أَحَدَهُمَا وَمَضَرَ الْآخَرَ)^(٤).

قوله: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»: قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه^(٥).
قوله: «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» أي: لا تأتي الطيرة بالحسنات، ولا تدفع المكروهات بل أنت وحدك لا شريك لك، الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات. والحسنات

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٩).

(٢) انظر: الثقات (١٩٥ / ٥).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (٢٦ / ٢٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤٩٠ / ٤).

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة (٢٤٥ / ٢).

(٥) انظر: فتح الباري (٢١٤ / ١٠).

هنا: النعم، والسيئات: المصائب، ففيه نفي تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر، وهذا هو التوحيد وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ويعد من اعتقدها سفياً مشركاً.

قوله: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»، والحوّل: التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك بالله وحده، ففيه التبري من الحول والقوة والمشية بدون حول الله وقوته ومشيته، وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية، الذي هو أفراد الله عَزَّجَلَّ بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

... — الشَّيْخُ — ...

وهذا مثل الحديث الذي قبله، فيه أن الطيرة ذُكرت عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: سُئِلَ عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ»، فدل على أن الفأل من الطيرة، ولكنه محمود، ففي الحديث الأول أن الفأل كان يعجبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا الحديث أن الفأل هو أحسن الطيرة، والفرق بينهما أن الفأل حسن ظن بالله عَزَّجَلَّ، وأما الطيرة فهي سوء ظن بالله عَزَّجَلَّ.

❦ قوله: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»، أي: لا يمتنع المسلم عن عمل بسبب الطيرة، فإذا خرج لعمل أو سفر، أو هم بأمر، ورأى ما يكره، فإنه يمضي فيما عزم عليه ولا يرجع ولا يتردد.

أما غير المسلم فإنه يفعل مع الطيرة، وترده عما عزم عليه، اعتقاداً بها، وهذا شرك بالله عَزَّجَلَّ.

فالذي يتراجع عن عمله أو ما عزم عليه بسبب الطيرة، هذا ليس بمسلم، أو ناقص الإيمان، أما الذي لا تمتعه الطيرة مما عزم عليه، فهذا هو المسلم الذي يتوكل على الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: «فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ» يعني: من الطيرة؛ لأن الإنسان بشر، فلا بد يقع في نفسه شيء من الكراهة، إذا سمع شيئاً، أو رأى شيئاً من هذه الأشياء، لكن يعالج هذا بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويمضي في طريقه، ومع ذلك أيضاً يدعو الله عَزَّجَلَّ بالأدعية الواردة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ قوله: «فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»، هذا الدعاء مما تُعالج به الطيرة، فإذا أحس الإنسان في نفسه كراهة لشيء من الأشياء، فإنه يمضي ويتوكل على الله، ويدعو بهذا الدعاء؛ لأن فيه تفويض الأمور إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١).

قوله: [وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ]. ولفظ أبي داود: «الطيرة شرك» ثلاثًا.

وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب بغير الله.

قال ابن مفلح: الأولى القطع بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهًا الكراهة الاصطلاحية؟!^(٢).

قوله: (وَمَا مِنَّا إِلَّا): قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: في الحديث إضمار التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى^(٣).

قوله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ): لكن إذا توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضرر أذهب الله عَزَّجَلَّ عنا بتوكلنا عليه وحده.

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والتِّرْمِذِيُّ (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد في المسند (٣٨٩/١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٣).

(٢) انظر: الآداب الشرعية (٣/٣٦٠).

(٣) انظر: الترغيب والترهيب (٤/٣٣)، ونيل الأوطار (٧/٣٧٢).

قوله: [وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ]: قال ابن القيم: (وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك)^(١).

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ»، قالها ثلاثاً، فدل ذلك على أن من تشاءم بالأشياء وانحبس عن حوائجه وأعماله بسبب الطيرة فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه اعتقد في هذه الأشياء أنها توقع به الشر من دون الله عَزَّوَجَلَّ، هذا وجه كونها من الشرك، وهذا من نوع الشرك في الربوبية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يوجد الأشياء، ويخلقها، ويقضيها، ويقدرها، وليس لأحد مع الله تصرف، فإذا تأثر الإنسان بالطيرة، ومنعته من أعماله وحبسته عما أراد، فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وكرر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ» ثلاث مرات، من باب التأكيد على أنها شرك.

قال ابن مسعود: (وَمَا مِنَّا إِلَّا) أي: وما منا إلا ويقع في نفسه شيء من الكراهية، إذا رأى أو سمع أو قابل بعض الأشياء، (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ).

فتبين من هذا الحديث والذي قبله أن الطيرة تعالج بثلاثة أمور:

الأول: التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثاني: المضي في العمل الذي عزم عليه العبد، وعدم التراجع عنه.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٣٤).



الثالث: الدعاء بأن يقول: «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِأَحْسَنَاتٍ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ
 السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»، ويقول أيضًا - كما سيأتي -: «اللَّهُمَّ
 لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». فيدعو بهذه الدعوات،
 ولن يضره شيء بإذن الله سبحانه وتعالى.



وَلَا أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

قوله: [وَلَا أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»]. هذا الحديث رواه أحمد، والطبراني، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة وبقيّة رجاله ثقات^(٢).

قوله: [مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو]: هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد، وقيل أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الصحيح بالطائف^(٣).

قوله: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ»: وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالمرئي والمسموع، فإذا ردت عن سفر أو عمل أو حاجة فقد أشرك بما يخامر قلبه من الخوف من ذلك، فيكون شركاً بهذا الاعتبار.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٢٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٠١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٥): (رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٢٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٢٠١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٥): «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات».

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٢٦١)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٩٢).

قوله: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ...» (الخ): فيه تفويض الأمور إلى الله تقديرًا وتدبيرًا وخلقًا، والبراءة مما فيه تعلق بغير الله عَزَّجَلَّ كائنًا من كان.

قوله: «وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» أي: لا معبود مستحق سواك. فإذا قال ذلك، وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه، واستمر على فعل ما عزم عليه توكلًا على الله وتفويضًا إليه، كفرَ الله عنه ما وقع في قلبه من ذلك.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ» يدل على أن من منعه الطيرة من المضي في طريقه، وتراجع عما هم به، فقد أشرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأنه اعتقد أن غير الله يخلق ويدبر.

❁ قوله: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ» أي: ليس الخير من الطيرة، إنما الخير بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ» يعني: أن كل الأمور بقضائك وقدرك، «وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» أي: لا معبود بحق سواك، وليس للطيرة دخل في هذه الأمور، بل هي من تدبير الإله والرب والخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا مضى وعزم ونفذ ولم يتراجع، فهذا عبادة لله عَزَّجَلَّ، وإذا رجع وامتنع عن حاجته، فهذا شرك بالله عَزَّجَلَّ، فالمضي توحيد، والرجوع شرك.



وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»^(١).

قوله: [وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»]: هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن العباس، قال: خرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... فساقه إلى أن قال: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ».

والفضل: هو ابن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن معين: قُتِلَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، وقال غيره: قُتِلَ يَوْمَ مَرَجِ الصَّفَرِ سَنَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وقال أبو داود: قُتِلَ بِدَمَشَقٍ، وكان عليه درع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

قوله: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»: هذا حد الطيرة المنهي عنها أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراد، أو يمنعه من المضي فيه كذلك. وأما الفأل الذي كان يحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففيه نوع بشارة، فيُسَرُّ به العبد ولا يعتمد عليه، بخلاف الطيرة. فافهم الفرق.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا حديث الفضل بن العباس بن عبد المطلب، وهو أكبر أولاد العباس، ولهذا يكنى العباس بأبي الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١٣/١).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٤/٥٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٥/٣٧٥).

❁ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ» هذا تفسير الطيرة، «مَا أَمْضَاكَ» أي: ما نفرك من المكان، أو من أي شيء رأيته، وفررت منه، «أَوْ رَدَّكَ» يعني: أثنائك عن حوائجك التي عزمت على فعلها.

أما من وجد في قلبه شيئاً، ولم ترده الطيرة عن حاجته، ولم تشنه عن عزمه، فإن هذا ليس طيرة، وهذا الذي وجده قلبه يُذهبه الله عنه بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذاً يتلخص لنا من الآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب:
أولاً: أن الطيرة شرك.

ثانياً: أن تفسير الطيرة التي هي نوع من أنواع الشرك: ما أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ.
ثالثاً: أن هناك فرقاً بين الطيرة والفأل، فالطيرة شرك، والفأل توحيد؛
لأنه حسن ظن بالله عَزَّوَجَلَّ

رابعاً: أن الكراهية تكون في القلب لرؤية شيء أو سماعه تحصل لكل أحد، للمسلم وغير المسلم، ولكن المسلم يرفضها، ويتوكل على الله، فلا تضره بإذن الله، وأما غير المسلم فإنه يتأثر بها، ويمضي فيها ويتهاذى فيها، فتضره بإذن الله.

خامساً: أن الطيرة تُعالج بأمور، منها: التوكل على الله، والمضي فيما عزم عليه الإنسان وعدم التراجع، والدعاء بالمأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مَعَ قَوْلِهِ:

﴿طَلَيْتُكُمْ مَّعَكُمْ﴾.

الثَّانِيَّةُ: نَفْيُ الْعَدْوَى.

الثَّالِثَةُ: نَفْيُ الطَّيْرَةِ.

الرَّابِعَةُ: نَفْيُ الْهَامَةِ.

الخَامِسَةُ: نَفْيُ الصَّفْرِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ الْفَأَلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْفَأَلِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ بَلْ يَذْهَبُهُ اللَّهُ

بِالتَّوَكُّلِ.

التَّاسِعَةُ: ذِكْرُ مَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهُ.

الْعَاشِرَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطَّيْرَةَ شِرْكٌ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَفْسِيرُ الطَّيْرَةِ الْمَذْمُومَةِ.



٢٨ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ]: قال شيخ الإسلام: (هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية)^(١).

وقال الخطابي: (علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان؛ كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، فلا يعلم الغيب سواه)^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ)، والتنجيم: من النجوم وهي الكواكب، و(مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ) يعني: ما ورد من الأدلة على تحريم الاعتقاد في النجوم أنها تؤثر في هذا الكون؛ لأن التدبير والخلق هو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما هذه النجوم فهي كغيرها من المخلوقات، خلقها الله لحكمة وفائدة بينها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه، فلا يُزاد على ما جاء في القرآن مما ذكره الله في هذه النجوم، والتنجيم - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -: هو

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٥).

(٢) انظر: معالم السنن (٢٣٠/٤)، والترغيب والترهيب (١٩/٤)، والزواجر لابن حجر (٧٢٦/٢)، وعون المعبود (٢٨٥/١٠).

نسبة الحوادث الأرضية إلى الأحوال الفلكية، فيقال مثلاً: إذا طلع النجم الفلاني أو غاب النجم الفلاني يحصل كذا وكذا في الأرض، كغلاء الأسعار أو رخصها، أو نزول المطر، أو يحصل مرض، أو غير ذلك، وينسبون هذا للنجوم، وهذا من فعل الجاهلية، وهذه النجوم خلقها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى كسائر مخلوقاته مسخرة مدبرة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فليس لها من الأمر شيء، ومن اعتقد أنها تخلق أو تحدث شيئاً، فقد أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ.



قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: وَقَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بَغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى^(١).

قوله: [قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: وَقَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بَغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى]: هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه، وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم، وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة بلفظ أطول من هذا^(٢).

وقول قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره، فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به، وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها، وهو سبحانه بمشيئته وإرادته؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

(١) أخرجه البخاري معلقاً- كتاب بدء الخلق، باب في النجوم (ص ٥٧٨)، والطبري في تفسيره (٩١/ ١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٩١٣/ ٩)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٥/ ٤). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً- كتاب بدء الخلق، باب في النجوم (ص ٥٧٨)، والطبري في تفسيره (٩١/ ١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٩١٣/ ٩)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).

قوله: (خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ): قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما السَّمَاءُ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا مِنْ دُخَانٍ ثُمَّ رَفَعَهَا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَزَيْنَهَا بِمَصَابِيحِ النُّجُومِ وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَحَفَظَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ»^(١).

قوله: (وعلامات) أي: دلالات على الجهات، (يُهتدى بها) أي: يهتدي بها الناس في ذلك؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، أي: ليعرفوا بها جهة قصدهم. فإن قيل: المنجم قد يصدق، قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق في كلمة ويكذب في مائة، وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدرًا، فيكون فتنة في حق من صدقه.

... — الشَّبَحُ — ...

هذا ما ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا في صحيحه، عن قتادة بن دعامة السدوسي، تابعي جليل، من كبار التابعين، ومن أئمة التفسير والفقه رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: (خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ) أي: لثلاث حكم، وهذا بالاستقراء من كتاب الله عَزَّجَلَّ:

الأولى: (زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ)؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ⑥ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿[الصافات: ٦-٧]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٩ / ٥) وعزا إلى ابن مردويه.

زِينًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿[الملك: ٥]﴾، فإذا نظرت في السماء ليلاً ورأيت هذه النجوم المضيئة المتألثة، فإنك تشعر بجمال منظرها، فهي زينة زين الله بها السماء، وأخبر أنها في السماء الدنيا؛ لأن السماوات سبع طباق، والسماء الدنيا مما يلي الأرض، ولهذا يرى الناس النجوم فيها تتلألاً، فإذا أظلم الليل ورأيت هذه النجوم أعجبتك زينتها، ودلتك على قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

الثانية: ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿[الملك: ٥]﴾، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿[الصافات: ٦-٧]﴾، فإن هذه النجوم تنطلق منها شهب فتصيب الشياطين التي تسترق السمع وتحرقهم بإذن الله، فهي حراسة للسماء؛ كما قال عَزَّجَلَّ عن الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ يعني من السماء ﴿مَقْعِدَ السَّمْعِ﴾ يسترقون السمع ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذِّ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، وذلك عند بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحُرست السماء وحُفِظت من استراق السمع، وقد يبقى شيء من ذلك لكنه بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح قليلاً جداً. فالنجوم حراسة للسماء، ورجوماً للشياطين.

الثالثة: (عَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا) يهتدي الناس بها في ظلمات البر والبحر؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فالمسافر في الليل لا يرى الجبال ولا يرى الطريق، لكن يعرف الاتجاه بالنظر إلى النجوم؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَالْتَجِمُ هُمْ

يَهْتَدُونَ ﴿[النحل: ١٦]﴾، ففي ظلمات البحر لا توجد جبال ولا علامات يستدل بها البحارة وأصحاب السفن، لكنهم يعرفون الجهة التي يقصدونها بالنجوم، إذا رأوها عرفوا الاتجاه فساروا على هدى.

فهذه هي الحكم التي ذكرها الله الذي خلق هذه النجوم، فلا يجوز لأحد أن يضيف إليها حكمة لم يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كأن يقول: هذه النجوم تدل على وقوع الحوادث في الأرض، أو أنها تدبر هذا الكون، فإن هذا قول بلا علم، وفي هذا يقول قتادة: (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيئَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ) أو أضاع نصيبه من الجنة، إذا اعتقد أن هذه النجوم تؤثر في الكون فقد أشرك، والمشرك ليس له نصيب من الجنة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

❁ قال: (وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ)، أي: ليس عنده دليل على ما قال. وهذا دليل على أن المسلم لا يجوز له أن يقول بغير علم ولا بغير دليل، ليس له أن يتخرس أو يقلد أهل الضلال، وإنما يقول بحسب الدليل في النجوم وفي غيرها، سواء ما يتعلق بالعقيدة، أو بالحلال والحرام، أو بغير ذلك من الأمور الشرعية، فإن تكلم بغير دليل من كتاب الله ومن سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان من المتكلمين الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، والقول على الله بغير علم فوق الشرك، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴿[الإسراء: ٣٦]﴾، فيجب على الإنسان أن يتوقف في الأمور التي لا علم له بها، وأن لا يقول إلا بدليل من كتاب الله ومن سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خصوصاً في أمور الشرع وأمور العقيدة.

❁ قال: (فإن قيل: المنجم قد يصدق): قد يقع الأمر مثل ما قال المنجم، وهذا من باب الموافقة وليس هو دليل على صدقه، وإنما وافق كلامه قضاء وقدراً، فظن الناس أن هذا يدل على صدقه، مثل الكاهن قد يصدق بسبب الكلمة التي سُمعت من السماء، فكونه يصدق هذا لسبب ليس هو من فعله، وإنما وافق هذا الشيء، وأيضاً فيه فتنة للناس؛ لكي يتبين الصادق في عقيدته من المنحرف الذي يأخذ هذه الضلالات، فكونه يصدق فيه اختبار للناس.

وفي هذا رد لشبهة يعتمد عليها كثير من الضلال الذين يعتقدون صدق المنجم ويأخذون بكلامه، فنقول لهم: صدقه ليس دليلاً على صحة مذهبه، وإنما ذلك لأنه وافق القضاء والقدر، ولأجل الابتلاء والامتحان، فهو كالكاهن الذي يصدق في كلمة ويكذب في مائة، وهذه الكلمة ليست من صنعه، إنما سُمعت من السماء.

فالعبرة ليست بكون المضلل أو المخرف يصدق، إنما العبرة بالدليل من الكتاب والسنة، أما كونه يصدق في بعض الأحيان، فهذا لا يدل على أن ما قاله أو فعله صحيح.



وَكِرَهُ قِتَادَةُ تَعْلَمِ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهَا.

وَرَخَّصَ فِي تَعْلَمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ^(١).

قوله: [وَكِرَهُ قِتَادَةُ تَعْلَمِ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهَا. وَرَخَّصَ فِي تَعْلَمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ].

قال الخطابي: (أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة، والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهي عنه، وذلك أن معرفة هذا العلم يصح علمه بالمشاهدة.

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها من الكواكب، رصدها أهل الخبرة بها الذين لا شك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم). انتهى^(٢).

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به^(٣).

(١) انظر: شرح العمدة في الفقه لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٥٥٣)، ومطالب أولي النهى (٣٨٥ / ١).

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٤/ ١٩)، ونيل الأوطار (٧/ ٣٧١).

(٣) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور (٥/ ١١٩).

قال ابن رجب: (والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم قليله وكثيره، أما علم التسيير فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور)^(١).

قوله: [ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا]: هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه، من أجلة أصحاب الإمام أحمد، روى عن أحمد، وإسحاق، وابن المدينى، وابن معين، وغيرهم، وله كتاب المسائل التى سأل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد بن يعقوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك، وأبي أسامة، وابن عينة، وطبقته، قال أحمد: إسحاق عندنا من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، وروى هو أيضًا عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا بيان حكم تعلم التنجيم، وعلم النجوم أو التنجيم ينقسم إلى قسمين عند أهل العلم:

القسم الأول: علم التأثير، وهو أن يعتقد أن هذه النجوم تؤثر في الكون، فينزل بسببها المطر أو ينحبس، أو تغلو الأسعار أو ترخص، أو من تزوج في النجم الفلاني يُوفق، ومن تزوج في النجم الفلاني يُخفق، أو غير

(١) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف (ص ٤٥-٤٧).

ذلك من أقوال أهل الجاهلية، ومن يسير في ركا بهم من الناس، فاعتقاد أن النجوم تؤثر فيما يجري على الناس هذا هو علم التنجيم، وهذا شرك، وهذا حرام بإجماع أهل العلم.

النوع الثاني: علم التسيير، وهو معرفة الحساب، فهذه النجوم لها منازل تسمى منازل القمر، ثمانية وعشرون منزلاً، أربعة عشر يمانية، وأربعة عشر شامية، ينزل القمر في كل ليلة منها منزلاً إلى أن ينتهي الشهر، وفي التاسع والعشرين والثلاثين يستتر يعني يختفي القمر في ضوء الشمس تسمى ليال الاستسراء، ثم يبرز ويبعد عن الشمس، فإذا هل الهلال، يعني: إذا خرج من شعاع الشمس، يُعرف به بداية الشهور؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فيها تُعرف مواقيت الحساب، ويعرف بها ظل الزوال، ومواقيت الصلاة في اليوم واللييلة، هذا يسمى علم الحساب، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]، هذه منازل الشمس ومنازل القمر جعلها الله لمعرفة الحساب.

وهذا النوع اختلف فيه العلماء، فقتادة وسفيان بن عيينة يحرمان هذا العلم، وهو علم معرفة الحساب بالنجوم؛ لأنه وسيلة إلى النوع الأول المحرم، والقول الثاني: أنه لا بأس به، وهذا من الحكمة في خلق هذه النجوم، وهذا قول الإمام أحمد، وإسحاق بن راهوية الحنبلي شيخ الإمام أحمد.

وهذا هو الصحيح أنه لا بأس في تعلم منازل القمر، ومعرفة الحساب، ومواقيت غرس الأشجار والبذور؛ لأنه لا محذور فيه، والله عَزَّجَلَّ جعل للأشياء مواقيت بلا شك، لكن ليس لهذه النجوم أن تُحدث شيئاً في هذا الكون، وإنما هي مواقيت فقط، يعرف بها الناس مواقيت معاملاتهم، وتعرف بها النساء العدة إذا كن لسن من ذوات المحيض، فهذا لا بأس به وهذا هو الصحيح؛ لأن معرفة حساب الفلك لا يؤثر في العقيدة، فالفلكيون يحسبون الحساب للصلوات وللأهلة، ويضعون في هذا شبكات طويلة بعضهم يضع إلى مائة سنة، مثل تقويم أم القرى وغيره من الحساب الذي يوضع للمستقبل، فيستريح الناس، ويستفيدون من هذا.

ومن فوائده هذا التقويم السنوي الذي يُطبع في مفكرات، وفي نتائج توضع على الجدران في المكاتب؛ ليعرف الناس بهذا المواقيت، فهذا شيء لا بأس به، وهو من المصالح. والله عَزَّجَلَّ خلق النجوم لمصالح العباد، وهذا شيء جُرِّب وعُرف وضبط، وليس فيه أي محذور والله الحمد.



وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقُ بِالسَّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ^(١).

قوله: [وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...»] الحديث: هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني، والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

قوله: [عَنْ أَبِي مُوسَى]: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار -بفتح المهملة وتشديد الضاد- أبو موسى الأشعري، صحابي جليل مات سنة خمسين.

قوله: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»: الشاهد للترجمة: «وَمُصَدِّقُ بِالسَّحْرِ»، وفي هذا الحديث كما تقدم في نظائره؛ كقوله: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

واختار الإمام أحمد رحمه الله أن مثل هذه الأحاديث ثمر كما جاءت من غير تأويل.

قال الذهبي في الكبائر: (ويدخل فيه تعلم السيمياء وعلمها، وعقد المراء عن زوجته، ومحبة الزوج لامراته، وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة). انتهى باختصار^(٣).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩٩/٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٧/١٣)، والحاكم في المستدرك (١٦٣/٤).

(٢) سبق تخريجه (٥٨/٢).

(٣) انظر: الكبائر (ص ١٥).

... الشَّخْج ...

﴿ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» هذا وعيد شديد يجرى على ظاهره ولا يُؤول ولا يُفسر؛ لأن تفسيره وتأويله يقلل من أهميته، فيترك على ظاهره للزجر والوعيد، فإن المؤمن يدخل الجنة، وإنما يُحرم من دخول الجنة غير المؤمن، فدل ذلك على خطر هذه الجرائم التي بسببها توعد الله عَزَّجَلَّ فاعلها ألا يدخل الجنة، وهؤلاء الثلاثة هم:

الأول: «مُذْمَنُ الْخَمْرِ»، الخمر: ما خامر العقل وغطاه، ومنه الخمار للمرأة لأنه يغطي رأسها، فالخمر مأخوذة من الخمار وهو التغطية أو التخمين لأنها تغطي العقل، والخمر حرام؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»^(١)، وأجمع العلماء على تحريم الخمر، فهي حرام بالكتاب والسنة والإجماع، فمن استحل الخمر فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين.

أما من اعتقد أنها حرام، ولكن شربها من باب الشهوة، وهو يعرف أنه مذنب وأنها حرام، فهذا مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، وأوجب الله الحد عليه بأن يُجلد، وقد جلد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شرب الخمر من أصحابه، وأجمع المسلمون على الجلد في الخمر عقوبة للشارب وردعاً له.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٤٣)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٦٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو عيسى الترمذي: «وفي الباب عن سعد، وعائشة، وعبد الله بن عمر، وخوات بن جبير».

❁ وقوله: «مُذْمِنُ الْخَمْرِ» أي: المداوم على شرب الخمر، والإدمان يدل على عدم المبالاة، فلهذا صار عليه هذا الوعيد الشديد أنه لا يدخل الجنة؛ لأنه أصبح لا تردعه الحدود، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاقْتُلُوهُ»^(١)، فيقتل شارب الخمر إذا تكرر منه أربع مرات عملاً بهذا الحديث؛ لأنه أصبح لا تردعه الحدود، ويكون قتله من باب التعزير وليس هو من باب الردة^(٢).

وهذا الوعيد من الله عَزَّجَلَّ بأنه لا يدخل الجنة، لا يعني أن شارب الخمر كافر، بل هو مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، ولكن توعده الله بهذا الوعيد، فنحن نورد الحديث كما جاء ولا نتعرض له بتأويل، وإن كنا نعتقد أن من لم يستحل الخمر ليس كافراً، وإنما هو فاسق، وهو معرض للوعيد إن

(١) أخرجه أحمد في المسند (٩٧/٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣٤٩/١٣)، والطبراني في الكبير (٨٤٤) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي الباب من حديث عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وجريير، وغطيف بن الحارث الكندي، وشرجيل بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ فِيهِ في مجموع الفتاوى (٢١٧/٣٤): «أكثر العلماء لا يوجبون القتل، بل يجعلون هذا الحديث منسوخاً، وهو المشهور من مذاهب الأئمة، وطائفة يقولون: إذا لم ينتهوا عن الشرب إلا بالقتل جاز ذلك، كما في حديث آخر في السنن أنه نهاهم عن أنواع من الأشربة، قال: «إِنْ لَمْ يَدْعُوا ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُمْ». والحق ما تقدم، وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً كان يدعى حماراً، وهو كان يشرب الخمر، فكان كلما شرب جلده النبي، فلعنه رجل، فقال: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، وهذا يقتضي أنه جلد مع كثرة شربه».

شاء الله غفر له وإن شاء عذبه، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. هذه عقيدة أهل السنة والجماعة عملاً بالنصوص، لكن على كل حال هذا يدل على شدة جريمة المدمن للخمر، وأنه معرض للوعيد الشديد.

الثاني: «قَاطِعُ الرَّحِمِ»، والمراد بالرحم: القرابة من جهة الأب أو من جهة الأم، فقد أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم حقوقاً في الكتاب والسنة، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]. فالقرابة لها حق، سواء كانت من جهة الأم كالأخوال والخالات، أو من جهة الأب كالأعمام والعمات، والإخوة والأخوات... إلى آخره. لها حق على قريتهم بالصلة والإحسان، وسائر ما فيه النفع لهم، ودفع الضرر عنهم، وحقهم ثابت في كتاب الله وسنة رسوله، فالذي يقطع الرحم ولا يؤدي حقها متعرض لهذا الوعيد أنه لا يدخل الجنة، وأنه ملعون؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقِّهِ الرَّحْمَنُ، فَقَالَ لَهَا: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكَ لَكَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالرحم لها حق عظيم، ومن قطع رحمه فإنه لا يُكفّر بهذا، لكنه متوعد بهذا الوعيد الشديد، إن شاء الله نفذه فيه، وإن شاء غفر له؛ كما قال عَزَّجَلَّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الثالث: «مصدق بالسحر»، والسحر تقدم أنه كفر وشرك بالله عَزَّجَلَّ؛ لأن الساحر لا يستطيع عمل السحر إلا بخضوعه للشياطين، فإذا خضع لهم وأطاعهم فقد أشرك بالله عَزَّجَلَّ، والذي يصدق الساحر مثله في الحكم، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١)؛ لأنه صدق بالباطل، وصدق بالكفر والشرك، فيكون مثل الساحر لا يدخل الجنة؛ لأن الساحر لا يدخل الجنة قطعاً إلا إذا تاب إلى الله.

وهذا الحديث فيه شاهد لهذا الباب - باب التنجيم - لأن التنجيم نوع من السحر؛ كما سبق في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ»^(٢)، وكذلك الذي يصدق المنجمين يدخل في السحر. هذا وجه الشاهد من هذا الحديث للباب.



(١) سبق تخريجه (٥٨/٢).

(٢) سبق تخريجه (٣٥٣/٢).

فِيهِ مَسَائِلُ،

الأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمُنَازِلِ.

الرَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السَّحْرِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: (الأُولَى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ) كما بينها الله أنها ثلاث: زينة للسماء، ورجوم للشياطين، وعلامات يُهْتَدَى بِهَا، وبها يعرف الحساب أيضًا والمواقيت.

❦ قوله: (الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ)، أي: من زعم غير ما دل عليه الكتاب والسنة من فوائد النجوم والحكمة في خلقها، ونسب إليها غير ما جاء في الكتاب والسنة، فإنه يكون ضالًّا مضلًّا.

❦ قوله: (الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمُنَازِلِ) أما تعلم علم التأثير فهذا حرام بالإجماع لأنه شرك، إنما الخلاف في تعلم المنازل، والصحيح أنه لا بأس به، ولا زال العلماء يعملون الحساب الفلكي، ويظهرون هذا في كتبهم، ومصلحة الناس تقتضي هذا.

❦ قوله: (الرَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السَّحْرِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ) إذا انفعل معه وأجازه، فإنه يكون متوعدًا بعدم دخول الجنة.

٢٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي الاستِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

قوله: [بَابُ مَا جَاءَ فِي الاستِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾] أي: من الوعيد، والمراد: نسبة السقي ومجيء المطر إلى الأنواء، جمع (نوء)، وهي: منازل القمر.

قال أبو السعادات: (وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها؛ كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، يسقط في المغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة له مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إلى النجم الساقط، ويقولون: مُطَرْنَا بَنُوْءَ كَذَا وكَذَا! وإنما سمي نوءاً؛ لأنه إذا سقط منها الساقط ناء الطالع بالمشرق، أي: نهض وطلع) (١).

قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾: روى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والضياء في المختارة عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم ﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾، تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا (٢).

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١٢١/٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٥)، وأحمد (١٠٨، ٨٩/١)، والطبري في تفسيره (٢٧/٢٠٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٣٣٤/١٠)، والضياء المقدسي في المختارة (١٩١/٢).

رُوي ذلك عن علي، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني، وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين^(١)، وبه يظهر وجه استدلال المصنف رَحِمَهُ اللهُ بِالْآيَةِ.

وقال ابن القيم: (أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به، يعني: القرآن. قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون. قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب^(٢) ^(٣)).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الباب تابع للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله باب ما جاء في التنجيم، وهذا في الاستسقاء بالأنواء، وهو الاستسقاء بالنجوم، فالباب الذي قبله عام في كل ما يُعتقد في النجوم من العقائد الباطلة، وهذا خاص بنوع من أنواع هذه الاعتقادات، وهو الاستسقاء بالنجوم، أي: طلب السقيا منها، أو نسبة المطر إليها، وهذا شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن إنزال المطر من الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي ينزل الغيث، وهو الذي يخلق المطر وينزله، وليس للنجوم أية علاقة بنزول المطر، ولا علاقة لها بإحداث أو خلق، وإنما النجوم - كما سبق - خلقها

(١) انظر هذه الآثار وغيرها في: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨)، وتفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٨، ٢٠٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٠٧)، والدر المنثور (٦/ ٢٦٤، ٢٦٥)، (٨/ ٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠٩).

(٣) انظر: شفاء العليل (ص ٤٢).

الله عَزَّجَلَّ زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، وهي من مخلوقات الله عَزَّجَلَّ، قال عَزَّجَلَّ: ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢]، وقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧]. فهذه المخلوقات لا تدبر شيئًا إلا بأمر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لم يخلق النجوم لإنزال المطر، وإنما خلقها لحكمٍ سبق بيانها من القرآن.

والاستسقاء بالنجوم على قسمين:

الأول: أن يُعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر، وهي التي تنزل المطر، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: أن يُعتقد أن الذي ينزل المطر هو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما النجوم سبب لنزول المطر، فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل النجوم سببًا لنزول المطر.

وكان من عادة الجاهلية أنهم يعتقدون أنه إذا طلع النجم الفلاني أو غاب النجم الفلاني فإنه ينزل المطر، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا!!! يسمونه النجم، ويسمونه النوء.

والأنواء: جمع نوء، وهو النجم، يُقال: ناء ينوء إذا طلع من المشرق؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى جعل للقمر ثمان وعشرين منزلة، ويستتر في ليلة أو ليلتين من آخر الشهر، كل منزلة لها نجم تُعرف به، مثل: الثريا، والدبران، والبقعة، والهنعة... إلى آخره، ثمانية وعشرين منزلًا، أربعة عشر منها يمانية، وأربعة عشر شامية، يسير القمر في كل ليلة مع مسار يسمى منزلة من منازل القمر، من الشمال إلى الجنوب، ثم يختفي في ليلة لقربه من الشمس تسمى

الاستسراء، إن كان الشهر تسعاً وعشرين، وإن كان الشهر ثلاثين فإنه يختفي لليلتين، ثم يظهر الهلال بعد ذلك ويبدأ الشهر الجديد، وكل منزلة أو كل مسار من مسارات القمر له علامته نجم من النجوم، وكانوا في الجاهلية يعتقدون أن نزول المطر بسبب هذه النجوم، ويقولون: النوء الفلاني صادق، والنوء الفلاني غير صادق، وما أشبه ذلك!! هذه من عقائد الجاهلية، فأبطله الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن، وأبطله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة، وأخبر الله وأخبر الرسول أن المطر إنما هو من أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قال: (وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾) هذه الآية في آخر سورة الواقعة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ﴾ (٧٦) إِنَّهُ لَقَرَأَنُ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٦-٨٢]، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخَذَ مِنْهَا هذه الآية لأنها محل الشاهد.

❁ قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تنسبون المطر إلى النجم، وهذا كذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا إذا أريد بالنجوم النجوم المعروفة المخلوقة، وهذا هو القول المشهور والمختار^(١).

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٥١): «في النجوم قولان:

أحدهما: نجوم السماء، قاله الأكثرون، فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوال: أحدها: انكدارها وانتشارها يوم القيامة، قاله الحسن، والثاني: منازلها، قاله عطاء وقتادة، والثالث: مغيبها في المغرب، قاله أبو عبيدة.

والقول الثاني: أن المراد بالنجوم نجوم القرآن؛ لأن القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع والحوادث، كان ينزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منجماً في مدة رسالته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهي ثلاث وعشرون سنة.

ولكن القول الأول هو المشهور، بأن المراد بالنجوم: النجوم المخلوقة لا نجوم القرآن.

والله عَزَّجَلَّ أقسم بالنجوم، والقسم بال مخلوق لا يجوز بالنسبة للناس، أما بالنسبة لله عَزَّجَلَّ فهو يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم إلا بشيء له أهمية، والنجوم لها أهمية عظيمة: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، ولذلك أقسم بها، والمُقَسَّم عليه هو القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا جواب القسم. وفي هذا رد على الذين كذبوا بالقرآن، وقالوا: إنه من قول البشر، أو من قول محمد، أو أساطير الأولين، أو سحر، وغير ذلك مما قاله أهل الجاهلية.

أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقرآن، وأخبر أنه قرآن كريم ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ؛ لأن القرآن تكلم الله به ثم كتبه في اللوح المحفوظ، ونزل به جبريل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ ومكتوب في صحائف الملائكة، ومكتوب أيضاً في المصاحف التي بأيدي الناس، ومحفوظ في الصدور، وهو كلام الله في أي اعتبار، هو

= والثاني: أنها نجوم القرآن، رواه ابن جبير عن ابن عباس، فعلى هذا سميت نجومًا لنزولها متفرقة، ومواقعها: نزولها». وانظر: تفسير البغوي (٤/ ٢٨٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٩).

كلام الله في اللوح المحفوظ، وهو كلام الله في صحائف الملائكة، وهو كلام الله في المصاحف التي بأيدي الناس، وهو كلام الله المحفوظ في الصدور، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَهُرُونَ﴾، وهذا رد على المشركين الذين يقولون: إن الشياطين أَلَقَتِ الْقُرْآنَ إِلَى الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!! فجعلوا الرسول مثل الكهان؛ لأنهم يعرفون أن الكهان يتلقون من الشياطين، فرد الله عَزَّجَلَّ عليهم بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَهُرُونَ﴾ والشياطين أنجاس، لا تمس القرآن ولا تقرب منه، والمطهرون: الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

❁ قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا كما يقول المشركون، أو الجهمية والمعتزلة: إنه مخلوق، أو هو من كلام البشر!! بل هو تنزيل من رب العالمين، هذا جواب القسم، ومع هذا صاروا ينسبون الرزق إلى غير الله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكركم للنعم بأن تكذبوا وتنسبوا هذه النعم لغير الله عَزَّجَلَّ، وكذلك تكذبون القرآن الذي أقسم الله أنه قرآن كريم، وأنه لا يمسه إلا المطهرون، وأنه منزل من رب العالمين، فبدل أن تؤمنوا به وتتبعوه وتمتدوا به، جعلتم حظكم من هذا القرآن التكذيب، نسأل الله العافية، أو جعلتم حظكم من شكر المطر نسبته إلى غير الله، وهذا كفر بالنعمة، والآية شاملة للمعنيين.



عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبَقْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْيَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ، وَدَرَجٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ]، أبو مالك: اسمه الحارث الشامي، صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا.

قوله: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ» أي: ستفعلها هذه الأمة، إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية، يدل على أنه يجب على كل مسلم أن يجتنبها. والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، وفاعلها أثم يجب أن يُنهي عنها، ومتى وُجد الشرك وجدت هذه الأمور المنكرة، وغيرها من المنكرات.

قال شيخ الإسلام: (أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن في ذلك ذمًا للتبرج، وذمًا لحال أهل الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة)^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٦٩).

قوله: «الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ» أي: التعاضد على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم؛ إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ؛ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحَمٌ مِنْ فَحَمٍ جَهَنَّمَ؛ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ...» الحديث^(١).

قوله: «وَالطَّغْنُ فِي الْأَنْسَابِ» أي: الوقوع فيها بالعيب والنقص، ولما عَيَّرَ أبو ذر رجلاً بأمه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْيَرْتَهُ بِأُمِّهِ ۖ إِنَّكَ أَمْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»^(٢). متفق عليه. فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل أهل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْجُومِ»: تقدم معناه، فإذا قال قائلهم: مُطَرْنَا بنجم كذا، وبنوء كذا، فلا يخلو: إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر، فهذا شرك وكفر؛ لنسبة المطر لغير من أنزله وهو الله وحده. وإما مع إطلاق

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٦١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠، ٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

هذا اللفظ، فقد صرح ابن مفلح في «الفروع»^(١) بتحريمه، وكذلك صاحب «الإنصاف»^(٢)، ولم يذكر خلافًا.

قوله: «والنياحة» أي: رفع الصوت بالندب على الميت، وضرب الحدود، وشق الجيوب، ونحو ذلك، وهي من الكبائر؛ لشدة الوعيد والعقوبة، كما في هذا الحديث.

قوله: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا»: فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب.

قوله: «تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِزْيَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدَرَجٌ مِنْ جَرَبٍ»، السربال: واحد السرايل، وهي الثياب والقمص، هذه سرايل أهل النار، يعني: يُلطخن بالقطران حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن.

وروي عن ابن عباس أن القطران هو النحاس المذاب^(٣).

... — الشَّيْخُ — ...

هذا الحديث فيه أن هذه الأربع من أمور الجاهلية، والجاهلية ما كان قبل بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو جاهلية لخلوه من العلم؛ لأن الجاهلية من الجهل وهو عدم العلم، فقبل بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الناس في جاهلية، ليس عندهم علم، قد اندرست الرسالات بعد العهد، وصار

(١) انظر: الفروع (٢/١٢٩).

(٢) انظر: الإنصاف للمرداوي (٢/٤٦١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٢٥٦، ٢٥٧).

الناس في جهل دامس، وليل مظلم من الجهل، حتى بعث الله نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه الكتاب، فزالت الجاهلية والحمد لله.

وكانوا في الجاهلية يتخبطون على غير علم وعلى غير هدى، يعبدون الأصنام، ويستسقون بالنجوم، ويأكلون الميتة، ويستحلون ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، ويحللون ويحرمون من عند أنفسهم، حتى بعث الله نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت البشرية على وجه الأرض بحاجة ماسة إلى بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وهذا من نعم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن بعث هذا الرسول فجدد دين الرسل، وأزال به الجاهلية، وأورث العلم الغزير والخير الكثير لهذه الأمة إلى أن تقوم الساعة.

فببعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زالت الجاهلية العامة، وتبقى الجاهلية الخاصة في بعض الناس، ومنها ما جاء في هذا الحديث: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي» أي: أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من أمر الجاهلية»، وهذه الأربع هي: «الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطُّغْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، فمن كانت فيه خصلة من هذه الخصال ففيه جاهلية، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها ستستمر في أمته وأنها لن تترك.

قال شيخ الإسلام: (أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذمًا لمن لم يتركه) وأما بالجملة فأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تجمع على ضلالة، فلا يمكن أن يجمعوا على أمر من أمور الجاهلية، لكن يقع بعضهم فيها، ولهذا

لا يجوز أن يُقال بعد بعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الناس في جاهلية بإطلاق، أو نحن الآن نعيش في جاهلية أشد من الجاهلية التي بعث فيها الرسول. هذا الكلام لا يجوز؛ لأن الجاهلية العامة زالت ببعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحمد لله، وما دام القرآن والسنة موجودين فليس هناك جاهلية عامة. لكن ليس من قامت به خصلة من خصال الجاهلية يكون كافراً، بل يكون فيه جاهلية حتى يدعها.

فهذه الخصال من كبائر الذنوب، لكنها لا تقتضي الكفر، إنما تقتضي الفسق ونقص الإيمان؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِي أُمَّتِي»، وقال لبعض أصحابه: «إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» مع أنه من أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل من أفضل أصحابه، فدل على أن من كان فيه خصلة من خصال الجاهلية فإنه لا يكفر، لكن يعتبر هذا من أعظم الذنوب بعد الشرك.

وهذا الصحابي الجليل تاب إلى الله وترك هذه الخصلة، وقصته أنه لقي عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فغيره بأمه وقال له: يا ابن السوداء، فشكاه عمار إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلقيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»؛ لأن هذا من أمور الجاهلية، ولأن المسلمين إخوة لا فخر لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١)، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَظِمُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤١١/٥)، والطبراني في الكبير (١٦) من حديث رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/٢٨٩) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالكرم والجود والشجاعة وغيرها من الخصال الكريمة الجيدة التي يُمدح بها الشخص، هذه خصال طيبة، لكن لا يجوز للشخص أن يفخر بها، أو بأفعال أبيه، ويقول: أبي يفعل كذا، وجدي كان يفعل كذا، وقبيلتي كرام وشجعان وأبطال، لا يجوز هذا؛ لأنه يقتضي الكبر واحتقار الناس، وهو من الفخر بالأحساب، والواجب على العبد أن يحمد الله على هذه الخصال الطيبة، ولا يفخر بها على الناس.

❁ قال: «وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ»، الأنساب: جمع نسب، وهو ما ينتمي إليه الشخص من القبيلة، كأن يقول: أنا هاشمي، أنا قرشي، أنا تميمي، أنا كذا وكذا من باب الفخر، ويتنقص أنساب الناس؛ كمن يقول: أنت عبد، أنت ليس لك نسب معروف، أنت كذا وكذا. والمسلم لا يجوز له أن يتنقص الناس لا بنسبه ولا بحسبه؛ لأن المؤمنين إخوة، ولا يمنع هذا أن يعرف الإنسان الأنساب ويعرف القبائل، من باب التعلم والمعرفة، لا من باب الافتخار بها، ولا من باب الطعن في أنساب الناس، والعلماء فيهم نسابون يعرفون الأنساب، لكن لا يفتخرون بها، ولا يطعنون في أنساب الآخرين.

❁ قال: «وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ» هذا محل الشاهد من الحديث، والاستسقاء بالنجوم: نسبة الأمطار إلى طلوع النجوم أو غروبها، بأن يقال: إذا طلع النجم الفلاني أو غرب النجم الفلاني نزل المطر، وهذا حرم لا يجوز؛ لأن المطر بيد الله، هو سبحانه الذي يُنزل متى شاء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ. وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]،

ولا علاقة لنزول المطر بالنجم أبداً، قد يطلع النجم ويغيب ولا ينزل مطر، ولا علاقة لنزول المطر بالمناخات كما يقولون، إنما المطر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد يكون للمطر أوقات معلومة، لكن قد ينزل في هذه الأوقات وقد لا ينزل، ففي بلادنا يسقط المطر في فصل الشتاء، وأما الصيف فليس فيه مطر، وهذا توقيت ليس فيه نسبة إلى النجوم، لكن قد يخلف الله هذه العادة وينزل المطر في الصيف ولا ينزل في الشتاء، وقد ينزل في مكان يقل نزوله فيه، ولا ينزل في مكان يكثر نزوله فيه حسب العادة، والآن نسمع عن بلاد كانت تنزل عليها الأمطار باستمرار، فأنحبس عنها وحصل فيها الجفاف، مع أنهم في الأول كانت بلادهم محل أمطار، فمن الذي حبس المطر عنهم؟ فدل ذلك على أن المطر ليس هو باتباع العادات، ولا باتباع المناطق، ولا باتباع الأوقات، وإنما هو بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يصرفه كيف يشاء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]، فَيَحْرِمُ هؤلاء، وَيُنْزِلُهُ عَلَى هؤلاء، وَيَمْنَعُهُ إِذَا شَاءَ، وَيُنْزِلُهُ إِذَا شَاءَ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فلا يجوز نسبة المطر إلى غير الله، لا إلى النجم، ولا إلى المناخ، ولا إلى الرياح، ولا إلى أي شيء، إنما هو بإذن الله، وبأمر الله، وهو نعمة من الله، هو سبحانه الذي ينزله، وهو الذي يحبس، وهو الذي يصرفه، لكن من نسبه إلى طلوع النجوم أو غروبها، فهذا فيه خصلة من خصال الجاهلية.

وتسمية هذه الأربع بالجاهلية دليل على الذم؛ لأن كل ما يُنسب إلى الجاهلية فهو مذموم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، فحمية الجاهلية وتبرج الجاهلية، هذا كله مذموم، وكل ما يُنسب إلى الجاهلية فإنه مذموم.

وهذا يدل أنه يجب على المسلم أن يعرف أمور الجاهلية لأجل أن يتجنبها ويحذر منها، وفي الأثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»^(١). فإذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية تُنقض عرى الإسلام عروة عروة، ويقولون: هذا من الآثار، وهذا من إحياء التراث، وهذا من كذا وكذا، ثم تظهر آثار الجاهلية وتدرس سنن الإسلام، بسبب الجهل بأمور الجاهلية.

فيجب على طالب العلم أن يعرف الجاهلية، ويعرف أمور الجاهلية حتى يحذر منها.

❦ قال: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، النياحة: رفع الصوت عند المصيبة، وشق الجيوب، ولطم الخدود، وتعداد محاسن الميت، هذا كلها من أمور الجاهلية، وهي كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن الواجب الصبر والاحتساب وترك الجذع والتسخط. وقد كانوا في الجاهلية ينوحون على الأموات ويستأجرون النائحات، ويحصل عندهم ضرب للخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٩٠)، ومدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

والشبور، وهذا جذع من قضاء الله وقدره، والواجب الصبر والاحتساب عند المصائب؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] أي: في اللوح المحفوظ مكتوبة، ولا بد أنها تقع مقدرة ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. أي: بقضاء الله وقدره، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم^(١). أي: تهون عليه المصيبة، أما إذا جذع وتسخط فإنه لن يرد القضاء والقدر، وأيضاً هو يتأثر ويتضايق، أما المؤمن فهو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢).

والبكاء عند المصيبة وعند الموت لا بأس به؛ لأنه شيء لا يملكه الإنسان، لكن من غير رفع صوت، ومن غير جزع، ومن غير كلام سيء، وقد دمعت عينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موت ابنه إبراهيم، فسئل عن

(١) هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٩٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢٣) موصولاً موقوفاً على علقمة، وأخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن (ص ٩٢٩) معلّقاً عن علقمة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفاً عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذلك، فقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(١). ولما مرض سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «قَدْ قَضَى» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ بُكَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزَنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذِّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»^(٢).

فالبكاء والحزن على فراق الميت لا بأس به، ما لم يصحبه نياحة، ورفع صوت، وفعل قبيح؛ كشق الثياب، أو لطم الخدود، أو غير ذلك مما كان يُفعل في الجاهلية.

❦ قال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَانٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدَرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»، النائحة هي التي تفعل النياحة، بأن ترفع صوتها عند وفاة الميت، أو تلطم الخد، أو تشق الثوب. والتوبة: المراد بها الرجوع عن معصية الله إلى طاعته، والله يقبل التوبة ممن تاب أيًا كان ذنبه، كفرًا أو شركًا، أو معصية صغيرة أو كبيرة، من تاب تاب الله عليه، وهذا من فضل الله ونعمته على عباده، بل إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مع أنه لا ينتفع بأعمال عباده ولا بطاعاتهم، وإنما يريد لعباده الخير، ولا يريد لهم الشر، ولا يريد لهم العقوبة، فإذا تابوا فرح الله بذلك فرحًا شديدًا. وفي الحديث عن

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَذْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَإِنَّا حَتَّى أَمُوتَ، فَوْضَعَ رَأْسُهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»^(١). والإنسان بحاجة إلى راحلته، لكن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى توبة هذا العبد، لكن العبد هو المحتاج إليها، والله يحب ما ينفع هذا العبد، وهذا من لطفه ورحمته.

❖ قال: «إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِكَ» فدل على أن النائحة لو تابت تاب الله عليها مع قبح فعلها، وقوله: «قَبْلَ مَوْتِكَ» دليل على أن التوبة مقيدة بما قبل الموت، أما إذا حضرت الغرغرة وبلغت الروح الحلقوم فلا تقبل التوبة حينئذ؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ»^(٢)؛ لأن كل إنسان يتوب عند الموت، حتى الكافر والمشرِك يتوب عند الموت، لكن لا تقبل توبته.

❖ قال: «تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني: تبعث من قبرها، «وَعَلَيْهَا سِرْيَالٌ» أي: ثوب، «مِنْ قَطْرَانٍ»، قيل: القطران: هو النفط المعروف المادة القابلة للاشتعال؛ ليكون ذلك أشد في اشتعالها -والعياذ بالله- وأنتن لريحها. وقيل:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد في المسند (١٣٢/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٨١/١٠)،

وأبو نعيم في الحلية (١٩٠/٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القطران: النحاس المذاب؛ ليكون ذلك أشد في تعذيبها، «وَدَرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»
والدرع: هو الجلال الذي يكون على المرأة أو الثوب أو القميص. والجرب:
هو مرض جلدي معروف يصيب الإبل، ويصيب آدميين، يتقطع منه
الجلد، وقد يسبب الموت، وذلك زيادة في تعذيبها والعياذ بالله.

فهذا فيه وعيد شديد على النائحة، وأنها يجب عليها أن تتوب إلى الله
قبل الموت، والواجب عليها عند وقوع المصيبة أن تصبر وتحتسب لقضاء الله
وقدره، ولا تجزع ولا تتسخط.



وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(١).

قوله: [عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ]: صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صَلَّى لَنَا) أي: بنا، قال الحافظ: (وفيه إطلاق ذلك مجازاً)^(٢).

قوله: (بِالْحُدَيْبِيَّةِ): بتخفيف يائها، وقد تثقل.

قوله: (عَلَى إِثْرِ): بكسر الهمزة وسكون الثاء المثناة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء^(٣).

قوله: (سَمَاءٍ) أي: مطر.

قوله: (فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ) أي: إلى المأمومين.

قوله: «هَلْ تَذَرُونَ»: لفظ استفهام، ومعناه التنبيه، وفي النسائي: «أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١).

(٢) انظر: فتح الباري (٥٢٣/٢).

(٣) انظر: فتح الباري (٥٢٣/٢).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٦٣/١)، وأحمد في المسند (١١٦/٤) من حديث زيد بن

وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبرهم.
 قوله: (قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ): فيه حسن الأدب للمسئول إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه، وذلك يجب.
 قوله: «أَضْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي»؛ لأنه نسب الفعل إلى فاعله الذي لا يقدر عليه غيره.
 قوله: «وَكَاْفِرٌ»: إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية، والمشرك كافر.
 قوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ»: فالفضل والرحمة صفتان لله تعالى.

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (صَلَّى لَنَا) أي: صلى بنا، أو اللام بمعنى الباء؛ لأن الصلاة إنما تكون لله عَزَّوَجَلَّ، (صَلَاةُ الصُّبْحِ) هي: صلاة الفجر، لأنها إنما تجب عند طلوع الفجر، ولذلك سميت صلاة الصبح وصلاة الفجر، (بالحديبية) اسم موضع قريب من مكة على حدود الحرم من الجهة الغربية، وهي الآن على طريق جدة تسمى «الشميسي»، هذا محل الحديبية.

❁ قال: (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ) أي: على إثر مطر، ويسمى المطر سماءً لأنه نزل من السماء، (كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ) يعني: أن هذا المطر نزل عليهم وهم في الليل من هذا المكان، (فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ) يعني: لما سلم من صلاة الفجر أقبل على الناس، وهذا هو المشروع للإمام أنه إذا سلم الصلاة

ينصرف ويستقبل المأمومين ولا يبقى مستقبلاً القبلة، وهذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم.

❁ فقال صلى الله عليه وسلم: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رِيُّكُمْ؟» أراد أن يعظ الناس، وفي هذا مشروعية الموعظة بعد الصلاة، لاسيما إذا صار لها سبب ومناسبة، فإن الإمام ينصح الناس ويعظهم ويذكرهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعظ الناس بعد الصلاة، لكنه لم يكن يداوم على هذا، ولكن كان يتخولهم بالنصيحة بين فترة وأخرى خشية أن يملوا. وقوله: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رِيُّكُمْ؟» هذا من باب إلقاء العلم على طريق السؤال؛ لأن هذا أنبه للمتعلم أن تسأله أولاً ثم تلقي عليه الجواب، وذلك أوقع في نفسه مما لو بدأته بإلقاء العلم بدون سؤال.

❁ وقوله: «مَاذَا قَالَ رِيُّكُمْ؟» فيه إثبات القول لله عز وجل، وأنه يتكلم متى شاء إذا شاء سبحانه وتعالى.

❁ قال: (قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) هذا فيه رد العلم إلى عالمه، ولا يتخرص الإنسان شيئاً لا يعرفه، ولا يتكلم في مسائل العلم إلا إذا كان يعرفها، فإذا كان لا يعرفها فإنه يردها إلى أهل العلم، أو يقول: الله أعلم.

❁ قال صلى الله عليه وسلم: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» لما تطلع الصحابة للجواب ألقاه عليهم صلى الله عليه وسلم؛ لأجل أن يثبت هذا في أذهانهم، وقوله: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي...» أي: قال الله عز وجل، فهذا حديث قدسي؛

لأن الحديث القدسي هو ما يرويه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه لفظاً ومعنى، والحديث غير القدسي هو ما كان من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعناه من الله عَزَّجَلَّ.

❁ قوله: «مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» وذلك بسبب نزول المطر؛ لأن المطر نعمة وابتلاء من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والناس عند النعم ينقسمون إلى قسمين: شاكر لها، وكافر بها، هذا في كل النعم في المطر وغيره، فالذي ينسبها إلى الله ويحمد الله عليها هذا شاكر لها، والذي ينسبها إلى غير الله هذا كافر بها.

❁ قال: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكُوكَبِ» من نسب المطر إلى الله وفضل الله، وقال: «مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ»، فهذا مؤمن بالله وأن المطر من الله، كافر بالكوكب، بخلاف أهل الجاهلية الذين ينسبون نزول المطر إلى الكوكب، ولذلك يُستحب للمسلم عند نزول المطر أن يقول: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك.

❁ قال: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا» أي: سبب المطر هو طلوع النجم أو غروبه، «فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ»؛ لأنه نسب النعمة إلى غير الله عَزَّجَلَّ، وهذا شرك في الربوبية. وقد يكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن النجم هو الذي أحدث المطر، وقد يكون شركاً أصغر إذا اعتبر أن النجم إنما هو سبب فقط، وأن المطر من الله.

وهذا يدل على أن التلفظ بكلمة الكفر يُعتبر كفرًا ولو لم يعتقد بقلبه. والآن بعض الناس يقول: لا يُحكم عليه بالكفر، ولو تلفظ بالكفر والشرك، ولو فعل الكفر والشرك، حتى يُعلم ما في قلبه!! من قال هذا؟! هذا كلام جاهل، نحن نحكم على الظاهر، وأما القلوب فالله هو الذي يحكم عليها.



وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ، وَفِيهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] ^(١).

قوله: [وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ، وَفِيهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾]: تقدم معناه قريباً.

... — الشَّبَحُ — ...

❁ قوله: (وَهُمَا) أي: البخاري ومسلم، (مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ) أي: يوافق حديث زيد بن خالد في المعنى، وإن اختلف معه في اللفظ.

❁ قال: (وَفِيهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا) قال بعضهم جهلاً منه، وعلى ما كانت عليه عادة أهل الجاهلية إذا نزل المطر، قال: (لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا)، فنسب المطر إلى النوء وهو النجم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ رَدًّا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ، وَبَيْنَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَذَلِكَ الْمَطَرُ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ.

الثَّانِيَّةُ: ذِكْرُ الْأَرْبَعِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ.

الخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» بِسَبَبِ نُزُولِ

النُّعْمَةِ.

السَّادِسَةُ: التَّفَقُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

السَّابِعَةُ: التَّفَقُّنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

الثَّامِنَةُ: التَّفَقُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذًّا وَكَذًّا».

التَّاسِعَةُ: إِخْرَاجُ الْعَالَمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمُسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا، لِقَوْلِهِ: «اتَذَرُونَ

مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

الْعَاشِرَةُ: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.



٣٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

[البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾]: قال في «شرح المنازل»: أخبر عزَّ وجلَّ أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في المحبة والتعظيم. انتهى^(١).

قلت: وقد وقع الشرك في الربوبية - أيضاً - في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة، فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفاً في الكون، ونحو ذلك.

قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن كثير: (إن كانت هذه الأشياء أحب

(١) انظر: مدارج السالكين شرح منازل السائرين (٣/ ٢٠).

إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا، أي: انتظروا ماذا يجل بكم من عقابه^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ أي: بيان تفسير هذه الآية والتي بعدها، وهذا الباب في المحبة، والمحبة من أعمال القلوب، وهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محبة العبادة، وهي التي يكون معها ذل وخضوع للمحبوب، وهذه أعظم أنواع العبادة، فمن أحب مع الله أحدًا يخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر، وهذا ما عليه المشركون عبدة الأوثان من الأصنام والقبور والأضرحة والأشجار والأحجار، ما عبدوها إلا لأنهم يحبونها محبة ذل وخضوع وانقياد، وهذا لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ	مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلْيَكُ الْعِبَادَةُ دَائِرٌ	مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ رَسُولِهِ	لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ ^(٢)

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٤٣).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/٢٥٣).

هذا تعريف العبادة: غاية الحب مع غاية الذل للمحبوب، ويتبع هذا جميع الأعمال، كل العبادة تدور على هذين القطبين غاية الحب مع غاية الذل، فمن أحب الله فقد عبده، ومن أحب غير الله محبة ذل وخضوع فقد عبده مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا معنى قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: يحبونهم محبة تساوي محبة الله، فدل على أن المشركين يحبون الله، ولكنهم لم يخلصوا محبتهم لله، بل أشركوا معه غيره فيها. بخلاف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمؤمنون يحبون الله والمشركون أيضًا يحبون الله، لكن المشركين يحبون مع الله غيره، وأما المؤمنون فهم يحبون الله محبة خالصة لا يحبون معه غيره، فلذلك صاروا أشد حُبًّا لله عَزَّجَلَّ، وهذه هي محبة العبودية التي يكون معها ذل وخضوع وانقياد للمحبوب.

النوع الثاني: محبة الشهوة واللذة؛ كمحبة الطعام والشراب والزوجة وسائر المشتريات، هذه محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان؛ لأنها ليس معها ذل ولا خضوع، كمن يحب الأكل والشرب، ويحب الفواكه، ويحب الزوجة، هذه محبة شهوة طبيعية، لكنه لا يذل ولا يخضع للمحبوب، فلا يؤاخذ في هذا.

النوع الثالث: محبة عاطفة؛ كمحبة الوالد لولده، ومحبة الولد لوالده، ومحبة القريب لأقاربه وأرحامه، هذه محبة محمودة، أن تحب والديك، وتحب أولادك، وتحب أقاربك، وهي من صلة الأرحام، وليس فيها شرك؛ لأنها

ليس معها ذل ولا خضوع، وليس معها انقياد للمحبوب، إنما هي محبة عاطفة وشفقة.

فهذان النوعان - محبة الشهوة ومحبة العاطفة - يُقال لهما: المحبة الطبيعية؛ لأن الإنسان طُبِعَ عليها فلا يؤاخذ عليها، أما محبة العبودية فهي التي لا تكون إلا لله عَزَّجَلَّ، وهي محبة العبادة.

فالمحبة الطبيعية هذه ليست عبادة، ولا يؤاخذ عليها الإنسان، لكن إذا قدمها على محبة الله ورسوله، فإنه يكون ملومًا ومتوعدًا، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ عِبَادُ اللَّهِ ابْنَائَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة: ٢٤]، هذا تهديد، أي: انتظروا ماذا سيحل بكم ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فمن قدم محبة الوطن، ومحبة المال، ومحبة الأزواج والأقارب على محبة الله ورسوله، فإنه متوعد وعاص لله ورسوله، والواجب العكس: أن يقدم محبة الله ورسوله على هذه الأشياء.

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين تخلفوا في مكة وتركوا الهجرة محافظة على هذه الأشياء، شحوا بأموالهم ومساكنهم في مكة، وأولادهم وأقاربهم، وتركوا الهجرة، فعاتبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوعدهم؛ لأنهم قدموا محبة هذه الأشياء على محبة الله ورسوله فلم يهاجروا، بخلاف المؤمنين الذين تركوا أموالهم وديارهم وأولادهم، وتركوا محبوباتهم، وهاجروا إلى الله

ورسوله، فالمسلم إذا قدم هذه المحبوبات المذكورة في هذه الآية أو غيرها على محبة الله ورسوله صار عاصياً متوعداً بأشد الوعيد، أما إذا لم يقدمها على محبة الله ورسوله فإنه لا يُلام، فلا بأس أن يحب الإنسان بلده، ويحب بيته، ويحب ماله، ويحب أولاده، ويحب زوجته، ويحب عشيرته، ما لم يقدم هذه المحبوبات على محبة الله ورسوله، فإذا قدم عليها محبة الله ورسوله دل ذلك على صدق إيمانه، وإن قدم محبتها على محبة الله ورسوله دل ذلك على نقص إيمانه أو عدم إيمانه، فيجب التنبه لهذا.

والمحبة هي أعظم أنواع العبادة، والعبادة ليست مقصورة على المحبة كما يقول الصوفية: إن العبادة هي الحب فقط، ونحن لا نعبد الله خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، وإنما نعبده لأننا نحبه فقط^(١). وهذا ضلال مبين، بل الله عَزَّجَل يُعبد محبة له، وخوفاً منه، وطمعاً في جنته، هذه طريقة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أنهم يحبون الله، ويطمعون في جنته، ويخافون من ناره، قال عَزَّجَل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) هذا القول يُسب إلى أحمد بن الموفق أبو الحسن الصوفي، المتوفى سنة خمس وستين ومائتين. راجع الجزء الأول (ص ٣٣).

فليست العبادة مقصورة على المحبة كما هي طريقة الصوفية الضلال، وكذلك ليست العبادة مقصورة على الخوف فقط كما هي طريقة الوعيدية الخوارج، وليست مقصورة على الرجاء فقط كما هي طريقة المرجئة، ولهذا يقول العلماء: من عبد الله بالمحبة فقط، فهو صوفي، ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ، ومن عبد الله بالخوف فقط فهو خارجي حروري، إنما المؤمن هو الذي يعبد الله بمجموع هذه الأمور: بالمحبة والخوف والرجاء والرغبة والرغبة، فينبغي معرفة هذه الأمور.

ثم أيضًا ليست محبة الله بمجرد الدعوى، ولكن لها علامات وأدلة، من أحب الله فإنه يحب ما أحبه الله ويبغض ما يبغضه، فيحب من يحبه الله من الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والمتقين، ويبغض الكفار والمنافقين والمشركين ويعاديهم؛ لأنهم أعداء الله وأعداء لرسوله، ويكون ذلك منه دليلًا على محبته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الذي يقول: أنا أحب الله ولكنه لا يعادي المشركين ويواليهم، فهذا كذاب، كذلك من يقول: أنا أحب الله. ويبغض أولياء الله ويعاديهم، هذا أيضًا كذاب.

وكذلك من علامات محبة الله اتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دليل على محبة الله، أما الذي يزعم أنه يحب الله ولكنه لا يتبع الرسول فهو كذاب، وكذلك الذي يدعي أنه يحب الرسول ويرتكب ما نهى عنه فهو كاذب في حبه للرسول، ومن ذلك الذي يحدث

البدع التي نهى عنها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعله هذا دليل على أنه يبغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن قال: أنا أحب الرسول. لأنه لو كان يحب الرسول لترك ما نهى عنه من البدع.

فالذين يقيمون الاحتفالات والموائد البدعية، ويقولون هذا دليل على محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. نقول لهم: كذبتُم، هذا دليل على مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمخالفة تدل على بغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه من كان محباً للرسول فإنه يتبعه بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، وأنتم تفعلون ما نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحذر منه وهو البدع.

إذاً المسألة ليست مسألة ادعاء ومسألة مظاهر، بل المسألة حقائق وعليها أدلة، ولها شواهد.

وكذلك من علامات محبة الله أن يكون ما يكرهه الله ويبغضه الله أبغض عليك من النار، ومن العلقم، ومن السم، ومن أي مكروه، هذا دليل على محبة الله.

فالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في هذا الباب علامات محبة الله ورسوله، وسيذكر فيما يأتي النصوص الدالة على صحتها، وما ينافي محبة الله ورسوله، أثبت ذلك بالنصوص ولم يأت بشيء من عنده، وهذه هي الطريقة الصحيحة أن الإنسان لا يقول قولاً في دين الله إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

قوله: «لَا يُؤْمِنُ» أي الإيمان الواجب، والمراد كماله حتى يكون الرسول صلي الله عليه وسلم أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، وذلك يقتضي تعظيم أمره ونهيه واتباعه في ذلك دون من سواه، ومن كان كذلك فقد أحب الله كما في آية المحبة. قوله: (أَخْرَجَاهُ) أي البخاري ومسلم.

... — الشَّيْخُ — ...

هذه هي محبة الرسول، فكما تحب محبة الله عَزَّجَلَّ تحب محبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعة لمحبة الله عَزَّجَلَّ، فهي تأتي بعد محبة الله، وكذا محبة كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، وليست محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجرد محبة فقط، بل يجب أن يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إلى العبد من الولد والوالد، ومن كل شيء، هذا دليل محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من ادعى محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه يقدم عليه محبة هذه الأشياء، فهو كاذب في دعواه، فمن قال: أنا أحتفل بمولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إظهاراً لمحبته. نقول له: أنت كاذب في دعواك محبته؛ لأن المولد هذا بدعة، والرسول نهى عن البدعة، فلو كنت تحب الرسول لكرهت هذه البدعة وتجنبتها.

❁ وقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» ليس نفياً لأصل الإيمان، وإنما هو نفى لكمال الإيمان، أي: لا يكمل إيمان أحدكم، هذا إذا كان يحب الرسول

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن لا يقدم محبته على محبة غيره من الخلق. أما إذا كان الإنسان لا يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلاً، بل يبغض الرسول، فهذا كافر.

فلا يكمل إيمان العبد ولا يتم حتى يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده الذي هو بضعة منه وجزء منه، وأحب إليه من والده الذي هو أصله والمحسن إليه، وأحب إليه من الناس أجمعين أيًا كانوا. وهذا يقتضي أن يقدم الإنسان طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر، وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من الناس بأمر يخالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يجب عليك معصية هذا الأمر وطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو الدليل على محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن لا تقدّم على محبته شيئاً، ولا تقدّم على طاعته شيئاً؛ لأن طاعته ثمرة محبته، ومن علامات محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك ما لم يشرعه من البدع والمحدثات؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، أي: مردود عليه عمله هذا.

أما الذي يدّعي أنه يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُقيم الموالد والاحتفالات المبتدعة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهاه عن البدع والمحدثات، فلا يطيعه، وإنما يطيع المخرفين والدجالين في هذا، فهذا كاذبٌ في محبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن البدع والمحدثات والخرفات ولو كان الناس عليها ولو كان عليها أبوك أو ابنك أو أقرب الناس إليك، فمن كان

(١) سبق تخريجه (١/١٠٠).

عنده بدعة ومخالفة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب عليك مخالفته في بدعته، فإذا أطعته فيها كان هذا دليلاً على عدم صدق محبتك للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالحاصل: أن الدليل على حبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس دعوى تُقال، أو احتفال يُقام، إنما هو متابعتة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع. ونحن لا نقبل الدعوى، وإنما نقبل الدليل على الدعوى.

فالذين يعملون بالسنة ويتركون البدع، هؤلاء قدموا الدليل على محبتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما الذين يدعون أنهم يحبونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنهم يخالفونه فيما نهى عنه، ويتركون ما أمر به، طاعةً لأنفسهم أو طاعة لغيرهم، فإن هذا دليل على عدم صدقهم في محبتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا أراد أحدٌ منا أن يختبر إيمانه فلينظر إلى موقع هذا الحديث منه ويطبِّقه على نفسه، هل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه، هل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين؟ فإن كان كذلك فهو يحبُّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ^(٢).

قوله: [وَلَهُمَا عَنْهُ - أي: البخاري ومسلم عن أنس - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...] الحديث.

قوله: «ثَلَاثٌ» أي: خصال.

قال شيخ الإسلام: أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم، الذي هو المحبوب أو المشتهى. قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفرغها، ودفع ضدها، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يُكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما^(٣).

قلت: ومن لازم محبة الله محبة أنبيائه ورسله وملائكته وكتبه والصالحين من عباده، وكرهه ما يكره سبحانه ومعاداة أعدائه، وموالاة أوليائه،

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٠٥، ٢٠٦).

فلا يحصل كمال محبة الله الواجبة إلا بكمال ذلك، وإيثاره على ما تهواه النفوس مما يخالف ذلك.

قوله: «أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»: ثنى الضمير هنا لتلازم المحبتين، والله أعلم.

قوله: «كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» أي: يستوي عنده الأمران.
قوله: [وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ»]: هي عند البخاري في الأدب المفرد^(١)،
ولفظه: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءُ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا».

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ» أي: ثلاث خصال، «مَنْ كُنَّ فِيهِ» أي: اجتمعن فيه، ووُجدن فيه، «وُجِدَ بِهِنَّ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ» أي: لذته؛ لأن الإيَّان الصادق له لذَّة في النفوس، وله طمأنينة في القلوب، فما هي هذه الخصال الثلاث؟

الخصلة الأولى: «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» أي: أحب إليه من نفسه، ومن والديه، وأحب إليه من الأولاد والأقارب والأصدقاء

(١) سبق تخريج هذه الرواية (٤٩١/٢) عند البخاري في صحيحه، وليست في الأدب المفرد.

وسائر الناس، وأحبّ إليه من كل شيء، وهذا يقتضي تقديم قولهما على قول كل أحد.

الخصلة الثانية: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ» أي: يحب الإنسان من بني آدم لا من أجل طمع دنيا أو عرض عاجل، إنما يحبه الله؛ لأنه مؤمنٌ تقي مطيعٌ لله. أما الذي يحب الشخص من أجل الدنيا أو من أجل الأطماع أو الشهوات أو الأغراض، فهذه محبة لا تنفعه عند الله شيئاً.

فكثيرٌ من الناس يتحابُّون ويتآلفون من أجل أمور الدنيا، من أجل الرجاء والطمع وغير ذلك، إن أحسن إليه وأعطاه شيئاً أحبه، وإلاّ فإنه لا يحبه، وهذه جبلة طبعية موجودة في البهائم والكلاب والقطط إذا أحسنت إليها فإنها تألفك وتحبك، فقد جُبِلَت القلوب على حب من أحسن إليها، لكن هذا ليس فيه مزية، إنما المزية أن تحبه لا من أجل شيء أعطاك، وإنما تحبه من أجل الله عزَّ وجلَّ، هذه هي الدرجة العالية الرفيعة من المحبة في الله.

الخصلة الثالثة: «وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»، كل الناس ينفرون من النار؛ لأنها مؤلمة، ولا أحد يصبر على حرها، فكلُّ يفرُّ من النار ويتعد عنها، والكفر نار، والمسلم الذي منَّ الله عليه بالإسلام يكره أن يعود إلى الكفر، ويكره الرَّدَّة عن دين الإسلام، كما يكره أن يُلقَى في النار، هذا هو المؤمن حقاً، الذي تمكَّن الإيمان من قلبه فلا يساوم عليه، ولا يتنازل عن شيء منه أبداً مهما كلفه الأمر، بل يتمسك بدينه؛ لأنه وجد حلاوة الإيمان ولذته.

أما الذي يدّعي الإيَّان، ولكنه يتنازل عن الإيَّان أو عن شيء منه، من أجل الخوف أو الطمع أو غير ذلك، فهذا دليل إما على عدم إيَّانه، أو على نقصان إيَّانه.

فهذا الحديث ميزان يزن العبد به إيَّانه:

«أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»: فإذا عرض له شيء من العوارض فإنه يقدّم محبة الله ورسوله على محبة ذلك العارض.

«وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»: لا يحبه من أجل طمع الدنيا ومرغباتها.

«وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»: قال شيخ الإسلام: (هذا فيه تكميل المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها).

فتكميل المحبة: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

ودفع ما يضادها: أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار.

❁ قوله: (وفي رواية: «لَا يَجِدُ أَحَدًا حَلَاوَةَ الْإِيْمَانِ...»)) هذه الرواية في صحيح البخاري، وفائدتها: أنها نفّت بمنظومها وجود طعم الإيَّان عمن لم يتّصف بهذه الصفات الثلاث، أما الرواية الأولى فهي دلّت بمفهوم المخالفة على أنّ من لم تكن فيه هذه الخصال فإنه لا يجد طعم الإيَّان، وإن كان فيه إيَّان، لكنه لا يتلذّذ به ويجد طعمه، فالرواية الثانية دلّت بالمنطوق، والأولى بالمفهوم، ولهذا ساقها الشيخ رحمه الله، بعد الحديث.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مَوَاحِدِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١).

قوله: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ) أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته، من أجل ذلك.

قوله: (وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ) أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه؛ لارتكابه ما يسخط الله، وإن كان أقرب الناس إليه، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قوله: (وَوَالَى فِي اللَّهِ) بالمحبة والنصرة بحسب القدرة.

قوله: (وَعَادَى فِي اللَّهِ) من كان عدواً لله ممن أشرك وكفر وظاهر بالمعاصي، فتجب عداوته بما يقدر عليه.

قوله: (فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ) أي: توليه لعبده، وَوَلَايَةُ بفتح الواو. وفي الحديث: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ عَزَّجَلَّ». رواه الطبراني^(٢).

(١) أخرج نحوه ابن أبي شبيه في مصنفه (١٣٤/٧)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٩٣٥، ٩٣٦) موقوفاً على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضُ فِي اللَّهِ...» الحديث.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٥٧، ١٠٥٣١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه في الكبير أيضاً (١١٥٣٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ...) إلى آخره، أي: لا يحصل له ذوق الإيمان وبهجهته ولذته وسروره والفرح به، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مَوَاحِدِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا)، يعني: أنه إذا ضعف داعي الإيمان أحب دنياه، وأحب لها، وواخي لأجلها، وهذا هو الغالب على أكثر الخلق: محبة دنياهم، وإيثار ما يهونونه على ما يحبه الله ورسوله، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا، بل يضر في العاجل والآجل، فالله المستعان.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

هذا الأثر فيه علامات ولاية الله عَزَّوَجَلَّ، وهو بمعنى الحديث الذي قبله أن علامة محبة العبد لله: أن يحب لله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله، أما إذا كان الناس عنده سواء، ولا يفرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ولا بين أولياء الله وأعداء الله، ولا بين الدين الحق والدين الباطل، فهذا دليل على أنه لا يحب الله عَزَّوَجَلَّ، وإن ادعى أنه يحب الله فهو كذاب. فالذي يقول: نحن لا نبغض اليهود لدينهم، وإنما نبغضهم لأنهم مغتصبون، ولأنهم ظلمونا!! هذا لا يحب في الله ولا يبغض في الله، إنما يحب لأجل الدنيا، لأنهم لو لم يكونوا مغتصبين ما بغضهم؟ ولقال: هم إخواننا؛ لأنهم مؤمنون، ونحن مؤمنون!! كما سمعنا بمن يقول ذلك الآن.

وهذا كلام لا يقوله مسلم، فضلاً عن أن يقوله طالب علم، نسأل الله العافية.

❁ قوله: (وَلَايَةُ اللَّهِ) بفتح الواو، يعني: محبة الله، فمن كان يريد أن ينال محبة الله له فليتصف بهذه الصفات: يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله، فتتحقق له ولاية الله؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، هؤلاء هم الذين نالوا ولاية الله عَزَّجَلَّ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ويحبون في الله، ويبغضون في الله، ولن ينال عبد ولاية الله إلا بذلك.

❁ قال: (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَبَكْ)، فدل على أن طعم الإيمان لا يُنال بكثرة الصلاة والصيام والأعمال، وإنما يُنال بالولاء والبراء: الولاء لأهل الإيمان، والبراءة من أهل الكفر والطغيان، أما من كان لا يوالي ولا يعادي في الله فلن ينال ولاية الله، حتى ولو كثرت صلواته وصيامه، وحجه وعمرته، وصدقاته، ما دام الناس عنده سواء، ويقول: ليس علي من أمر الناس شيء، لا يشغلني إلا أمر نفسي، وأنا أصلح نفسي فقط، والناس لهم دينهم ولي ديني!!

نقول لمثل هذا: أنت أصلاً ما عرفت الإيمان، فالإيمان ليس مجرد أن تعمل فقط وتقتصر على نفسك، بل في الإيمان من الولاء والبراء، فتوالي أهل الإيمان، وتعادي أهل الكفر والطغيان.

❦ قوله: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مَوَاحِدِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا) هذا في وقت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يشكو من حالة الناس في وقته الذي هو أحسن العصور، حيث يقول: (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ) يعني: أكثر موالاة الناس لأجل الدنيا، فمن أحسن إليهم أو أعطاهم من ماله أحبوه، ومن لم يعطهم فإنهم لا يحبونه، فهم تبع دنياهم فقط، هذا في وقته، فكيف بالأوقات المتأخرة، الأمر ازداد واشتد. قال: (وَذَلِكَ لَا يُجْدِي) يعني: لا ينفع (عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا)، فالذي ليس عنده ولاء ولا براء لله عَزَّجَلَّ، فإن عمله لا يجدي عليه شيئًا.



وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].
قَالَ: الْمَوَدَّةُ^(١).

قوله: [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾
قَالَ: الْمَوَدَّةُ]، أي: التي كانت بينهم، خانتهم أحوج ما كانوا إليها، قال عَزَّجَلَّ:
﴿وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ
النَّارُ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥].

... — الشَّيْخُ — ...

المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت وانقلبت عداوة، فالذين عبدوا
الأصنام والأشجار والأحجار والأولياء والصالحين، والذين عبدوا الجن
والشياطين في يوم القيامة تنقلب هذه العداوة إلى بغض، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ
أَصْلُ مَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ﴾ ⑤ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحقاف: ٥-٦].

وفي هذه الآية يقول عَزَّجَلَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَتَّبَعُوا
وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] تحولت المحبة التي كانت
بينهم في الدنيا إلى عداوة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. مع أن الخلّة هي أعلى درجات المحبة،
وقد كانت بينهم في الدنيا، إلا أنها يوم القيامة تتحول إلى عداوة، ويقولون

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/٣)، وابن أبي حاتم (٢٧٨/١)، والبخاري معلقاً
مجزئاً به (٨/ ١١٠ فتح) قَالَ: «الْوَصْلَاتُ فِي الدُّنْيَا».

لقرائهم: أنتم أضللتُمونا، وأهلكتمونا، أنتم السبب في دخولنا النار، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]، وقال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ فِي مَا كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿[سبا: ٣١-٣٣]، وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

هكذا تكون حالهم يوم القيامة: خصومة وعداوة وبغضاء، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض، وتنقلب المحبة التي كانت بينهم في الدنيا إلى عداوة؛ لأنها على غير دين الله، محبة على غير أساس، إنما تبقى المحبة التي كانت في الدنيا على أساس من الإيمان والعقيدة الصحيحة؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْدِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، أما الكفار والمشركون فبالعكس: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفَيْنِ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿[الأعراف: ٣٨-٣٩].

هذه طريقتهم في جهنم والعياذ بالله، وكل محبة قامت على الشرك والكفر فإنها تنقلب إلى عداوة يوم القيامة، ومن هؤلاء: عبدة الأصنام والأضرحة والقبور، وإن تصافوا في الدنيا فإنهم في الآخرة يكونون أعداء، ويلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض، ولا تبقى إلا المحبة في الله وبالله عَزَّجَلَّ، المحبة التي على الأساس الصحيح وعلى العقيدة السليمة، التي قامت على الحب في الله والبغض في الله، والولاء والبراء في الله عَزَّجَلَّ.

فيجب التنبه لهذا؛ الناس الآن تفرقت بهم الأهواء، وتشتت بهم المذاهب، وصاروا يوالون ويعادون على الحزبيات، وعلى الجماعات، وعلى المذاهب، لا يعادون ويوالون على اتباع الحق وعلى الصراط المستقيم.

والمسلم ينبغي له أن يجعل حبه وبغضه لله وفي الله عَزَّجَلَّ، ولا يجعله للهوى والحزبيات والجماعات، من وافقه أحبه ومن خالفه أبغضه!! ليس بهذا تكون المحبة، بل ينبغي أن يحب أهل الإيمان، ويبغض أهل النفاق والطغيان، هذا هو الأصل والأساس، وهذا هو المحور الذي تدور عليه المحبة، لا على الحزبيات والجماعات والمناهج المخالفة لمنهج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةِ.

الثَّالِثَةُ: وَجُوبُ مَحَبَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا.

السَّادِسَةُ: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ

أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

السَّابِعَةُ: فَهُمُ الصَّحَابِيُّ لِلْوَقَائِعِ: أَنَّ عَامَّةَ الْمُوَاحِدَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثَّامِنَةُ: تَفْسِيرُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ حُبًّا شَدِيدًا.

الْعَاشِرَةُ: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَتْ الثَّمَانِيَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ فَهُوَ الشُّرْكُ

الْأَكْبَرُ.

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ) وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، تفسيريها: أن

المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، ولذلك صاروا مشركين، أما المؤمنون

فإنهم يحبون الله محبة خالصة، فلذلك صاروا مؤمنين بإخلاصهم المحبة لله عزَّ وجلَّ.

❁ قوله: (الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةِ)، وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤]، وأن المراد تقديم هذه المحبوبات على محبة الله ورسوله، أما من أحبها ولم يقدمها على محبة الله ورسوله، فإنه لا يلام؛ لأن هذه محبة طبيعية.

❁ قوله: (الثَّالِثَةُ: وَجُوبُ مَحَبَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ)، فإذا عرض له شيء من العوارض فإنه يقدم محبة الله ورسوله على محبة ذلك العارض.

❁ قوله: (الرَّابِعَةُ: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ)، فقولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ» ليس معناه أنه يكفر، لكن معناه أن إيمانه ينقص، فقد يأتي نفي الإيمان ويراد به نفي الكمال لا نفي الأصل.

❁ قوله: (الخَامِسَةُ: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا) ليس كل مؤمن يجد حلاوة الإيمان، إنما يجدها من أخلص المحبة لله والبغض في الله، هذا هو الذي يجد حلاوة الإيمان وطعم الإيمان.

❁ قوله: (السَّادِسَةُ: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا تُنَالُ وَلَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا) أي: التي ذكرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❖ قوله: (السَّابِعَةُ: فَهُمُ الصَّحَابِيُّ لِلْوَقْعِ: أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا) أي: فهم ابن عباس لواقع الناس في وقته أن عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، من أعطاهم من دنياه أحبوه، ومن لم يعطهم أبغضوه، ولا ينظرون إلى الإيثار والكفر، وإنما ينظرون إلى طمع الدنيا، وهذا لا يجدي على أهله شيئاً.

❖ قوله: (الثَّامِنَةُ: تَفْسِيرٌ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾) أن المراد بالأسباب: المحبة والمودة؛ كما فسرهما ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فدل على أن المحبة سبب للشقاء أو سبب للسعادة، فمن أحب في الله وبالله سعد، ومن أحب على أساس الكفر والشرك شقي.

❖ قوله: (التَّاسِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ حُبًّا شَدِيدًا)، ولكن المؤمنين أشد حُبًّا لله، فمع أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا، إلا أنه لا ينفعه شيئاً بسبب حبه مع الله غيره.

❖ قوله: (الْعَاشِرَةُ: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَتِ الثَّانِيَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ) وهي المحبوبات الثمانية التي في آية التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤]، والكلام على من قدم هذه المحبوبات على محبة الله ورسوله، أما من أحبها المحبة الطبيعية، ولم يقدمها على محبة الله ورسوله، فإنه لا يلام على محبتها.

❖ قوله: (الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: أَنَّ مِنَ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ فَهُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ)؛ لأن اتخاذ الند مع الله يحبه كمحبة الله شرك أكبر يخرج من الملة.



٣١- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٧٥].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾]: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم، ولا يأمرهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر عَزَّجَلَّ أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم).

قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم^(١). فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم^(٢).

فدلت هذه الآية على أن الخلاص من الخوف من كمال شروط الإيمان. وسبب نزول الآية مذكور في التفاسير والسير^(٣).

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢١) عن قتادة أنه قال: «قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾: يخوف والله المؤمن بالكافر، ويُرهب المؤمن بالكافر». أما الوجه الذي ذكره ابن القيم عن قتادة في تفسير الآية، فقد أخرج الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢٠) عن السدي، قال: «يعظم أولياءه في صدوركم فتخافونهم».

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١١٠).

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٨١)، وتفسير الطبري (٤/ ١٨١، ١٨٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨١٧).

... — الشَّيْخُ — ...

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾) أي: ما جاء في تفسير هذه الآية وسبب نزولها، مما يدل على أن الخوف نوع من أنواع العبادة، وأنه يجب أن يكون خالصاً لله عَزَّجَلَّ، فلا يُخَافُ معه أحد، أو يُخَافُ من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومناسبة هذا الباب للذي قبله واضحة؛ لأن الذي قبله في المحبة وهي نوع من أنواع العبادة، وكذلك الخوف أحد ركائز العبادة، مما يدل على أن العبادة ليست هي المحبة فقط، بل لابد أن يكون معها خوف، ويكون معها رجاء، ويكون معها خشية لله عَزَّجَلَّ، والمحبة والخوف والرجاء والرغبة والرغبة والتوكل كلها عبادات قلبية من أعمال القلوب.

هذا وجه المناسبة أن لا يفهم أحد أن العبادة مقصورة على المحبة كما تقول الصوفية، وإنما العبادة محبة وخوف ورجاء وخشية وتوكل ورغبة ورهبة في القلوب، وكذلك أعمال الجوارح، وأقوال اللسان، فالعبادة واسعة؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمساكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك

من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له، التي خلق الخلق لها»^(١).

❦ قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية في سياق الآيات التي ذكرها الله في قصة غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة بدر، وذلك أن المشركين أرادوا الثأر مما أصابهم من المسلمين في وقعة بدر، فجمعوا جيشاً وجاءوا غازين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين في المدينة، وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون، والتقى الجمعان عند جبل أحد قريباً من المدينة، ونظم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين، وأمرهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بأمره، ودارت المعركة، وانتصر المسلمون في أولها، وشرعوا يجمعون الغنائم، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نظم رماة ووضعهم على الجبل يحرسون ظهور المسلمين، وأمر عليهم عبد الله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رأوا المشركين يتراجعون ويهربون أمام المسلمين ظنوا أن المعركة انتهت، وأرادوا النزول من الجبل، وقد قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ»^(٢)، فلما رأوا المسلمين يجمعون الغنائم قالوا: ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩، ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالوا: والله لنايتين الناس فلنصيبين من الغنيمة. فنزلوا وخالفوا قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأى المشركون الجبل قد فرغ انقضوا على المسلمين من خلفهم دون أن يشعر المسلمون، فصار المسلمون بين جموع المشركين، وصار على المسلمين ما صار من العقوبة، واستشهد منهم سبعون، وأصيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل هذا لأجل مخالفة أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فانظروا كيف كانت العقوبة على خيار الخلق لما خالفوا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

وانتهت المعركة، وأصاب المسلمين ما أصابهم من القرع الشديد، والقتل، فلما انصرف أبو سفيان عن أحد ومعه المشركين خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أثره حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة؛ ليُري الناس أن به وأصحابه قوة على عدوهم.

فلما علم أبو سفيان بمسير النبي وأصحابه إليهم، قذف الله في قلبه ومن معه الرعب، وولوا مدبرين، ومر بهم ركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها، وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٠).

قال عَزَّجَلَّ في وصف ذلك: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى ديارِهِمْ فَأَمَّا الْفِرْعَوْنُ وَآلُ فِرْعَوْنَ الظَّالِمِينَ فَكَرَهُوا بِرَبِّهِمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَالَمَ اللَّهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿آل عمران: ١٧٢-١٧٤﴾، ورجع المسلمون سالمين من أذى الكفار، وألقى الله الرعب في قلوب أعدائهم، ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: هذا الذي حصل من المشركين من التهديد، وأنهم سيرجعون على المسلمين، إنما هو من الشيطان ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوف المسلمين بأوليائه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿آل عمران: ١٧٥﴾.

هذا محل الشاهد من الآية: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوف المسلمين بأوليائه من الكفار، وأن هذا التهديد الذي حصل إنما هو من الشيطان، وهذا ما يسمونه الآن «الحرب النفسية»، يريدون أن يرهبوا المسلمين، ولكن الله عَزَّجَلَّ ثبت المسلمين، فلم يزداهم هذا التهديد إلا إيمانًا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿آل عمران: ١٧٣﴾، أي: توكلوا على الله عَزَّجَلَّ، وعلموا أنه لن يضرهم أحد إلا بإذن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وخرجوا للقاء المشركين، ولم يتواروا ويجلسوا في البلد، بل خرجوا إيمانًا بالله ورسوله على ما فيهم من الجراح، وما فيه من المصيبة، لكن الإيمان يملأ قلوبهم.

وهذا موجود في كل وقت أن شياطين الإنس والجن يعظمون الكفار ويهونون من شأن المسلمين، ويقولون: هؤلاء عندهم صواريخ، وعندهم

دبابات، وعندهم أسلحة، وعندهم... وعندهم، فيخوفون المسلمين، هذا نهج المنافقين من شياطين الإنس والجن، يعظمون الكفار، ويقولون: اسكتوا عنهم، لا تقولوا شيئاً، حتى لا يهجموا عليكم، أو يقطعوا عنكم المدد، أو يحدث منهم ضرر عليكم.

وهي - أيضاً - طريقة دعاة الضلال في كل زمان وفي كل مكان، يعظمون من شأن الكفار، ويخذلون المسلمين، ويهونون من شأن المسلمين، ويقولون: لا تأمروا بالمعروف، ولا تنهوا عن المنكر؛ لئلا يتقدمكم الكفار، كونوا منفتحين واسمحوا للرأي والرأي الآخر، ودعوا الناس يتكلمون في العقائد ويتكلمون في أمور الإيمان، ولا تصادروا الآراء والحريات!!

ومعنى ذلك أن يُترك الناس في فوضى، ولا تُبَيَّن لهم العقيدة الصحيحة، ولا ينكر أحد على المشركين ولا على أهل الزيغ وأهل الضلال!!

وهذا شيء موجود الآن، يوجد أناس يدعون إلى التقارب بين اليهود والنصارى والمسلمين، ويدعون إلى التقارب بين المذاهب الإلحادية مع الإسلام، ويقولون: كل له رأيه، عليكم بالتعايش السلمي، وكلمات من هذا المعنى!! يعني: يُعطل الجهاد، ويُعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتُعطل الدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، ويُعطل بيان الحق من الباطل، كل هذا يعطل.

ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُواْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، فلما خافوا الله عَزَّجَلَّ وتوكلوا عليه، ولم يؤثر فيه تهديد المشركين، ألقى الله عَزَّجَلَّ الرعب في

قلوب أولياء الشيطان من المشركين، فدلّت هذه الآية على أن الخوف عبادة من أنواع العبادة، يجب إخلاصها لله عَزَّوَجَلَّ.

وذكر العلماء أن الخوف على قسمين:

القسم الأول: خوف العبادة، أو ما يُسمى بخوف السر، وهو على نوعين:

النوع الأول: أن يخاف الإنسان من الأصنام والأوثان، أو من الموتى والقبور أن تصيبه؛ كما يخاف المشركون من أوثانهم وأصنامهم، ويخاف القبوريون من الأموات على رزقهم وعلى أولادهم، فالقبوريون الآن في قلق عظيم؛ لأنهم يخافون من الأموات أن يصيبوهم في أموالهم وأنفسهم وأولادهم وأرزاقهم. هذا خوف عبادة، وهو شرك أكبر.

فإذا خاف الإنسان من الجن أو من الشياطين، أو خاف من الأموات، أو خاف من الأشجار والأحجار والأضرحة أن تصيبه، فهذا شرك أكبر يخرج من الملة، وهذا ما يسمى بخوف العبادة، وخوف السر، فإذا خافوهم تقربوا إليهم بالذبح والنذر، وطافوا بقبورهم، وتبركوا بأضرحتهم، كل هذا من الخوف، يريدون أن يسلموا من أذاهم، ويقولون: لو ما عملنا هذا الشيء نصاب في أنفسنا وأموالنا وأولادنا، فيروجون على العوام والجهال هذا الشيء، ويخوفونهم من هذه المعبودات، هذا خوف السر وخوف العبادة.

النوع الثاني: إذا خاف الإنسان من الناس فلم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، هذا أيضًا نوع من العبادة، لكنه شرك أصغر، هو يخاف الله عَزَّوَجَلَّ

ولا يخاف من الأوثان ولا من الأصنام ولا من القبور، ولكنه يخاف من الناس إذا دعا إلى الله أو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر هذا نوع من الشرك، فالذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويترك الدعوة إلى الله خوفاً من الناس ومجاملة للناس داخل في هذا.

والقسم الثاني: الخوف الطبيعي؛ كأن يخاف الإنسان من السبع أو من الثعبان أو من العدو أن يقتله، هذا خوف طبيعي لا يدخل في العبادة، فيأخذ الإنسان الاحتياط والحذر هذا لا بأس به، والله عَزَّجَلَّ ذكر عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه خرج من مصر خائفاً لما حصل منه قتل النفس، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، هذا خوف طبيعي لا بأس به، ولا يدخل في العبادة، والعبد مأمور أن يأخذ حذره، وأن يأخذ السلاح والوقاية من الذي يضره.



وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قوله: [وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾]: أخبر عزَّ وجلَّ أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد، مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾: قال ابن عطية: (يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه)^(١).

قلت: لأن النفع والضرر إنما يكون بمشيئته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (والخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله: كالذل والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب)^(٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ١٦).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص ٤٣٧).

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل عسى في القرآن فهي واجبة^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧-١٨]، لما نفى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِمَارَةَ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَسَاجِدِ أَثْبَتَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لأنَّ المُشْرِكِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَيَصْرِفُونَ أَنْوَاعَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَالْمَسَاجِدُ بِيُوتِ اللَّهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُيَارَسَ فِيهَا الشَّرْكُ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فِيَجِبُ أَنْ تُطَهَّرَ الْمَسَاجِدُ مِنَ الشَّرْكِ، وَمِنَ الْبِدْعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ وَالْخُرَافَاتِ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقِيمُوا فِيهَا شُرَكَيَاتِهِمْ وَخُرَافَاتِهِمْ وَبَدْعَهُمْ، فَلْيَسُوا مِنْ أَهْلِ الْمَسَاجِدِ، وَإِنَّمَا أَهْلُ الْمَسَاجِدِ هُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَعْمُرُونَهَا بِالطَّاعَةِ وَالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ عِمَارَةَ الْمَسَاجِدِ عَلَى قَسْمَيْنِ: عِمَارَةُ حَسِيَّةٍ بِالْبِنَاءِ؛

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠/ ٩٤)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٦/ ١٧٦٦)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي الْكَبْرِ (٩/ ١٣).

كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦]، تُعمر العمارة الحسية بما يليق من غير إسراف ومن غير غلو، إنما تعمر العمارة اللائقة التي تكن المسلمين من البرد ومن الحر ومن المطر، لا تزخرف وتذوق ولا يُسرف في بنائها. وهذه البناية الحسية لا تكفي، إنما هي وسيلة، والعمارة الحقيقية الطاعة، فالمساجد إنما تبنى لأجل الطاعة وليست لأجل المباهاة والمفاخرة والآثار والفن المعماري، كما يقولون، إنما تُعمر لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبنائها وسيلة وليس غاية.

أما المشرك فإنه لا يعمر مساجد الله، ويُمْنَع من أن يقيم شريكاته وبدعياته وخرافاتهِ في المساجد، إنما يعمرها أهل الإيمان: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾، الشاهد من هذه الآية قوله: ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾، فحصر الخشية فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الخشية نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن يُخشى مع الله أحد، كما أنه لا يجوز أن يُخاف مع الله أحد، فالخوف والخشية نوعان من أنواع العبادة، فهؤلاء الذين يعمرّون المساجد بالطاعة والعبادة، ومن العبادة الخشية من الله وحده.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ أي: الذين اتّصفوا بهذه الصفات: الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخشية من الله وحده، و(عسى) حرف ترجّ، ولكنها من الله واجبة؛ لأنها

وَعَدُّ مَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاللَّهُ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
(كُلُّ «عَسَى» فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ). فَاللَّهُ وَعْدَ أَوْلَئِكَ الَّذِي اتَّصَفُوا بِهَذِهِ
الْصِّفَاتِ أَنْ يَكُونُوا الْمَهْتَدِينَ إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ، أَمَّا مَنْ
لَمْ يَتَّصَفْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَهْتَدِينَ، بَلْ هُوَ مِنَ الضَّالِّينَ.



وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن القيم: (الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه. والفتنة: الابتلاء والاختبار، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير له الألم الدائم، والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم تصورات وإرادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم - إلى أن قال -: فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين لمعاوية: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يَغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(١). فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٤٤٦/٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم أخبر عَزَّجَلَّ عن حال الداخل في الإيمان، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس له هي أذاهم، ونيلهم إياه بالمكروه - وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم - جعل ذلك في فراره منه، وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا من ضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة عذاب الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله، وغبن كل الغبن إذا استجار من الرضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأوليائه، قال: إني كنت معكم. والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق) انتهى^(١).

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ﴾ أي: من الناس من يؤمن بالله في حال الرخاء، لكن إذا جاءته فتنة واختبار ظهر منه الشرك والعياذ بالله، والله عَزَّجَلَّ لا يترك الناس بدون اختبار، قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَن يَتَرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ❷ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ❖ [العنكبوت: ٢-٣]، فالمنافق يقول: آمنا، وكذلك المؤمن صادق الإيمان يقول: آمنا، فما الذي يميز بينهم؟ يميز هو الاختبار، إذا جاء الاختبار تبين المؤمن

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٤ - ١٨).



الذي لا يتزحزح عن إيمانه وعقيدته، ويصبر ويثبت على دينه، من المنافق الذي إذا جاءت الفتنة كفر بالله عَزَّجَلَّ، وخاف من الناس ولم يخف من الله؛ كما حصل على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج المسلمون يوم أحد لملاقاة المشركين، رجع المنافقون بقيادة عبد الله بن أبي، وتركوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وكذلك في غزوة الأحزاب يحكي القرآن لنا الفرق بين المؤمنين والمنافقين حين تأتي الشدائد، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، أما المنافقون، فيقول عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، لما جاءت الامتحان تبين النفاق، وهذا دائماً وأبداً في كل زمان، إذا جاءت الشدائد والهزات تكلم المنافقون، وأظهروا ما في أنفسهم، وثبت المؤمنون ولا يقولون إلا الحق، ولا يقولون إلا ما فيه خير، ولا يغير الامتحان ما في قلوبهم، بل يزيدهم قوة وإيماناً وثباتاً، هذه سنة الله عَزَّجَلَّ في خلقه دائماً وأبداً.

❁ قال: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ يعني: من أجل قوله: آمنت بالله أصابه أذى من الناس ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: ما يناله من أذى الناس ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: سوى بين ما يصيبه من الناس وما يصيبه من الله عَزَّجَلَّ، فينقلب على عقبيه، هذا فعل المنافق فر من أذى الناس إلى عذاب الآخرة، فيكون كالذي استجار من الرمضاء بالنار، أما المؤمن الصادق فإنه يثبت على إيمانه،

ويصمد على عقيدته، ويصبر على ما أصابه، ويفر من عذاب الله إلى عذاب الدنيا؛ لأنه أخف وأسهل، ولا يكثر بما يصيبه من أذى الناس، ويصمد ويجاهد ويدافع، فإذا جاء النصر في الدنيا فهذه نعمة من الله، وإن أصابه الكرب والأذى فهو في سبيل الله، فهو على خير سواء انتصر أو لم ينتصر، إن انتصر هذه نعمة عاجلة، وإن لم ينتصر وأصيب فإنه يفوز برضا الله وبالعاقبة الحميدة.

أما المنافق فهو في خسران والعياذ بالله، الذي جعل فتنة الناس كعذاب الله هذا خسر، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

ولكن المؤمن يحتاج إلى تدبر القرآن، ودراسة سير الأنبياء والمرسلين والصالحين والمؤمنين وما جرى عليهم، وكيف كانت مواقفهم مع المحن والفتن، حتى يقتدي بهم، وحتى يقتنع أن المحن والفتن ليست عليه هو فقط، بل هذا شيء جرى على من هو خير منه من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والصحابة وأتباع الرسل، كالذي جرى على إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أُلقي في النار من أجل دينه، ومن أجل عقيدته ودعوته، فالؤمن يقتدي ويصبر ويتسلى بما حصل لمن قبله.

والشاهد من الآية: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ يعني: يخشى الناس أشد من خشيته لله عَزَّجَلَّ، فيترك الإيمان ويترك الدين،



ويوافق الكفار فيما يريدون، وفيما يطلبون؛ لكي يسلم من أذاهم، بخلاف المؤمن، فإنه لا يساوم على دينه أبدًا، مهما أصابه من أذى، بل يثبت ويعلم أن هذا ابتلاء وامتحان، وأنه جرى على خير خلق الله مثل ما يجري عليه، فيثبت على دينه ولو قتل ولو حرق.



عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»^(١).

قوله: [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»]: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف^(٢).

وتمام هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَا وَالتَّيَقِينِ، وَجَعَلَ النِّعَمَ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسَّخَطِ».

قوله: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ»، الضعف: بفتح وسكون، وتضم ضاده مع سكون العين، وتحرك عينه مع فتح الضاد: ضد القوة.

قال ابن مسعود: (اليقين الإيمان كله، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ)^(٣). قوله: «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ» أي: أن تؤثر رضاهم على ما يرضي الله، وذلك

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥)، (٤١/١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢١/١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥)، (٤١/١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢١/١).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٤٤)، والحاكم في المستدرک (٤٨٤/٢) وصححه، وأبو نعيم في الحلية (٣٤/٥)، وأخرجه البخاري معلقاً مقتصرًا على شطره الأول، في أول كتاب الإيمان (ص ٩). قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٤٠): «رواه الطبراني في الكبير، ورواته رواية الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم».

إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله، وإجلاله، وهيبته ما يمنعه من إثارة رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربّه ومليكه، الذي يتصرف في القلب. وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه أثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله عَزَّجَلَّ.

قوله: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ» أي: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، والله عَزَّجَلَّ هو الذي كتبه لك وسيره لك، فإذا أراد أمراً قبيحاً له أسباباً.

ولا ينافي هذا حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(١)؛ لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم؛ لحديث: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(٢).

قوله: «وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ»؛ لأنه لم يُقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدر ساقه إليك.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في المسند (٢/٢٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/١٩٨)، والبيهقي في الكبرى (٦/١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي الباب من حديث أبي سعيد الخدري، والأشعث بن قيس، والنعمان بن بشير، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٣)، وأحمد في المسند (٢/٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/١٩٩)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، والحاكم في المستدرک (٢/٧٣) وصححه، والبيهقي في الكبرى (٤/١٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فمن علم أن الله وحده هو المتفرد بالعطاء والمنع بمشيئته وإرادته، وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يسأل حاجته إلا من الله وحده، ولعل ما منع من ذلك يكون خيرًا له، ويحسن الظن بالله سبحانه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يخاف إلا من ذنبه. وقد قرر هذا المعنى في الحديث بقوله: «إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

وقال شيخ الإسلام: (اليقين يتضمن: القيام بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وما وعد الله به أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقته وتدبيره. فإذا أرضيتهم بسخط الله، ولم تكن مؤقتًا، لا بوعده، ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: إما ميل إلى ما في أيديهم، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم. وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة.

فإنك إذا أرضيت الله نصرَكَ ورزقَكَ وكفاكَ مؤنتهم. وإرضائهم بما يسخطه، إنما يكون خوفًا منهم، ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين. وأما إذا لم يُقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يُقدر لك كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم، ولا ترجهم، ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم^(١).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥١، ٥٢).

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

... — الشَّيْخُ — ...

الإيمان - كما هو معلوم - قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. والإيمان يتفاضل: أوله الإيمان، ثم علم اليقين، ثم عين اليقين، فهو يزيد حتى يصل إلى عين اليقين، وينقص حتى يصل إلى أضعف الإيمان.

وهذا الحديث يقول فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ» أي: من ضعف الإيمان «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ» هذا هو محل الشاهد من الحديث: إذا تعارض رضى الله مع رضى الناس، فإن الواجب أن تقدم رضى الله، ولو سخط الناس، وهذا دليل على قوة اليقين. أما المنافق فبالعكس، إذا تعارض رضى الله مع رضى الناس، فإنه يقدم رضى الناس على رضى الله، ويترك ما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من ضعف اليقين.

❖ قال: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ»، أي: من ضعف اليقين أن تفعل ذلك؛ لأن الله عَزَّجَلَّ هو الذي يعطي ويمنع، فإذا أعطاك شيئاً فاحمده سبحانه ولا تحمد الناس، لأن الرزق من الله عَزَّجَلَّ، لكن إن جرى على يد أحد وتسبب فيه أحد فأنت تشكره لا على أن الرزق منه، وإنما على ما بذل من السبب وساعدك. فأصل الحمد لله عَزَّجَلَّ، لكنك تشكر المحسن على قدر إحسانه؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ

الله»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». فالمحسن يُشكر على قدر إحسانه، لكن الشكر الكامل والتام لله عَزَّجَلَّ؛ لأن الفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. أما الذي يشكر الناس على أن الفضل منهم والرزق منهم، فهذا مشرك بالله عَزَّجَلَّ.

وكذلك لا تدمهم على ما لم يؤتك الله، إذا لم تحصل على مطلوبك فلا تدم الناس؛ لأن الله عَزَّجَلَّ لم يكتب لك هذا الشيء، ولو كتبه الله لك لحصل، فلا تلم الناس وتدم الناس وتسب الناس، بل قل: هذا قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولا تدري لعل في حبس هذا الشيء عنك خير لك، فأنت ترضى بقضاء الله وقدره، وهذا سبيل أهل الإيمان واليقين بقضاء الله وقدره.

❁ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ رَزَقَ اللَّهُ لَا يَجْرَهُ حَرَصٌ حَرِيصٌ، وَلَا يَرْدُهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهَةٌ»، وهذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١)، فأنت تعتقد أن القضاء والقدر بيد الله، وأن الأمور كلها بيد الله، وأن المنع والإعطاء بيد الله، فتعلق قلبك بالله عَزَّجَلَّ دائماً وأبداً، ولا تعلق قلبك بالناس فتمدحهم إن حصل لك مطلوبك، مع أنه من الله وليس منهم، وإن لم يحصل لك مطلوبك تدمهم، مع أنهم ليسوا هم الذين منعه عنك، والذي منعه هو الله عَزَّجَلَّ. فالواجب على العبد المؤمن أن يعتدل في أمره.

(١) سبق تخريجه (١/٥٩٢).

وهذا هو حقيقة التّوحيد: أن يكون العبد معتمداً على الله ومتوكلاً عليه، ويعتقد أن النّاس مجرد أسباب، والأسباب إن شاء الله نفعت وإن شاء لم تنفع، فلا يجعل الحمد والذم للناس، وإنما يجعل الحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا لم يحصل له مطلوبه فليصبر، وليعلم أن ما قُدّر له لا بد أن يكون، فليحمد الله أيضاً.

وليس معنى ذلك ألا يحرص الإنسان على طلب الخير، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)، فجمع بين الأمرين: الحرص والاستعانة. فالحرص ليس مذموماً، وإنما المذموم: الاعتماد على الحرص، واعتقاد أن به يحصل المطلوب.

وحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه أبو نعيم في الحلية، ورواه البيهقي، وهو حديث ضعيف، ولكنّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من قاعدته: أنه لا يذكر الحديث الضعيف إلا إذا كان له ما يؤيده، وهذا الحديث تؤيده الآية التي قبله، وهي قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]. هذه قاعدة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا كان الحديث ضعيفاً وله ما يؤيده، فإنه يسوقه في الباب بعد أن يسوق الدليل الصحيح، للاعتضاد به لا للاعتماد عليه.



وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ^(١).

قوله: «مَنِ التَّمَسَّ» أي: طلب، قال شيخ الإسلام: (وكتبت عائشة إلى معاوية -ويروى أنها رفعتة-: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَوْئِدَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يَغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٢)). هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًا»^(٣).

وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٤) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿[الطلاق: ٢-٣]، والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، كالظالم الذي يعرض على يديه، وأما كون حامده ينقلب ذامًا فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا تحصل ابتداء عند أهوائهم). انتهى^(٥).

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٠٠).

(٢) سبق تخريجه (٢/٥١٧).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/٢٩٩)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/٣٣١)، (٣٣٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١/٥١، ٥٢).

... الشَّيْخُ ...

لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا قصة، وهي: أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الْمَلِكُ كتب إلى أم المؤمنين يطلب منها النصيحة؛ لأنها زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندها من العلم الشيء الغزير الذي حملته عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي فقيهة النساء، فكتبت إليه: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ ائْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ ائْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ عَزَّجَلَ وَكَلَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَ إِلَى النَّاسِ»، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ).

ما أحسن هذه النصيحة لولاة الأمور، ولكل مسلم! أن يسير على هذا المنهج الذي رسمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمتين؛ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، رسم المنهج للولاة والرعاة، الذي إذا ساروا عليه نجحوا في حياتهم وفي دنياهم وآخرتهم.

فينبغي للعبد أن يلتزم رضى الله ولو سخط عليه الناس، وليعلم أنهم وإن سخطوا عليه فإنهم في العاقبة والمستقبل سيرضون عنك، وهذا شيء مجرب. أما من حرص على رضى الناس ولو كان بمعصية الله عَزَّجَلَ، وترك ما أمر الله به، أو فعل ما نهى الله عنه؛ كمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل إرضاء الناس، أو يترك الدعوة إلى الله من أجل إرضاء الناس، حتى لا يقولوا عنه: هذا متشدد، أو هذا متسرع، أو متحجر، أو هذا لا يحسن الكلام... إلى آخره. فإنهم في عاقبة أمرهم لن يرضوا عنه، وسينقلب حامده ذامًا ولو بعد حين.

والمؤمن لا يهيمه كل هذا، لا يهيمه كلام الناس، ولا يطلب رضى الناس، إنما يطلب رضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم، ويفعل ما يرضي الله، ويتجنب ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ، والناس سيرضون عن ولو في المستقبل، إذا كان طريقه واضحًا ومنهجه سليمًا، وإن قُدر أن اعترض عليه أحد لهوى أو لنفاق أو لشرفيه، فهذا لا عبرة به، لكن عقلاء الناس وأهل الرأي لا ينقمون عليه هذا الشيء إلا إذا صار مذبذبًا.

أما إذا كان طريقه مذبذبًا فإن الناس يتتقدونه، فإن أرضاهم سكتوا في الظاهر لأنه وافقهم على هواهم، لكنهم يتنقصونه ويسخرون منه في الباطن، ويقولون: هذا ليس له مبدأ، وليس له طريق يمشي عليه، هذا إمعة... إلى آخره. وقلوب العباد بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا أرضيت الله أرضى عنك الناس، وإذا أسخطت الله أسخط عليك، لهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فهذه علامة الإيمان: ألا يخاف الإنسان إلا من الله، ولا يخاف في الله لومة لائم. وعلامة النفاق: أن يخاف الإنسان من الناس، ويقدم رضاهم على رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الباب باب عظيم، فيه إخلاص الخوف من الله، وإخلاص الخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتماس رضى الله، وعدم التماس رضى الناس بسخط الله عَزَّوَجَلَّ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ.

الرابعة: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السادسة: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابٍ مَنْ فَعَلَهُ.

الثامنة: ذِكْرُ عِقَابٍ مَنْ تَرَكَهُ.



٣٢- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾].
قال أبو السعادات: (يُقال: توكل بالأمر؛ إذا ضمن القيام به)^(١).

وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله؛ لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله، كما في هذه الآية.

قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب)^(٢).

قال ابن القيم في الآية المترجم بها: (فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه)^(٣).

قال شيخ الإسلام: (وما رجا أحد مخلوقاً، أو توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه شرك: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١])^(٤).

والتوكل قسمان:

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٢٠).

(٢) ذكر ذلك ابن القيم في طريق المهجرتين (ص ٣٨٩)، ومدارج السالكين (٢/ ١١٤).

(٣) انظر: طريق المهجرتين (ص ٣٨٦).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالتوكل على الأموات، والغائبين، ونحوهم من الطواغيت، فهذا شرك أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

وأما التوكل على الأحياء الحاضرين، والسلطان، ونحوهم، فيما أقدرهم الله عليه من رزق، أو دفع أذى، ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والمباح: أن يُوكَل شخصًا بالنيابة عنه في التصرف فيما له التصرف فيه من أمور دنياه؛ كالبيع، والشراء، والإجارة، والطلاق، والعتاق، وغير ذلك، فهذا جائز بالإجماع، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل يقول: وكلته، فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه.

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قال الشيخ رحمه الله: (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: تفسير هذه الآية، وما جاء بمعناها من الأمر بالتوكل على الله.

والتوكل نوع من أنواع العبادة، بل هو من أعظم أنواع العبادة، وهذا الباب والأبواب التي قبله، كلها في أنواع العبادة القلبية: المحبة، والخوف، والتوكل. وليس من شك في شرك من أحب غير الله، أو خاف من غير الله، أو توكل على غير الله؛ لأنه جعل مع الله شريكًا في عبادته، فجعل معه شريكًا في المحبة، أو في الخوف، أو في التوكل، وهذا ينافي التوحيد.

ومعنى التوكل: التفويض والاعتماد، فمن توكل على الله فقد فوض أموره إليه واعتمد عليه، وجاء ذكر التوكل كثيراً في القرآن، تارة يكون مأموراً به وحده: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣]، وتارة يكون مقروناً بالعبادة: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، والآيات في هذا كثيرة فيها الأمر بالتوكل والثناء على المتوكلين.

وهذه الآية التي ترجم بها المصنف هي بعض آية في سورة المائدة، في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل، لما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي أرض فلسطين؛ ليخلص المسجد الأقصى من سيطرة المشركين عليه، فقد كان في فلسطين أناس من المشركين لهم قوة وبأس شديد، فتلكأ بنو إسرائيل في إجابة دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ يَنْقُومُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴿[المائدة: ٢٠-٢١]، المقدسة: يعني المطهرة؛ لأنها أرض الأنبياء، وفيها المسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة، ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]؛ لأن ولاية المساجد لاسيما المساجد الثلاثة يجب أن تكون للمؤمنين، فلا يجوز أن يتولى عليها الكفار، فإذا تولى عليها الكفار يجب على المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله حتى يخلصوها من قبضة الكفار، ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا الكفار يسيطرون على بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، ولاسيما المسجد الحرام، أو مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو المسجد الأقصى، أو غيرها من

المساجد، ولكن هذه المساجد الثلاثة يجب تخليصها من الكفار والمشركين؛ لقوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَنُّونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وهنا يقول: ﴿الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ﴾، كتب الله أن الأرض المقدسة للمؤمنين، من بني إسرائيل ومن غيرهم، فإذا كان بنو إسرائيل على الإيمان والتوحيد فإنهم هم أهل البيت المقدس، ولكن لما كفروا بالله وانحرفوا وأشركوا بالله فإنهم ليس لهم ولاية على المسجد الأقصى، ولا حجة لهم بهذه الآية: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأن الله كتبها لهم لما كانوا مؤمنين؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] من كل أمة ومن كل جيل، أما الكفار والمشركون فلا يرثونها؛ لأنها ليست من إرث الآباء والأجداد، وإنما هي من إرث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وورثة الأنبياء هم المؤمنون من كل زمان ومكان، فولاية بيت المقدس أو غيره من المساجد إنما هي للمؤمنين، سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم.

ولهذا خرج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخلص بيت المقدس من الكفار، ولا فرق بين أن يكون الكفار من اليهود أو من النصارى أو من غيرهم، لا يجوز أن يتركوا يستولوا على بيت المقدس والمسجد الأقصى، فهو ليس خاصاً بالعرب،

أو الروم، أو الفرس، أو غيرهم، إنما هو للمسلمين من أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا خصوصية لبني إسرائيل بعدما كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقيادة عمر بن الخطاب خلعوا بيت المقدس من أيدي النصارى الذين حرفوا دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصاروا على الشرك والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فصار في قبضة المسلمين، ثم لما استولى عليه الصليبيون من النصارى خلصه صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ وأعادته للمسلمين، ثم في وقتنا الحاضر استولى عليه اليهود، ولا بد من تخليصه من قبضتهم وطردهم منه، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجب على المسلمين دائماً أن يخلصوا بيت المقدس إذا كانوا يقدرُونَ على ذلك. قال: ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: بصفة الإيمان؛ لأنهم هم المؤمنون في وقتهم، وهم المسلمون في وقتهم، ﴿وَلَا تُرْثَدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أمرهم بالمضي والعزم وعدم التردد، ولا يجوز للمسلمين إذا كان عندهم قوة أن يتراجعوا أو أن يتنازلوا عن بلادهم وعن مساجدهم، ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ يعني: ناس أقوياء وأهل بطش، يُقال: إنهم العماليق. فهذا من هلعهم وخوفهم وعدم توكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ، خافوا الناس ولم يخافوا الله عَزَّوَجَلَّ.

انظروا إلى هذا العذر البارد الذي واجهوا به كليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا يدل على خبث اليهود، وعدم حيائهم من الله عَزَّوَجَلَّ ومن أنبيائه.

❖ قال: ﴿وَلِإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ يريدون من الجبارين أولو البطش أن يخرجوا دون قتال، سبحان الله!! هذا عذر أفضع من الأول، هذا من الضعف والخور والهوان، أو من ضرب المستحيل، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ كأنهم يقولون لموسى: أبداً لن نقاتل، ولكن إن خرجوا دون قتال فسوف ندخل!! ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَننَمُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]، هؤلاء من صلحائهم، ومن المؤمنين الصادقين، نصحوهم فقالوا لهم: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: اعزموا واهجموا عليهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ إذا هجمتهم عليهم أصابهم الرعب، أما أن تنتظروا أن يخرجوا دون أن تهجموا عليهم فهذا مستحيل، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ هذا هو محل الشاهد.

فالذي أوقع فيهم الرعب والخوف عدم توكلهم على الله سُبحانه وتعالى، ولذلك أمرهم بالتوكل على الله، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، فلو أنهم توكلوا على الله، وأطاعوا نبيهم، وهجموا على الكفار، لنصرهم الله. ثم ردوا رداً أقبح من ذلك ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّآ لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، هل هناك أفضع من هذه المقالة والعياذ بالله؟ فموسى عليه السلام دعا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، فعاقبهم الله عز وجل بالتيه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فأصابهم التيه في البر، لا يأوون إلى بلد، ولا يدرون أين يذهبون.

ولكن مع هذا لطف الله بهم، أنزل عليهم المن والسلوى، ولما استسقى موسى وطلب لهم الماء أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، مع عتوهم وتمردهم الله عَزَّجَلَّ لم يقطع عنهم رزقهم، فصاروا في التيه أربعين سنة، ومات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التيه ودفن هناك، ثم مات هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بعد أربعين سنة ظهر فيهم قائد محنك، يُقال له: يوشع بن نون، وهو فتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قادهم وفتح بهم بيت المقدس، وطردها منه المشركين.

الحاصل: أنهم لما توكلوا على الله وتأدبوا، وذهب عنهم الترف والنعومة بعدما عاشوا في الصحراء، وقويت أجسامهم، حينئذ قادهم هذا الرجل الصالح القوي، ففتح الله لهم، وطردها عدوهم، واستولوا على بيت المقدس.

الشاهد من هذا قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ ❦ أي: قابلوا هذا الخوف وهذا الرعب من عدوكم بالتوكل على الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ❦، قدم الجار والمجرور وهو قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ ❦ ليفيد الحصر، أي: وعلى الله لا على غيره فتوكلوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ❦، فدل على عظمة التوكل، وأنه شرط في الإيمان، لا يصح الإيمان إلا به.



وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قوله: [وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾] الآية: قال ابن عباس في الآية: (المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر عزَّ وجلَّ أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فأدوا فرائضه. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم^(١).

وقال السدي في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم -أو قال: يهم بمعصية- فيقال له: اتق الله، فيوجل قلبه. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير^(٢). قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]: استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوضون إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، وهو من أعظم الأسباب في حصول المطالب الدنيوية والأخروية. وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، تستلزم حصول أعمال الإيمان الواجبة والمستحبة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٨/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٥/٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٩/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٥/٥).

... — الشَّجْع — ...

هذه الآية من سورة الأنفال: قال عَزَّجَلَّ في أولها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ أي: لمن تكون؟ ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الحكم فيها لله ولرسوله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمرهم الله بالتقوى، وذلك بفعل أوامره، وترك نواهيه، والإصلاح بين الناس، إذا حصل نزاع بين المؤمنين فإنه يجب على المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين ولا يتركوهم في نزاعهم، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿[الأنفال: ١-٢]، أي: خافت من الله إذا وعظوا وذكروا بالله وخوفوا بالله، هذه صفات المؤمنين.

أما المنافق فإنه لا يخاف ولو وعظته وخوفته وذكّره بالله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَنَجِّنْهَا الْأَشَقَى (١١) الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿[الأعلى: ٩-١٢]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، أما غير المؤمنين فلا تنفعهم الذكرى.

قال: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إذا تلي عليهم القرآن زادهم إيماناً، فدل على أن الإيمان يزيد وينقص، لا كما تقول المرجئة: إن الإيمان شيء واحد في القلب لا يزيد ولا ينقص!! والإيمان عند أهل السنة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

❁ قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قدم المعمول وهو الجار والمجرور ليفيد الحصر، أي: وعلى ربهم لا على غيره يتوكلون، أي: يفوضون أمرهم إليه، وهذا محل الشاهد من الآية الكريمة. أن التوكل نوع من أنواع العبادة، ويجب إفراد الله عَزَّجَلَّ به، وأن لا يُتوكل على غيره.

وذكر الشارح أن التوكل ينقسم إلى قسمين:

النوع الأول: توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا شرك أكبر؛ كالذي يتوكل على الأموات، ويتوكل على المخلوقين فيما لا يقدرُونَ عليه؛ من شفاء المرضى، وجلب الرزق، ودفع الضرر، فيقول أحدهم: يا فلان -يعني: يا صاحب القبر- أنا في حسبك، أو يارسول الله أنا في حسبك!! فهذا شرك أكبر والعياذ بالله؛ لأنه لم يتوكل على الله، وصرف العبادة لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

النوع الثاني: أن يتوكل على العباد فيما يقدرُونَ عليه، مثل أن يتوكل على ولي الأمر، أو على تاجر من التجار أن يعطيه شيئاً مما يقدر عليه، فهذا شرك أصغر.

وأما أن يُوكل من ينوب عنه في التصرفات، فهذا توكل وليس توكلًا، ولا يقول لمن فوضه أو وكله ليتصرف في بعض أموره: أنا متوكل عليه، وإنما يقول: وكلتك، وأنت وكيلي، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل من يشتري له، ووكل من يذبح عنه الهدى، ووكل عماله في قبض الزكوات، وفي الدعوة إلى الله، فالتوكل جائز ولا حرج فيه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يزاوِل كل أعماله،

فقد يكون مريضًا أو مسافرًا أو بعيدًا عن الشيء، فيوكل من يقوم مقامه فيه، وهذا مما لا تقوم مصالح الناس إلا به، ولا محذور فيه، ولكن لا تقل: يا فلان توكلت عليك، إنما تقول: يا فلان وكلتك في كذا وكذا.



وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأنفال: ٦٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال ابن القيم: (أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد)^(١). وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢).

... — الشَّيْخُ — ...

✽ قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا خطاب من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ناداه فيه بصفته الكريمة: ﴿النَّبِيُّ﴾، والله عَزَّوَجَلَّ لم يناد محمداً باسمه أبداً في القرآن، بل يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، فيناديه باسم النبوة وباسم الرسالة تكريماً وتشريفاً له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما عند الإخبار عنه فإن الله يذكره باسمه؛ كقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فهذا من باب الإخبار، فإذا جاء باب الإخبار يأتي باسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا جاء بالنداء فيناديه بصفاته الكريمة، ولذلك: عاب الله على الأعراب الذين وقفوا على الحُجُرَات وقالوا: يا محمد، اخرج إلينا!! فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ

(١) انظر: زاد المعاد (١/٣٥).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (٧/٢٠١)، ومجموع الفتاوى (١٠/١٥٤، ٢٩٣).

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ [الحجرات: ٥]، فيجب التأدب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياً وميتاً.

❁ قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ الحسب: الكافي، أي: الله كافيك، فإذا كان النبي الذي هو أفضل الخلق يقول له الله عَزَّجَلَّ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: توكل عليه، ويقول له في الآية الأخرى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ويأمره بالتوكل على الله، فغيره من باب أولى.

❁ قوله: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو عاطفة، و(من) معطوف على الضمير (الكاف) في حسبك، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين، فالمؤمنون أيضاً لا يتوكلون إلا على الله عَزَّجَلَّ، والله وكيلهم وكافهم وحسبهم. ولا يجوز عطف ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ﴾ على لفظ الجلالة؛ لأن ذلك يعني أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتوكل على الله وعلى المؤمنين، وهذا لا يجوز، بل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتوكل إلا على الله وحده، فالعطف إنما هو على ضمير المخاطب - وهو الكاف - في محل جر بالإضافة، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين.

وهذا هو محل الشاهد أن الله عَزَّجَلَّ هو الذي يتوكل عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتوكل عليه المؤمنون، ولا يتوكلون على أحد غيره، فدل على عظمة التوكل، وأنه نوع عظيم من أنواع العبادة. وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ

الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرْوُحُ بِطَانًا»^(١)، فالطير ليس عندها رصيد من الطعام في جحورها، لكنها تخرج في أول النهار جائعة ورزقها على الله، وترجع وقد امتلأت بطونها برزق الله، فلو أن العباد توكلوا على الله لرزقهم كما يرزق الطير.



(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد في المسند (٣٠ / ١)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٩ / ٢)، والحاكم في المستدرک (٣٥٤ / ٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: [وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾]: قال ابن القيم وغيره: (أي: كافي، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بد منه؛ كالحر، والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبدًا. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، أي: كافي، فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل الله سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه. فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجًا، وكفاه ونصره). انتهى^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافي، وهذا من باب الجزاء، فمن توكل على غير الله وكله الله إلى غيره، فيكون خاسرًا ومتوكلًا على ضعيف، أما من توكل على الله فإن الله هو الذي يتولى أمره، ويتولى شأنه، فهذا فيه فضل التوكل، وبيان أن ثمره التوكل أن الله يكون حسب من توكل عليه، أي: كافيه في جميع أموره وشؤونه.



وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ ^(١).

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ تقدم معناه.

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي: نعم من توكل عليه المتوكلون، وخصوص (نعم) محذوف، تقديره: نعم الوكيل الله.

قوله: (قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ): قال عَزَّجَلَّ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِنَّ كُنْتُمْ فَعْلِيلِينَ﴾ (٦٨) قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿الْآيَةُ [الْأَنْبِيَاءُ: ٦٨-٦٩].

قوله: (وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾)، وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد، فمر بهم ركب من عبد القيس فقالوا: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قالوا: هل أنتم مبلغون عنا محمدًا رسالة؟ قالوا: نعم، قالوا: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/١٥٤، ٣١٦).

(٢) سبق تخريجه (٢/٥٠٨).

وفي الحديث: «إذا وقعتُم في الأمرِ العظيمِ، فقولوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هذه كلمة عظيمة، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا دون غيره، وتوكلنا عليه نحن في حسبه وفي كفايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفوضنا أمرنا لله، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ نعم: كلمة مدح، والمخصوص بالمدح مقدر، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنهم توكلوا على قادر رحيم غني كريم، فهو كافيههم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الكلمة العظيمة قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما أُلقي في النار، وذلك لما أنكر على قومه عبادة الأصنام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، فلم يمتثلوا، وتمردوا، فكسر أصنامهم غيرة لله عَزَّجَلَّ، وليبين لهم أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها، ولو كانت آلهة أو كانت تقدر على شيء لدفعت عن نفسها، فكيف يرجون منها النفع أو الضر؟! فبين لهم بالبرهان الواضح أنها لا تصلح للعبادة، فلما رأوا ما فعله إبراهيم الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضبوا لأصنامهم، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهذه طريقة الطواغيت من أول الزمان إلى آخره أنهم إذا أفحمتهم الحجة التي مع خصمهم وعجزوا عن ردها استخدموا القوة.

(١) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٣١)، وكنز العمال (٢/ ٥٣)، والدر المنثور (٢/ ٣٩٠).

فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نهى قومه عن عبادة الأصنام، وأقام عليهم الحجة الداحضة، جمعوا له حطباً كثيراً، وأوقدوا فيه ناراً عظيمة، حتى ارتفع لهبها في الجوّ إلى عنان السماء، حتى إن الطير لتسقط في النار من قوة لهبها، ثم أحضروا المنجنيق ليقذفوه به في النار؛ لأنهم لا يستطيعون الاقتراب منها من شدة لهبها، وظنوا أنهم قادرون على تحريقه، ولكن لم يتمكنوا من ذلك؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ متوكل على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلما قذفوه في النار قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فكان الله عَزَّجَلَّ كافيه من شرهم ومكرهم، فقال للنار: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فأصبحت روضة خضراء، لم يقل: «بَرْدًا» فقط؛ لئلا يضره البرد، بل قال: ﴿وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، هذه نتيجة التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس معه شيء يقاوم به هذه الأمة الجبارة العاتية وهذا النمروذ الملك الجبار، ليس لديه إلا التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أما ما ذكره بعض المفسرين من أن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما أُلْقِيَ في النار جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، فقال له: لم لا تسأله؟ قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. هذا أثر ضعيف لم يثبت، بل هو كذب على خليل الرحمن؛ لأن معناه أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رغب عن دعاء ربه عَزَّجَلَّ، وقد تمسك الصوفية بهذا الأثر رغم ضعفه؛ لأنه يؤيد معتقدهم الخبيث أن الدعاء لا ينفع، بل هذا القول -حسبي من سؤالي علمه بحالي- تقوم عليه دعائم مذهبهم.

وهذا ضلال مبين، بل الدعاء أمره عظيم، والدعاء عند الشدة والكره سنة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، لم يتركوا الدعاء في الرخاء أو الشدة بحجة أن الله يراهم؛ لأنه أعظم أنواع العبادة. وهذا القول موضوع ومكذوب على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضعه الصوفية الذين لا يرون أن الدعاء ليس له فائدة.

ولا يكفي للعبد أن يكون متوكلاً على الله بقلبه، بل لابد أن ينطق بالدعاء، ولذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولم يكنف بما قام في قلبه من التوكل على الله؛ لأن هذا دعاء وعبادة لله عَزَّجَلَّ.

❦ قوله: (وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ هذا بعد وقعة أحد، حينما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه إلى حمراء الأسد، وقد سبق لنا بيان ما حصل عليهم في غزوة أحد من الابتلاء والامتحان، وما فعله المشركون بعد ذلك لما أرسلوا إليهم من يهددهم بمجيء المشركين لاستئصال بقيتهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فقذف الله في قلوب أعدائهم الرعب، وقال المشركون: ما خرج محمد وأصحابه في طلبنا إلا وفيهم قوة، فهربوا فرعين خائفين إلى مكة.

هذه عبرة وعظة عظيمة، فيها أن التوكل على الله حق التوكل له ثمار عظيمة في الدنيا والآخرة، وأن من توكل على الله كفاه، فهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لما توكلوا على الله دفع عنهم كيد عدوهم، وألقى الرعب

.....

في قلوب أعدائهم، فولوا خاسئين، ورجع المسلمون منتصرين مأجورين، قال عز وجل: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]. هذه ثمرات التوكل والاعتماد على الله سبحانه وتعالى، كما صارت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، صارت هذه المعركة وهذه التخويات بردًا وسلامًا على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.



فِيهِ مَسَائِلُ،

الأولى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمٌ فِي الشَّدَائِدِ.

... — الشَّبَحُ — ...

❖ قوله: (الأولى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ): التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عِبَادَةٌ يَجِبُ إِخْلَاصُهَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ.

❖ قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ)؛ لِأَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ شَرَكٌ أَكْبَرُ، كَالَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الْأَصْنَامِ، أَوْ عَلَى أَصْحَابِ الْقُبُورِ، أَوْ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي جَلْبِ الْأَرْزَاقِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَشِفَاءِ الْمَرْضَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ) وَهِيَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ شَرْطٌ لَصِحَّةِ الْإِيمَانِ.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا) وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، كما فسرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

❖ قوله: (الخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه وواقيه، وكفى به حسيباً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❖ قوله: (السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ فِي الشَّدَائِدِ) ذلك أن التوكل على الله حق التوكل له ثمار عظيمة في الدنيا والآخرة.



٣٣- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

[الأعراف: ٩٩].

قوله: [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾]: أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان، فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل من المحرمات؛ لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك، وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب.

ومعنى الآية: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا ذكر حال أهل القرى المكذبة للرسول، بَيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه، وذلك أنهم آمنوا بمكر الله لَمَّا استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

قال الحسن: (مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُمَكِّرُ بِهِ فَلَا رَأْيَ لَهُ) ^(١).
وقال قتادة: (بَغَتْ الْقَوْمُ أَمْرَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَلَوَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللَّهِ) ^(٢).

وقال إسماعيل بن رافع ^(٣): (من الأمن من مكر الله: إقامة العبد على

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٩١)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٢٨)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

(٣) هو إسماعيل بن رافع بن عويمر، ويقال ابن أبي عويمر، أبو رافع المدني، حدث عن سعيد المقبري، ومحمد بن المنكدر، وسمع مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، وسلمان مولى أبي سعيد الخدري، وروى عنه أخوه إسحاق بن رافع، والليث بن سعد وهو من أقرانه، ووکیع، =

الذنب يتمنى على الله المغفرة). رواه ابن أبي حاتم^(١).

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾)، هذا الباب في الخوف والرجاء، وهما نوعان من أنواع العبادة، ولا بد من الجمع بينهما، فلا يكون الإنسان خائفًا فقط إلا بعد أن يقنط من رحمة الله ويأس من روح الله، ولا يكون راجيًا فقط إلا بعد أن يأمن من مكر الله وعذاب الله، والواجب على العبد أن يكون خائفًا راجيًا.

وقد جاء الخوف في كثير من الآيات، وهي ما تسمى آيات الوعيد، وجاء ذكر الرجاء في كثير من الآيات، وهي ما تسمى آيات الوعد، فالخوارج والمعتزلة أخذوا بآيات الوعيد، وكفروا الناس بالكبائر التي دون الشرك، وخلدوهم في النار. وهؤلاء يقال لهم: الوعيدية؛ لأنهم أخذوا بنصوص الوعيد، وتركوا نصوص الوعد.

والمرجئة على النقيض منهم، أخذوا بنصوص الوعد، وتركوا نصوص الوعيد، فقالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. فتساهلوا في أمر المعاصي والمخالفات، وقالوا: ما دام الإنسان مؤمنًا بقلبه

=وعبد بن سليمان، وغيرهم. ضعفه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والنسائي، وجماعة. انظر: الجرح والتعديل (١٦٨/٢)، والكامل في ضعفاء الرجال (٢٨٠/١)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال (٣٨٤/١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٢٩/٥)، وانظر: الدر المنثور (٥٠٧/٣).

ولسانه فمسألة المعاصي لا تضره. وسموا مرجئة؛ لأنهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان، وأخذوا بطرف من النصوص وهو نصوص الوعد، وتركوا الطرف الثاني وهو نصوص الوعيد، فضلوا كما ضلت الخوارج والمعتزلة.

والحق هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الجمع بين نصوص الوعد ونصوص الوعيد؛ لأنها كلها من عند الله عَزَّجَلَّ، فيقولون: المعاصي تضر - لا كما تقول المرجئة: إنها لا تضر - ولكنها لا تخرج من الإسلام أو من الإيمان - كما تقوله الخوارج والمعتزلة - بل هي تنقص الإيمان أو تزيل الإيمان بالكلية بحسب نوعية هذه المعاصي؛ لأن المعاصي ليست على حد سواء، لكنها على كل حال ما دامت دون الشرك فإنها لا تُخرج من الإيمان.

فكلا الطرفين - الخوارج والمعتزلة والمرجئة - ضال عن الحق، ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ هذا طريق المرجئة، وقال: ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] هذا طريق الخوارج، فمن زاد في الخوف حتى قنط من رحمة الله ويأس من روح الله فهو من الخوارج، ومن تساهل بالذنوب والمعاصي حتى أمن من مكر الله فإنه من المرجئة، وأما الجمع بين الخوف والرجاء فهو سبيل أهل السنة والجماعة، الذي فيه الجمع بين النصوص، وتفسير النصوص بعضها ببعض، وتخصيص بعضها ببعض، فإن كلام الله يفسر بعضه بعضاً، وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسر بعضه بعضاً، فلا بد من الأخذ به كله، قال عَزَّجَلَّ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧] يأخذون النصوص المجملة والمطلقة ويتركون النصوص المفصلة والمبينة والمفسرة هذا طريق أهل الزيغ يأخذون الكلام المجمل والمتشابه الذي يحتاج إلى بيان وتفصيل ويتركون الواضح البيّن. فلما قطعوا الأدلة بعضها عن بعض ضلوا وصار فيهم زيغ وانحراف والعياذ بالله. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] هؤلاء أهل السنة والجماعة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه، فيردون المتشابه إلى المحكم فيفسره ويبيّنه.

هذا طريق أهل السنة والجماعة الرسوخ في العلم والفهم عن الله وعن رسوله، والفقه في دين الله، وليس الرسوخ في العلم هو حفظ النصوص الكثيرة من غير فهم لها، لأن حفظ النصوص الكثيرة دون فقه وفهم لمрад الله ومراد رسوله ليس علماً، بل هو جهل. فالراسخون في العلم هم الذين فقهوا في دين الله، وفسروا كلام الله بعضه ببعض، وفسروا كلام الرسول بعضه ببعض، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

ولم يقتصروا على ذلك، بل يطلبون من ربهم الهداية والثبات على الاستقامة فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨] أي: لا ترغ قلوبنا كما زاغ الذين اتبعوا ما تشابه منه.

فهذا باب عظيم جمع فيه الشيخ رحمه الله بين الآيات والنصوص المتقابلة من أجل أن يفسر بعضها ببعض كما هي طريقة أهل السنة، فلم يذكر نصوص

الوعيد فقط، ولم يذكر نصوص الوعد فقط، بل جمع بين هذا وهذا، وهذا من فقه رَحْمَةُ اللَّهِ ودقة فهمه وعلمه.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩] مكر الله: هو إيصال العقوبة إلى من يستحقُّها من حيث لا يشعر، وهو عدلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]؛ فالمكر في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عدلٌ وجزاء يُحمد عليه. أما المكر من المخلوقين فهو مذموم؛ لأنه بغير حق.

والمكر من الله نظير الاستهزاء: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، ونظير السخرية: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، ونظير الكيد: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]، ونظير النسيان: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فهذه أمور تُنسب إلى الله عَزَّجَلَّ؛ لأنها من باب المقابلة والجزاء، فهي عدلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث إنه ينزلها فيمن يستحقُّها، بخلاف هذه الصفات من المخلوقين فإنها مذمومة؛ لأنها في غير محلها، ولأنها ظلمٌ للمخلوقين.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ هذه الآية في سياق ما ذكره الله عن الأمم الكافرة التي أحلَّ الله بها عقوباته؛ من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين ذكرهم الله في سورة الأعراف، ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ

يَضْرَعُونَ ﴿[الأعراف: ٩٤]، أي: أخذناهم بالشدائد من الجوع والخوف والقحط وغلاء الأسعار، يفعل الله ذلك بهم لعلهم يدعونه، ولعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون، ويعلمون أن ما أصابهم بسبب ذنوبهم؛ لكنهم لم يرجعوا.

ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَرْجِعُوا عِنْدَ النَّقْمِ اسْتَدْرَجَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالنِّعَمِ، قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي: بدل الشدة والجوع والخوف، بالحسنة، وهي: الغناء والسعة والثروة؛ استدراجاً من الله سبحانه لهم. ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ يعني: حتى كثروا وزادت قوتهم، واغترؤا بهذه النعمة؛ فهم لم يتوبوا عند النعمة ولم يشكروا عند النعمة.

قال: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف: ٩٥] قالوا: هذه الأمور تجري عادة، مرة رخاء ومرة شدة، لم يرجعوا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ويعلموا أن ما أصابهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، وأن ما أصابهم من النعمة فهو فضل من الله؛ بل نسبوا هذا إلى العادة. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ هذا هو المكر، وهو: أن الله أخذهم في مأمنهم حيث لم يتوقعوا العقوبة.

وفي هذا تحذير لنا من الله سبحانه وتعالى أننا لا نغتر بهذه النعم، وهذه الثروات، وهذه السعة؛ فنغفل عن شكر الله عزَّجَلَّ، ولا نعمل بطاعة الله، ولا نخاف من العقوبة ومن زوال هذه النعم.

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]،

فالنعم إذا كانت مع المعاصي فهي استدراج، وإذا كانت مع الطاعات فإنها نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ وعون على طاعته.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، وهذا استنكار من الله عَزَّوَجَلَّ على من يغترّ بالنعم وينسى العقوبة أن يأخذهم على غرّة وهم آمنون منعمون، فينقلهم من النعمة إلى النّقمة، ومن الصحة إلى الألم والمرض، ومن الوجود إلى العدم.

قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩] أي: لا يأمن عقوبة الله التي تنزل على خُفْيَةٍ، ومن غير تأهب، ومن غير توقع لها، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين حَقَّتْ عليهم الخسارة، التي لا رِبْحَ معها أبدًا، ولا نجاة منها أبدًا.

والشاهد في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، فهو استفهام إنكار على من يقع منه مثل ذلك. فالأمن من مكر الله يستلزم عدم الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما يستلزم الاستمرار في المعاصي والزيادة منها، ويستلزم ترك التوبة والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وهذه حالة الأَشْقِيَاءِ من الخلق.

والأمن من مكر الله ينافي التّوحيد؛ لأنه يدل على عدم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.



وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾

[الحجر: ٥٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: القنوط: استبعاد الفرج، واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلا الأمرين ذنب عظيم، لما في القنوط من سوء الظن بالله. قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي: عن الهدى.

... — الشَّيْخُ — ...

قال: (وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾) هذا استفهام إنكار من الله سُبحَّانَهُ وتعالى، وهو بمعنى النفي، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه. ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي: التائهون عن الحق.

وهذه الجملة قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاءتَه الملائكة في صورة أضياف يريدون إهلاك قوم لوط، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كريماً مضيافاً، فلما جاءه هؤلاء الرجال بادر إلى ضيافتهم، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وفي آية أخرى ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، وقربه إليهم، لكنهم لم يأكلوا لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون؛ فأوجس إبراهيم في نفسه أن يكونوا أعداء، لكنهم طمأنوه وأخبروه بمهمتهم، وأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية.

وزادوه -أيضاً- بالبشرى بالولد، وكان لا يُولد له فاستبعد ذلك، فقالوا له: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيتِ﴾ [الحجر: ٥٥] فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ

رَحْمَةً رَبِّهِ ۖ إِلَّا الصَّالُّونَ ﴿١﴾ هذا محلّ الشاهد، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه ﴿إِلَّا الصَّالُّونَ﴾ عن الحق؛ لأن المؤمنين - وخاصة الأنبياء - يعلمون من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَفَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُمْ، وَيَعْلَمُونَ مِنْ قُرْبِ رَحْمَتِهِ وَفَرَجِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُمْ.

فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو الأنبياء يقول: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الصَّالُّونَ﴾ مهما كانت الحال من الشدة ومن الضيق ومن الحرج، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله؛ لأن الله قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه شيء، وهو أرحم الراحمين. فدلّت هذه الآية على أن الذي يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين، والضلّال ضدُّ الهدى.

وفي هذه الآية والتي قبلها وجوب الجمع بين الخوف والرجاء، فيكون العبد خائفًا راجيًا، ولا يكون خائفًا فقط؛ لأن هذا يقنطه من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يكون راجيًا فقط؛ لأن هذا يؤمنه من مكر الله، فإذا خاف الإنسان وقنط من رحمة الله لم يتب، وإذا أمن من مكر الله فإنه لا يترك المعاصي بل يزيد منها.

فلا بد من الخوف مع الرجاء، هذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة، وهو أصل عظيم تضمنه هذا الباب الذي عقده الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ.



وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ، فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»^(١).

قوله: [وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ، فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»]: هذا الحديث رواه البزار، وابن أبي حاتم، من طريق شبيب بن بشر. قال ابن معين: ثقة، ولينه ابن أبي حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً^(٢).

قوله: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ» وهو أكبر الكبائر، ولهذا بدأ به. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الشرك هضم للربوبية، وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين). انتهى^(٣).

قوله: «وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» أي: قطع الرجاء والأمل من الله عَزَّجَلَّ فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ» أي: من استدراجه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمان -نعوذ بالله من ذلك- وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس، وعجب بها. وهذه الثلاث من أكبر الكبائر، فهي كبيرة جداً، نسأل الله اجتنابها.

(١) أخرجه البزار كشف الأستار (٧١ / ١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣ / ٣٩١)، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١ / ٢٧١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٥).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١ / ٦٠).

وذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله، وبعدها عن الخير، وقد وقع فيها الكثير قديمًا وحديثًا، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

... — الشَّيْخُ — ...

هذا حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ، وَالْكِبَائِرُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ الذُّنُوبَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: كِبَائِرَ، وَصَغَائِرَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ الذُّنُوبَ مِنْهَا الْكِبَائِرُ وَمِنْهَا الصَّغَائِرُ.

والكِبَائِرُ - كما عرفها العلماء - : هي ما رُتِبَ عليها حد في الدنيا؛ كحد السرقة، أو حد القذف، أو حد الزنا، أو حد المسكر، هذا يدل على أنه كبيرة، أو رُتِبَ عليها وعيد في الآخرة بالغضب، أو باللعنة، أو بالنار، أو بالبراءة منه؛ كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(١)؛ لِأَنَّ تَبَرُّؤَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ كَبِيرَةً، أَوْ نَفَى الْإِيمَانَ؛ كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٢)، فَنَفَى الْإِيمَانَ عَنْ هَؤُلَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَفْعَالَهُمْ هَذِهِ مِنَ الْكِبَائِرِ، هَذَا هُوَ ضَابِطُ الْكَبِيرَةِ.

أما الصغيرة: فهي ما تُهْمِي عنه ولم يُرتب عليه حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، والنهي يقتضي التحريم، ويقتضي أن المنهي عنه معصية، فيدل

(١) أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



على أنه من صغائر الذنوب، ولا يُتْهَـأُونُ فِي صَغَائِرِ الذَّنُوبِ؛ لِأَنَّهَا بَرِيدٌ إِلَى الْكِبَائِرِ، لَكِنَّهَا أَخْفَ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَهِيَ تَكْفُرُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ»^(١)، فَالصَّغَائِرُ تُكْفَرُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، هَذَا هُوَ فَرْقُ مَا بَيْنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ.

وَالْكِبَائِرُ تَتَفَاوَتُ بَعْضُهَا أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»، فَالشَّرْكُ هُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَبَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، فَقَتْلُ النَّفْسِ كَبِيرَةٌ مِنَ كِبَائِرِ الذَّنُوبِ، وَتَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ، لَكِن قَتْلَ الْقَرِيبِ قَرِيبُهُ -كَأَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ أَوْ أَخِيهِ- هَذَا مِنْ أَكْبَرِ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ، فَالْقَتْلُ مَعَ أَنَّهُ كَبِيرَةٌ يَتَفَاوَتُ، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(٢)، الزَّنا حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ وَفَاحِشَةٌ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فَهُوَ كَبِيرَةٌ وَفَاحِشَةٌ وَسَاءَ سَبِيلًا لَكِن بَعْضُهُ أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فَالزَّنا بِذَوَاتِ الْمَحَارِمِ أَشَدُّ مِنَ الزَّنا بِالْأَجْنَبِيَّاتِ، وَالزَّنا بِزَوْجَةِ الْجَارِ أَشَدُّ مِنَ الزَّنا بِغَيْرِهَا؛ لِأَنَّ الْجَارَ قَدْ ائْتَمَنَكَ، وَلَهُ حَقُّ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ (٢٣٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٧٧)، وَمُسْلِمٌ (٨٦) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجوار. وأنزل الله في ذلك قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فذكر هذه الجرائم الثلاث: الشرك، وقتل النفس، والزنا.

وهنا يقول: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الشُّرْكُ بِاللَّهِ». ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝﴾ [الحجر: ٥٦]، فينبغي للإنسان أن يطمع في رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، قال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الزمر: ٥٣]، فلا يعتمد العبد على جانب الرجاء فقط؛ لأن هذا يسهل عليه المعاصي ويبعده عن التوبة، ولا يعتمد على جانب الخوف فقط؛ لأن هذا يقنطه من رحمة الله عَزَّجَلَّ، ويبعده عن التوبة. ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ۗ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٥٤]، أي: إذا كنتم تريدون هذا الوعد الكريم أنيبوا إلى ربكم، يعني: توبوا من الذنوب والسيئات، أما أن يقيم الإنسان على السيئات ويقول: ليس لي توبة، لن يغفر الله لي، هذا قنوط ويأس من رحمة الله والعياذ بالله.

قوله: «وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ» يعني: يرتكب المعاصي والسيئات ولا يخاف من العقوبة، ويقول: إن الله غفور رحيم!! لا شك أن الله غفور رحيم، لكنه



أيضًا شديد العقاب، والله سبحانه جمع بينهما في آية واحدة؛ كما في قوله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، فلا تأخذ بطرف وتترك طرفاً؛ لأن هذا رجاء مذموم والعياذ بالله.



وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ^(١).

قوله: «وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»: قال أبو السعادات: (هو أشد اليأس)^(٢).

وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء في حال الصحة فسد القلب. قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قوله: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ» كل الأدلة تدل على أن الشرك أكبر الكبائر وأعظم الذنوب، ومعنى الإشراك بالله: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ كالذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والدعاء دعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، من أموات وغائبين ومقبورين، هذا كله شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه عبادة لغير الله.

فهذا الحديث مثل حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي قبله، يدل على أن الذنوب تنقسم إلى: كبائر وصغائر، والكبائر تختلف بعضها أكبر من بعض.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٥)، وفي مصنفه (١٠/ ٤٥٩)، والطبري في تفسيره (٤٠/ ٥).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١١٣).



ويدل أيضًا على تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، وأنها
ينقصان كمال التوحيد، وقد ينفيان التوحيد.

فيجب على العبد المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا خاف
فقط قنط من رحمة الله، وإذا أمن مكره الله لم يتب من المعاصي.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحَجْرِ.

الثَّالِثَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ.

... — الشَّيْخُ — ...

❖ قوله: (الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فمن آمن مكر الله تهادى في المعاصي، مما يدل على ضعف إيمانه، وهذا من أعظم الذنوب.

❖ قوله: (الثَّانِيَّةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحَجْرِ)، وهي قوله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَفْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ هذا الطرف الثاني، وهو تغليب جانب الخوف على جانب الرجاء، وكلا الأمرين ذنب عظيم.

❖ قوله: (الثَّالِثَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ)؛ لأنه يكون من الخاسرين.

❖ قوله: (الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ)؛ لأنه يكون من الضالين.



٣٤- بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

قوله: [بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ]: قال الإمام أحمد: (ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه)^(١). وفي الحديث الصحيح: «الصَّبْرُ ضِيَاءٌ». رواه أحمد، ومسلم^(٢).

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ). رواه البخاري^(٣).
قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ)، ثم رفع صوته فقال: (إنه لا إيمان لمن لا صبر له)^(٤).

واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر على ما نهى عنه، وصبر على ما قدره الله من المصائب، زاد شيخ الإسلام: والصبر عن الأهواء المخالفة للشرع^(٥).

... — الشَّجْخ — ...

هذا الباب وضعه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد؛ لأن الصبر على الأقدار مكمل للتوحيد، والجزء من الأقدار منقوص للتوحيد، وهو قد صنف هذا الكتاب المبارك لبيان التوحيد ومكملاته، وما ينافيه وينقصه.

(١) انظر: عدة الصابرين (ص ٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٣٤٢/٥) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري معلقاً - كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص ١٢٠٢).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، وأبو

نعيم في الحلية (١/ ٧٥، ٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧١)، (٧/ ١٢٤).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٣٩/ ١٠).

❁ قوله: (مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللّٰهِ) أي: من خصال الإِيْمَانِ؛ لأن الإِيْمَانِ شعب كثيرة؛ كما قال صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيْمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِّنَ الْإِيْمَانِ»^(١). فالإِيْمَانِ شعب كثيرة، ومنها الصبر على أقدار الله.

وقد سبق بيان أن الإِيْمَانِ بالقضاء والقدر ركن من أركان الإِيْمَانِ؛ كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي في الصحيح، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، قال: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيْمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّٰهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ»^(٢)، فالإِيْمَانِ بالقدر ركن من أركان الإِيْمَانِ، أما الصبر على القدر فهو شعبة من شعب الإِيْمَانِ، ومن لم يؤمن بالقدر فليس بمؤمن، ومن لم يصبر فإن إِيْمَانَهُ ناقص، أي: يكون مؤمناً ناقص الإِيْمَانِ.

والأقدار: جمع قدر، وهو ما قدره الله وقضاه، وكتبه في اللوح المحفوظ، وكل ما يجري في هذا الكون من خير أو شر ومن نعمة أو نقمة، مما يحبه العباد وما يكرهونه فإنه بقضاء الله وقدره، لا يخرج شيء عن قضائه وقدره، فإذا عرف المؤمن ذلك هانت عليه المصائب، وذهب عنه التلوم والتحسر، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإذا صبر كُتِبَ له الأجر، وإذا جزع كتب عليه الإثم، وأن الصبر خير له من الجزع؛

(١) أخرجه البخاري (٩) مختصراً، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في أول كتاب الإِيْمَانِ (٨).

لأن الصبر يكسبه أجرًا، والجزع يكسبه إثماً، وهو لا يقدر على التخلص من القضاء والقدر مهما كره.

فهذا باب عظيم، وهو تابع للأبواب التي قبله؛ لأن الصبر من أعمال القلوب مثل: التوكل، والمحبة، والرغبة، والرغبة، والخوف، والرجاء، فتظهر آثاره على الجوارح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر على ما نهى عنه، وصبر على ما قدره الله من المصائب).

فالأول: صبرٌ على ما أمر الله به، وإن كان فيه مشقة عليه، وإن كانت نفسه تريد الراحة؛ فإنه يصبر، فيقوم للصلوات الخمس، ويقوم لصلاة الفجر، ويقوم لصلاة الليل ويترك النوم، ويصوم ويترك الطعام والشراب، ويترك الأهل؛ طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجاهد في سبيل الله، ويصبر على الجراح وعلى الآلام وعلى ملاقات الأعداء، ويصبر على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الطاعة لا بد فيها من نصب.

الثاني: صبرٌ على ما نهى الله عنه، فيحبس نفسه عن الشهوات المحرمة، وإن كانت تنازعه وتدعوه إلى الوقوع فيها، وكذلك شياطين الإنس والجن يدعونه ويرغبونه في المعاصي، ويحسّنون له القبيح، لكنه يمسك نفسه ويحبسها عن محارم الله.

الثالث: صبرٌ على ما قدر الله من المصائب، فإن أصابه مرض أو أصابته مصيبة في ماله أو ولده أو في قريبه فإنه يصبر ولا يجزع، قال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
[البقرة: ١٥٥-١٥٦]، يعرفون أن هذا من الله، وأنه بقضاء الله وقدره؛ فلا يجزعون ولا يتسخطون.

أما أقدار الله غير المؤلمة التي تلائم النفس فهذه لا تحتاج إلى صبر؛ لأن النفس تميل إليها.

وهذا النوع الأخير - الصبر على ما قدر الله من المصائب - ذكر العلماء أنه ثلاثة أنواع^(١):

الأول: حبس النفس عن الجزع.

الثاني: حبس اللسان عن التشكي لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثالث: حبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعض أقوال السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ التي تدل على أهمية الصبر وعظم شأنه، فالصبر له مقامٌ عظيمٌ في الدين، ولا بد للمؤمن من الصبر لما يواجهه في هذه الحياة من المشاكل والمشاق والصعوبات، لكنه يصبر عليها طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٢ - ١٧٠)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص ٤٥١) باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»^(١).

قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾]: وأول الآية ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. أي: بمشيئته وإرادته؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

قوله: [قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»]: هذا الأثر رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وروى عن ابن مسعود^(٢).

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وسمع من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعائشة، وغيرهم، وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

وفي هذا الأثر دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢٣/٢٨)، والبخاري معلقاً - كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن - (ص ٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/٦٦)، وشعب الإيمان (٧/١٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٧٦).

(٢) انظر: تغليق التعليق (٤/٣٤١، ٣٤٢)، والدر المنثور (٨/١٨٤).

وفي الآية بيان أن من ثواب الصبر هداية القلب.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❖ قول الله عَزَّجَلَّ في سورة التغابن: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ هذا عام لجميع المصائب؛ لأن (ما) اسم موصول، والأسماء الموصولة من صيغ العموم، ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: بقضائه وقدره، فليس هناك مصيبة بقضاء الله وقدره، ومصيبة خارجة عن قضاء الله وقدره.

والإذن على نوعين:

إذن قدري، مثل ما في هذه الآية.

وإذن شرعي؛ كما في قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: بشرعه.

فقوله: ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: بقضائه وقدره، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: السحرة ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ أي: بقضائه وقدره لا بإذنه الشرعي؛ لأن الله لم يأذن بالسحر شرعاً، لكنه أذن به قدرًا وقضاء.

قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ما معنى يؤمن بالله؟ فسرهُ علقمة بن قيس النخعي فقال: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمَ»، يعني: تنزل به المصيبة، إما في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو أهله، أو أقاربه، فلا يجزع، ولكن يعلم أنها من عند الله، وأن الله قد قدرها

وقضاها، وما قضاه الله وقدره فلا بد أن يقع، فلا يقول: لو أني فعلت كذا، لو أني عملت كذا ما نزلت بي المصيبة.

فإذا علم المؤمن هذا هان عليه الأمر، ورضي بقضاء الله وقدره، ولم يجزع ولم يسخط، وسلّم أمره لله عزَّ وجلَّ.

وقد سمى الله هذا التسليم وهذا الرضى إيماناً، فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يرضى بقضاء الله ويسلّم له أمره، وهذا شاهد لقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ فِي التَّرْجُمَةِ: (باب من الإيمان الصبر على أقدار الله)، فدل على أن الصبر من الإيمان، وأن الجزع من الكفر.

❁ قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي: ثمرة رضاه بقضاء الله وصبره واحتسابه: هداية قلبه؛ لأن الله جعل في قلبه الإيمان والبصيرة والنور. أما إذا جزع، فإن ذلك يسبّب له عمى القلب، واضطراب النفس، فهو يكون دائماً في اضطراب وقلق.



وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»^(١).

قوله: [وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»] أي: هما بالناس كفر، حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله، فأطلق الكفر على من قامت به خصلة من هاتين الخصلتين، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق، ففرق بين الكفر المعرف باللام - كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»^(٢) - وبين كفر مُنْكَرٍ في الإثبات.

قوله: «الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ» أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» أي: رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائله؛ لما فيه من السخط على قدر الله المنافي للصبر.

... — الشَّبْحُ — ...

❁ قوله: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ» يعني: خصلتان «هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ» أي: كفر أصغر لا يخرج من الملة؛ لأن الكفر إذا جاء مُنْكَرًا فإنه يراد به الكفر الأصغر،

(١) أخرجه مسلم (٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) بنحوه، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا جاء مُعَرِّفًا بالألف واللام فإنه يراد به الكفر الأكبر المخرج من الملة، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» أي: من ترك الصلاة عامدًا بغير عذر فإنه يكفر الكفر المخرج من الملة.

❦ قوله: «الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ»، كالذي يطعن في أنساب الناس ويتنقصهم ويقول: فلان نسبه وضيع، أو فلان ليس ابناً لفلان، فينكر نسبه ويطعن فيه، أو يقول: فلان قبيلي، وفلان خضيرى ليس فيه خير!! فهذا من أمور الجاهلية، وهو من خصال الكفر؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يتنقص الناس في أنسابهم؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالكرم عند الله ليس بالنسب، وإنما هو بالتقوى، فالتقى كريم عند الله، ولو كان مجهول النسب، وما ضر سلمان الفارسي ولا بلالاً الحبشي ولا عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كونهم ليس لهم نسب عربي، أو نسب قبلي، ولا ضرر أبا بكره الثقفي كونه ليس له نسب قبلي، بل كانوا من خيار أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نفع أبا جهل كونه قرشيًا، ولا نفع أبا لهب كونه هاشميًا، فلا يطعن في أنساب الناس إلا إنسان ناقص الإيمان، وفيه خصلة من خصال الجاهلية.

والجاهلية: ما كان قبل البعثة، وكل أمور الجاهلية مذمومة، ولا يجوز أخذ شيء من أمور الجاهلية، ولا التشبه بأهل الجاهلية، ومن ذلك الطعن في أنساب الناس. أما معرفة الأنساب من غير طعن، فلا بأس أن يعرف الإنسان

الأنساب، فيعرف أن فلاناً من قبيلة فلان؛ لأجل المعرفة فقط، وليس لأجل تنقص الناس بأنسابهم.

❦ قوله: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» هذا محل الشاهد من الحديث؛ لأن النياحة تدل على عدم الصبر، وهي رفع الصوت بالبكاء على الميت، وإظهار الجزع على موته، والذي ينبغي على المسلم أن يصبر عند المصيبة ويحبس نفسه عن الجزع؛ لأجل أن يُكتب له الأجر على مصيبته، أما إذا جزع وتسخط فإنه يأثم بذلك.

والنياحة على الميت من الكبائر؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدها من أمور الجاهلية، وأيضاً جاء الوعيد على النياحة؛ كما يأتي في الحديث الذي بعد هذا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١). فالنياحة كبيرة من كبائر الذنوب تدل على عدم الصبر وعلى نقصان الإيمان.



(١) سيأتي تخريجه الصفحة القادمة.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

قوله: «مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ»: قال الحافظ: (خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرِبَ بقية الوجه مثله)^(٢).

قوله: «وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»: قال شيخ الإسلام: (هوندب الميت)^(٣). وقال ابن القيم: (الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايع، وتفضيل بعض على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي عليه، فكل هذا من دعوى الجاهلية)^(٤). وقد يُعْفَى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، كما يُعْفَى عن البكاء إذا كان على غير وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد^(٥).

... — الشَّيْخُ — ...

❦ قوله: «ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ» هذا أيضًا من أنواع النياحة، ولا يزال يوجد هذا عند بعض المسلمين الذين يغلب عليهم الجهل توجد هذه الأمور، وأكثر من يفعل ذلك النساء، فتجد المرأة تجزع عند المصيبة وتضرب خدها أو وجهها وتشق جيبيها، مما يدل على عدم الصبر ونقص الإيمان.

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

(٢) انظر: فتح الباري (١٦٤/٣).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٦٩).

(٤) انظر: زاد المعاد (٤٧١/٢).

(٥) انظر: عدة الصابرين (ص ٨٦).

❁ قوله: «بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» كل العصبية كلها من دعوى الجاهلية، فمن تعصب لقبيلة، أو تعصب لمذهب من المذاهب، أو تعصب لشيخ من المشايخ لا يقبل إلا منه، ويأخذ قوله مطلقاً سواء أكان خطأ أم صواباً، فهذا من دعوى الجاهلية. والذي ينبغي على المسلم أن يتبع الحق سواء أكان عند قبيلته أم عند غيرها، وسواء أكان في مذهبه الذي ينتسب إليه وعند شيخه الذي تتلمذ عليه، أم في المذهب الآخر عند شيخ آخر، والحق ضالة المؤمن أينما وجده أخذه.

أما الذي يقول: لا أقبل إلا ما عليه قبيلتي، فقد وافق قول الشاعر في حمية الجاهلية:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيْتُ وَإِنْ تَرَشُدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدِ^(١)

فهو مع قبيلته (غزية) سواء أصابت أم أخطأت. وهذا من أمور الجاهلية.

ومثله الذي يتعصب لمذهبه، فيقول: أنا لا أقبل إلا ما عليه مذهب الحنابلة ولو أخطأوا، أو مذهب الحنفية، أو المالكية، أو الشافعية، ويتحجر على أقوال شيخه ولو خالف الدليل. وهذا من العصبية الجاهلية، فلا يجوز للحنبلي إذا ظهر له الدليل مع الحنفي أو مع الشافعي أو مع المالكي أن لا يأخذ به، كذلك أصحاب المذاهب أن يتمسكوا بالقول في المذهب إذا كان

(١) هذا البيت للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة، كان يقاتل مع المشركين يوم حنين، فقتل يومئذ كافراً. انظر ترجمته في: تاريخ دمشق (١٧/ ٢٣١، ٢٣٢). وانظر هذا البيت في: ديوان المعاني (١/ ١٢٢)، والحماسة المغربية (٢/ ٨٢٤).

مرجوحاً بالدليل؛ لأن المقصود اتباع الدليل، ومعرفة القول الراجح، وليس اتباع المذاهب. وهذا ما عليه المحققون من أهل العلم أنهم متى ما اتضح لهم الدليل أخذوه.

ولهذا يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: أجمع المسلمون على أنه من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها^(١).

هذا هو الذي عليه أهل العلم المحققون من الأئمة وأتباعهم، أنهم لا يتعصبون، ولا يتبعون إلا ما دل عليه الدليل، والتعصب مذموم وهو من خصال اليهود، قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١]، فمع أنهم لا يؤمنون بما أنزل عليهم، يتعصبون له ولا يؤمنون بما أنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أنزل عليهم فيه الإيمان بجميع الرسل، ولا سيما خاتمهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما مر أحد رؤوس الكفر في المدينة على نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، غاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود، وقال له: اعمد إليهم فاجلس معهم، وذكرهم يوم بعث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار.

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

وكان يوم بعث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج.

ف فعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواب رجلاً من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدهم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - فخرجوا إليها وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم، فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ، أَبَدَعَوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ...»^(١).

ف عرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله وعدوهم.

فيا لها من عصبية بغیضة تلك التي من أجلها يُطرح الحق ويؤخذ بالباطل، فقد كاد الصحابة يقتتلون بسبب حمية الجاهلية ودعوى الجاهلية، بعد أن هداهم الله للإسلام.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣) من حديث زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



فدل ذلك على أنه لا يجوز في الإسلام التعصب للمذاهب أو القبائل أو الأشخاص، وإنما المسلم يدور مع الحق أينما كان، سواء أكان في مذهبه أم في غيره، والرجوع إلى الحق خير من التهادي فيه.



وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

قوله: [«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا»]: قال شيخ الإسلام: (المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله عَزَّجَلَّ، والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح. فنفس البلاء يُكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم.

فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر، أو مرض، أو جوع، حصل له من الجزع، والنفاق، ومرض القلب، والكفر الظاهر، وترك بعض الواجبات، وفعل بعض المحرمات، ما يوجب له ضررًا في دينه.

فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية. فهي بعينها فعل الرب عَزَّجَلَّ رحمة للخلق، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى محمود عليها.

فمن ابتلي فَرُزَقَ الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له مع ما كَفَّرَ من خطايا رحمة، وحصل له بشائه على ربه صلاة ربه عليه، قال

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٤٧/٧)، والحاكم في المستدرک (٦٥١/٤).

عَزَّجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك). انتهى ملخصاً.

... ————— الشَّيْخُ ————— ...

❁ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا» هذا الحديث معناه واضح: أن من علامة إرادة الله بعبده الخير أن يعجل له العقوبة على ذنوبه في الدنيا. فتكون المصائب من هذا الوجه خيراً للمؤمن؛ لأنه يصبر عليها فيثاب على الصبر، ولأن الله عَزَّجَلَّ يُكَفِّرُ بها خطاياهم، فيسلم من عقوبتها في الآخرة، والله حكيم عليم بما يجريه على عباده المؤمنين، لا بغضاً لهم، وإنما لمحبتهم لهم وإرادته الخير بهم، ولیمحصهم ويخلصهم من ذنوبهم، وليعلموا أن هذه المصيبة أو هذا المكروه ما أصابهم إلا بذنب، فيتوبوا إليه من كل ذنب. فكل هذه أمور محبوبة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن كانت مكروهة عند الناس.

❁ قوله: «وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ»، فهو يفعل الذنوب والمعاصي، ويبارز بالكفر والإلحاد، والله ينعم عليه ويغدق عليه العطاء في الدنيا، من أجل أن تبقى عليه ذنوبه، ومن أجل أن يزداد من المعاصي. هذا من الإمهال والاستدراج، فيأتي يوم القيامة وعليه الذنوب والخطايا، فيعذب بها في نار جهنم والعياذ بالله.

بعض الناس يقول: المسلمون الآن فيهم ضعف، وفيهم وفيهم، متأخرون عن ركب الحضارة، بينما الدول الكافرة متقدمة في الحضارة والصناعة!!

فنقول لهم:

أولاً: إن الله عَزَّوَجَلَّ أمر المسلمين أن يجتهدوا في سبيل امتلاك القوة، فقال لهم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وهم الذين قصرُوا وتكاسلُوا، ولو أنهم بذلوا جهدهم واستعدوا لفاقوا على غيرهم من الأمم.

ثانياً: هذا ليس دليلاً على بغض الله لهم، بل هو دليل على محبته لهم، وأن هذه المصائب والبلايا من أجل أن يكفر عنهم ذنوبهم، ومن أجل ألا يتكبروا ويطغوا في الأرض ويفسدوا في الأرض، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. وأما الكفار - وإن أعطاهم الله زهرة الدنيا - فهم كفار، عليهم غضب الله في الدنيا والآخرة، وإنما ذلك من الله استدراج لهم، حتى إذا أخذهم لم يمهلهم. والله عَزَّوَجَلَّ يقول لنبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، فليس عطاء الله لهم دليلاً على محبته لهم، بل هو دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد بهم الشر ولم يرد بهم الخير.

والله عَزَّوَجَلَّ حكيم عليم في تدبيره، يزوي الدنيا عن عباده المؤمنين من أجل مصلحتهم؛ كي لا يتكبروا، ولا ينشغلوا عن طاعة الله، ولا تلهيهم الدنيا، ومن أجل أن يخلصهم من ذنوبهم، بينما يعطي أعداءه الكفار استدراجاً لهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمَلِّهِمْ إِلَّا أَنَّمَا نُمَلِّهِمْ لِيُزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].



وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

قوله: [وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ»]: بكسر العين، وفتح الظاء فيهما، ويحتمل ضمهما مع سكون الظاء. قال ابن القيم: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب، فإنه حينئذ يُثاب على ما تولد منها، وهو ظاهر).

قوله: «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»: وفي الحديث: سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلِأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةً، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرَكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ». رواه الدارمي، وابن ماجه، والترمذي وصححه^(٢).

قوله: «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا» أي: من الله، «وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» كذلك.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٤ / ٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٣٥٢ / ٤)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي في سننه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند (١٧٢ / ١)، وابن حبان في صحيحه (١٦٠ / ٧)، والبزار في مسنده (٢٤٩ / ٣)، والحاكم في المستدرک (٩٩ / ١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٢ / ٧) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وترجم البخاري في صحيحه (ص ١٠٦٩) فقال: «باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

... — الشَّيْخُ — ...

❁ قوله: (وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لم يبين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ راوي الحديث، وهو أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، راوي الحديث الذي قبله، وسنده واحد، ورواه الترمذي أيضًا، ولذلك اعتبر كأنها حديثًا واحدًا.

❁ قوله: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا» هذا فيه إثبات المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنها صفة من صفاته، وأنه يحب عباده المؤمنين ويبغض أعداءه الكافرين، «إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ» أي: امتحنهم بالشدائد والمكاره، «فَمَنْ رَضِيَ» بالقضاء والقدر ولم يجزع «فَلَهُ الرِّضَا» من الله، وهذا فيه وصف الله عَزَّوَجَلَّ بالرضى أيضًا؛ لأن الجزء من جنس العمل، فمن رضى بقضاء الله وقدره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «وَمَنْ سَخِطَ» بالقضاء والقدر وجزع «فَلَهُ السَّخَطُ» من الله، وهذا فيه وصف الله عَزَّوَجَلَّ بأنه يسخط ويبغض ويحب ويكره، ولكنها صفات تليق بجلاله وليست مثل صفات المخلوقين.

وفيه أن الجزء من جنس العمل، وفيه أن ما يقع على العباد من المصائب فإنها هو ابتلاء وامتحان، فمن صبر حاز الأجر والرضى من الله، ومن سخط حاز السخط والعقوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الباب بما فيه من الآية والأحاديث يدل على أن الصبر من الإيمان، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى

الْجَاهِلِيَّةِ.

الخَامِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرِ.

السَّادِسَةُ: إِرَادَةُ اللَّهِ بِهِ الشَّرِّ.

السَّابِعَةُ: عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ.

الثَّامِنَةُ: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.



فهرس الموضوعات

- ١٤- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١)
- ٥..... وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴿
- ٥..... مناسبة الباب للكتاب
- ٥..... بطلان الاستغاثة بغير الله
- ٩..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿
- ١٠..... تعريف القطمير
- ١٢..... ذكر الله أربعة أشياء تدل على بطلان الشرك
- ١٥..... شرح حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»
- ١٨..... مناسبة الحديث للباب
- ١٩..... شرح حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ...»
- ٢٠..... مناسبة الحديث للباب
- ٢١..... فنوت النوازل
- ٢٢..... شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ...»
- ٣٣..... مسائل الباب
- ١٥- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
- ٣٩..... قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿
- ٣٩..... تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ ﴿

- مناسبة الآية لموضوع الكتاب ٤٠
- هذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمر أربعة ٤٢
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ ...» ٤٥
- مسائل عظيمة في هذا الحديث ٤٨
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ» ٤٩
- دليل كفر الساحر والكاهن ٥٤
- فوائد عظيمة في هذا الحديث ٥٦
- القرآن يفسر بأحد أربعة أمور ٥٦
- شرح حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٦١
- فوائد عظيمة في هذا الحديث ٦٧
- مسائل الباب ٧٢
- ١٦- بَابُ الشَّفَاعَةِ ٨١
- تعريف الشفاعة لغة واصطلاحًا ٨٢
- الشفاعة على قسمين ٨٢
- انقسام الناس في أمر الشفاعة إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط ٨٦
- الشفاعة ستة أنواع ٨٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ...﴾ ٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ ١٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ...﴾ ١٠٤

- وجه الاستدلال من الآية ١٠٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ...﴾ ١٠٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ...﴾ ١٠٨
- أهمية هذه الآيات في إبطال دعوى المشركين في الشفاعة ١٠٩
- شرح كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الشفاعة ١١٢
- الرؤيا على ثلاثة أقسام ١١٩
- مسائل الباب ١٢١
- أنواع الشفاعة ١٢٢
- ١٧- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ١٢٥
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٢٥
- شرح حديث سعيد بن المسيب: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ...» ١٢٨
- مسائل عظيمة في هذا الباب ١٤٢
- مسائل الباب ١٤٩
- ١٨- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ ١٥١
- الكفر على قسمين ١٥١
- تعريف الغلو لغة واصطلاحًا ١٥٢
- المراد بالصالحين ١٥٣

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوا...﴾ ١٥٥
- مناسبة الآية للباب ١٥٩
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ...» ١٦٠
- شرح قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا...» ١٦٦
- مسائل عظيمة في تفسير الآية الكريمة ١٦٦
- التصوير ممنوع لعلتين ١٦٧
- شرح حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تُطْرُونِي...» ١٧٢
- مناسبة الحديث للباب ١٧٥
- شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ...» ١٧٦
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ..» ١٨٠
- تعريف التنطع ١٨٠
- مسائل الباب ١٨٥
- ١٩ - بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ ١٨٧
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٨٧
- شرح حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» ١٨٩
- شرار الخلق عند الله عَزَّجَلَّ ١٩٢
- الجمع بين فتنة القبور وفتنة التماثيل ١٩٣

- شرح حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» ١٩٥.....
- التحذير من الشرك أمر متعين..... ١٩٧.....
- الشاهد من الحديث..... ١٩٩.....
- يُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة..... ٢٠٠.....
- شرح حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ...» ٢٠٥.....
- تعريف الخلعة..... ٢٠٦.....
- وجه الشاهد من الحديث..... ٢٠٨.....
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ...» ٢١٢.....
- مسائل عظيمة في الحديث..... ٢١٤.....
- مسائل الباب..... ٢١٧.....
- ٢٠- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ..... ٢١٩.....
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد..... ٢١٩.....
- شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا...» ٢٢١.....
- وجه الاستدلال من الحديث..... ٢٢٤.....
- شرح قول مجاهد في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَ...﴾ ٢٢٧.....
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَاوِرَاتِ الْقُبُورِ...» ٢٣١.....
- مسائل الباب..... ٢٣٦.....

٢١- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ

كُلِّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشَّرِّ ٢٤٢.....

تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾ ٢٤٥.....

صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٤٥.....

شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ...» ٢٤٩.....

سد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطرق المفضية إلى الشرك ٢٥٠.....

شرح قول علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا...» ٢٥٧.....

مسائل الباب ٢٦٧.....

٢٢- بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ ٢٧٢.....

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ...﴾ ٢٧٢.....

مناسبة الباب للكتاب ٢٧٣.....

تعريف الجبت ٢٧٤.....

تعريف الطاغوت ٢٧٤.....

سبب نزول الآية ٢٧٤.....

الشاهد من الآية للباب ٢٧٥.....

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ...﴾ ٢٧٧.....

تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ

مَسْجِدًا...﴾ ٢٨١.....

شرح حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ...» ٢٨٢.....

- المقصود بقوله: «سَنَن»، وتروى «سُنَن» ٢٨٢
- معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ» ٢٨٢
- وجه الدلالة من الحديث ٢٨٤
- شرح حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي...» ٢٨٥
- شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَنَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرَفَّعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» ٢٩٤
- الفرقة الناجية المنصورة ٣٠٥
- مسائل عظيمة في هذا الحديث ٣٠٨
- مسائل الباب ٣١١
- ٢٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي السَّحْرِ ٣١٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ...﴾ ٣١٣
- مناسبة هذا الباب للأبواب السابقة ٣١٤
- تعريف السحر لغة واصطلاحًا ٣١٤
- أنواع السحر ٣١٥
- تفسير الجبت والطاغوت في قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣١٩
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ...» ٣٢٣
- وجه الاستدلال من الحديث ٣٢٦
- الشرك على نوعين ٣٢٦
- شرح حديث جندب: «حَدُّ السَّاحِرِ...» ٣٣٧

- أثر حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَتَمَّا أَمَرْتُ بِقَتْلِ...» ٣٣٩.....
- شرح حديث بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِةَ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ...» ٣٤٠.....
- فوائد عظيمة من هذه الآثار ٣٤٢.....
- مسائل الباب ٣٤٧.....
- ٢٤ - بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ ٣٤٨.....
- شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعِيَاةَ...» ٣٤٨.....
- مناسبة الباب لما قبله ٣٥٠.....
- معنى العيافة ٣٥١.....
- تعريف الطيرة ٣٥١.....
- معنى الطرق ٣٥١.....
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً...» ٣٥٣.....
- حكم تعلم النجوم ٣٥٥.....
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً...» ٣٥٧.....
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
«أَلَا أُنبِئُكُمْ مَا الْعُضَةُ؟» ٣٦٢.....
- بيان معنى الْعُضَةُ ٣٦٢.....
- وجه الشبه بين النيمة والسحر ٣٦٤.....
- شرح حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ٣٦٧.....
- مسائل الباب ٣٧٠.....

٢٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ ٣٧٢

مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٧٢

تعريف الكاهن والعراف والمنجم ٣٧٤

شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا...» ٣٧٦

أحوال من سئل عرافاً ولو لم يصدقه ٣٧٧

شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ،

فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» ٣٧٩

شرح حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ...» ٣٨٢

معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا» ٣٨٢

ذكر كلام البغوي وشيخ الإسلام في تعريف الكاهن والعراف ونحوهما... ٣٨٥

قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تعلم النجوم ٣٨٨

مسائل الباب ٣٩١

٢٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ ٣٩٤

معنى النُّشْرَةُ ٣٩٤

مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٩٥

شرح حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ

النُّشْرَةِ...» ٣٩٧

بيان قول قتادة: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ...» ٤٠٠

شرح قول الحسن لا يحل السحر إلا ساحر وبيان كلام ابن القيم ٤٠٣

- ٤٠٦..... كيفية علاج السحر
- ٤١٠..... مسائل الباب
- ٤١١..... ٢٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ
- ٤١١..... حقيقة التطير
- ٤١٣..... مناسبة الباب لما قبله
- ٤١٥..... تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيَّرْتُمُ...﴾
- ٤١٦..... تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَيَّرْتُم مَعَكُمْ﴾
- ٤١٩..... شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طَيْرَةَ...»
- نفى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث بروايته ستة أشياء يعتقدونها أهل
- ٤٢١..... الجاهلية
- ٤٢٥..... شرح حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ...»
- ٤٢٦..... معنى الفأل في الحديث
- ٤٢٨..... شرح حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ...»
- ٤٢٩..... المقصود بالنهي في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا»
- ٤٣١..... شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ...»
- ٤٣٢..... الطيرة تعالج بثلاثة أمور
- ٤٣٤..... شرح حديث ابنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ...»
- ٤٣٥..... ذكر ما يقول من تطير
- ٤٣٦..... حَدِيثُ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»
- ٤٣٨..... مسائل الباب

- ٢٨ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ ٤٣٩
- تعريف التنجيم ٤٣٩
- شرح قول قتادة: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ...» ٤٤١
- شرح قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعْلُمُ مَنَازِلَ الْقَمَرِ» ٤٤٦
- التنجيم ينقسم إلى قسمين عند أهل العلم ٤٤٧
- حكم تعلم منازل القمر ٤٤٨
- شرح حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
- «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ...» ٤٥٠
- مسائل الباب ٤٥٥
- ٢٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ ٤٥٦
- تعريف النوء ٤٥٦
- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، وكتاب التوحيد ٤٥٧
- الاستسقاء بالنجوم على قسمين ٤٥٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ٤٥٩
- شرح حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي...» ٤٦٢
- تعريف الجاهلية ٤٦٤
- الجاهلية العامة زالت ببعثة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤٦٥
- شرح حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٧٤
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ...» ٤٧٩
- مسائل الباب ٤٨٠

٣٠- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ٤٨١

تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ٤٨١

المحبة من أعمال القلوب، وهي على ثلاثة أنواع ٤٨٢

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ عِبَادُكُمْ﴾ ٤٨٤

شرح حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ...» ٤٨٨

معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» ٤٨٨

شرح حديث: «ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ...» ٤٩١

شرح أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ...» ٤٩٥

تفسير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لقوله تعالى: ﴿وَنَقَطَعْتَ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ٤٩٩

مسائل الباب ٥٠٢

٣١- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيََاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ

وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٥٠٥

تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيََاءَهُ﴾ ٥٠٥

مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٥٠٦

تعريف العبادة ٥٠٦

سبب نزول آية آل عمران ٥٠٧

الخوف على قسمين ٥١١

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ ٥١٣
- وجه الدلالة من الآية ٥١٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ ٥١٧
- الشاهد من الآية ٥٢٠
- شرح حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ...» ٥٢٢
- وجه الاستدلال من الحديث ٥٢٥
- شرح حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنِ التَّمَسَّ...» ٥٢٨
- مسائل الباب ٥٣١
- ٣٢- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٥٣٢
- معنى التوكل ٥٣٤
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٥٣٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ ٥٣٩
- التوكل ينقسم إلى قسمين ٥٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْيَتِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٤٣
- وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ٥٤٦
- شرح أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٥٤٧
- مسائل الباب ٥٥٢
- ٣٣- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ
- إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٥٥٤

- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمْنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ ٥٥٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ ٥٦١
- الجمع بين الخوف والرجاء ٥٦٢
- شرح حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ...» ٥٦٣
- وجه الشاهد من الحديث ٥٦٤
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ...» ٥٦٨
- دلالة الحديث ٥٦٨
- مسائل الباب ٥٧٠
- ٣٤- بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ ٥٧١
- الصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة ٥٧٢
- الصبر ثلاثة أنواع ٥٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ ٥٧٥
- تفسير علقمة للآية ٥٧٥
- الإذن على نوعين ٥٧٦
- شرح حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ...» ٥٧٨
- وجه الشاهد من الحديث ٥٨٠
- شرح حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ...» ٥٨١
- شرح حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا...» ٥٨٦

شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ...»	٥٩٠
مسائل الباب	٥٩٢
فهرس الموضوعات	٥٩٣



تم بحمد الله الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث: ويبدأ بـ
 (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
 بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]).